أبحاث
في التصوف

إعداد الشيخ

الدكتور عبد العزيز الخطيب

الحسني الدمشقي الشافعي

نائب مشيخة الطرق الصوفية في البلاد الشامية

بسم الله الرحمن الرحيم

أبحاث
في التصوف

حقوق الطبع محفوظة لكل مسلم
الطبعة الخامسة
١٤٤١ هـ - ٢٠١٩ م

تطلب النسخة من المؤلف مباشرة
هـ ٠٩٣٣٤٨٤٩٥٦

قال أئمة التصوف

طريق بلا سلوك سترها مهتوك .

محمد الهاشمي

طريق الوصول طريق الرسول

يا سائلا عن منهج المتصوف

اسمع كلاما شافيا من منصف

إن التصوف بالكتاب مشيد

وبسنة المختار طه الأشرف

الإهداء

إلى سيدي ومولاي العارف بالله الولي المحقق

سيد أهل زمانه تقوًى وورعًا وزهدًا

الجامع لعلم الشريعة مع علم الحقيقة

البركة المعمَّر

شيخ الطريقة الشاذلية في البلاد الشامية

شيخ القراء

الشيخ شُكْري اللُّحفي

جمعنا الله به في مستقر رحمته

محبكم

خادم الطريقة الشاذلية

عبد العزيز الخطيب الحسني

الشافعي الدمشقي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أما بعد:

فهذه دروس قيمة تناولتها من مصادرها حول موضوع التصوف.

نشأته وتطوره وطرقه ورجاله ومصطلحاته...

وأرسلتها تباعًا على برنامج الواتس أب لأحبابي وأصحابي وطلاب العلم أمثالي، فنفع الله بها، وأمروني أن أقوم بطباعتها لتحفظ تلك المقالات ضمن كتاب ولا تضيع، فامتثلت لهم...

أسأل الله أن يتقبلها بقبول حسن وينفع بها عباده الصالحين..

والحمد لله رب العالمين.

دمشق رمضان ١٤٣٦ حزيران ٢٠١٥ **خادم العلم الشريف**

عبد العزيز محمد سهيل الخطيب الحسني

الدمشقي الشافعي الشاذلي

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المعطي الجواد، والصلاة والسلام على شفيع العباد، سيد الوجود، والبركة العامة لكل مخلوق موجود، سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم المعاد.

أما بعد:

فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأهمها بعد الإسلام الهداية إلى طريق السادة الكرام.. الأقطاب والأبدال.. والأولياء، من سلكوا طريق الوصول إلى مقام الإحسان، إخوتي في الإسلام:

-أراد الله تبارك وتعالى أن يختلف المسلمون في معرفة سبيل الحق، وأن يري كل فريق أن طريقه هو الصواب، وهذا قدر نرضى به، إلا أن الطامة ليست في الاختلاف بل في جعله سببًا لاختلاف القلوب، حتَّى إن بعضهم يعادي مخالفيه من المسلمين أكثر من عدائه لأعداء الدين!

إن الهدف من هذه الأبحاث:

١- تسليط النور على حقيقة التصوف الإسلامي الحق كما علمته من سادتي العلماء العاملين العارفين بالله تعالى.

٢- دعوة الإخوة المخالفين في الرأي إلى الاطلاع على حقيقة التصوف من منابعه الصافية بعيدًا عن الإعلام، وبنظرة موضوعية متجردة عن التعصب والتفسيق والتكفير.

٣- التوجه إلى **صنفين** من السادة القراء:

-**أولهما**: إخوة يبحثون عن الحق، ولكن كثرة الأفكار وانتشار السباب وشيوع العداء جعلهم حيارى أيُّ فرقةٍ هي فرقةُ أهل السنة والجماعة؟

-**ثانيهما**: إخوتنا في الطريق وأحبابنا الذين يجابههم أعداء الحق ليل نهار صباح مساء فيقفون حيارى كيف نرد على شبهاتهم؟

٤- لا أقول: إن حاملي ألوية محاربة التصوف والصوفية لا شأن لي بهم، ولكن ليس هدفي هدايتهم من خلال هذه الأبحاث، بل إني أرغب إلى الله تعالى في هدايتهم للحق، طالبًا منهم أن ينظروا إلى مخالفيهم نظرة أخوية، ولا يجعلوا من الفروع الخلافية سببًا لاختلاف القلوب وفرقة الأمة.

٥- أخيرًا: فإني أرغب إلى الجميع الاشتغال بما ينفعهم وينفع الأمة الإسلامية، فليس الجدال والخصام والسباب من النفع في شيء، وليس الوقت رخيصًا حتى نضيعه فيما لا نفع فيه، ولا ننسى الحب الصادق لكل من نطق بالشهادتين، والدعاء للجميع بكل خير.

في هذا الكتاب:

دعوة للأمة المحمدية إلى مشروع حوار المفاهيم؛ للحكم على علم التصوف بعيدًا عن التأثيرات الطائفية بأسلوب نقدي علمي، فلئن اختلف الناس حول مصطلح التصوف فلا ينبغي أن يختلفوا حول مضمونه الشريف.

ما يعنيني اليوم هو تحرير محل النزاع بين فريقَي الأمة؛ للوصول إلى هدف التوحيد والتقريب والوحدة، وتلافي ما يمكن تلافيه.

وإنني حين أكتب هذه المقالات وأجمعها أقرب المسافات، وألغي كثيرًا من الخلافات الوهمية؛ لنتفرغ للاختلاف الحقيقي وحله بصدق ونزاهة، فلا ينبغي أن نسمح لأحد بإثارة الفتن وتمزيق قوى الأمة الإسلامية الواحدة.

ولا يهمني مصطلح التصوف الذي اختلفوا فيه بقدر ما يهمني مضمون هذا العلم؛ لأنه لا مشاحة في الاصطلاح.

إن كان ثمة حوار سيكون فينبغي أن يكون في المضمون، وربما صدق من قال:

"إن هذه الطائفة –أي: الصوفية– قد ضل فيها **فريقان**:

فريق رفَض كل ما عندهم فرفض كثيرًا من الحق

وفريق قَبِلَ كل ما عندهم فقبل كثيرًا من الباطل"

نعم؛ لقد كان الصدر الأول من المسلمين مرحلة من مراحل تطبيق مضمون التصوف مع أنه لم يكن له اسم، فكانت الصدّيقية في العلم والعبادة والزهد وخدمة الناس، بل كان عند بعضهم نزوع روحي خالص، وخبر الثلاثة الذين تدارسوا عبادة سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم ليس ببعيد عنا، وكيف أن أحدهم قال: أما أنا فسوف أصوم ولا أفطر، والآخر يصلي الليل ولا ينام، والثالث لا يتزوج النساء. فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أما إني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

فسيدنا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ضبط هذا النوع من النزوع الروحي الشديد، مع أنه في صورة أخرى ليس أقل إشراقًا من هذه رآه أصحابه صلَّى الله عليه وسلَّم ينام على حصير بالٍ حتى أثّر في عنقه ووجهه الشريف، فقالوا: لو اتخذنا لك وطاء يا

رسول الله، فغضب وقال: «**ما لي وللدنيا؟! ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».

وكتب الحديث الشريف مملوءة بأحاديث الزهد والتقشف وإخراج الدنيا من القلب، ألم تسمعوا قول السيدة عائشة رضي الله عنها: (**ما كان طعام رسول الله إلا قوتًا**) والقوت: ما يدفع ضر الجوع فقط، إنه زهد عجيب؟! وحديث التصدّق بالدنانير قبل وفاته صلَّى الله عليه وسلَّم حتى لقي الله تعالى فارغًا من الدنيا، ومثله حال أهل الصفَّة في مسجده صلَّى الله عليه وسلَّم.

لقد تطور جيل الصحابة الكرام في مسار التصوف من خلال علاقة الإنسان بربه، وعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، حتى وصل إلى المدرسة الجنيدية فصارت مدرسة للاقتداء.

كانت مدرسة الإمام الجنيد تمثل الاتجاه السني الصوفي منذ عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم -وهذا ما حاولت التوجيه إليه في هذا الكتاب- فكان تلاميذها قممًا في التعرف إلى الله حق المعرفة، فنشأ في عصرهم مصطلح (العارف بالله تعالى) مستمدًّا من حديث المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم: «**تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**».

التصوف: ربط العبد بخالقه ووصله بمقام المحبة، من حديث: (**فإذا أحببته كنت سمعه.. وبصره... ويده.. ورجله...**)

والتصوف له دور كبير في ترك شبه الحرام (**خير دينكم الورع**) وتربية الناس بالمعاني الأخلاقية العالية؛ ولذا سميت المدرسة الصوفية بالمدرسة الخُلُقية.

واليوم نحن بحاجة إلى الدعوة إلى التصوف السلفي الحقيقي وربطه بحبله الأول على أسس علمية فكرية تربوية؛ لأن البيئة أصبحت تشتكي عطشًا وفقرًا إلى حياة روحية جنيدية تجعلنا على يقين بأهمية ممارستها.

إنني لا أدعي أنني قد استقصيت في هذا الكتاب أبحاث التصوف ومصطلحاته الضخمة، ولكنني أجبت عن بعض قضاياه مدعمًا بالأدلة العلمية المناسبة.

إنها محاولةٌ لتصحيح مفاهيم فُهِمت خطأً أدت إلى شق الصف المسلم، ودعوةٌ إلى التصوف السني الأصيل، وتحويل المتصوفة إلى دعاة إلى الحق والشريعة ومواكبتها للثقافة المعاصرة.

فليس من رسالة التصوف البحث في الأحكام الشرعية، ولا البحث في الصفات الربانية، ولا الجدال والحوار في المعارف الفلسفية والمذاهب العقلية.

وإنما التصوف تطوع دائم للعبادة، وهذا التطوع التعبدي جعل أربابه يستنبطون ألوانًا من الواجبات في الذكر والخلوة والسلوك، وألحانًا من المعرفة ترقرقت لهم من مراقبتهم لأنفاسهم وتفتيشهم لقلوبهم، وتجلت لهم في مواجيد الأنس والمحبة، كما أنهم فرضوا على أنفسهم زهدًا خاصًّا جعل لهم حساسية مشرقة وذوقًا ملهمًا في طرائق العبودية؛ لأنهم ينشدون الكمال في تلك العبودية، ولأنهم آمنوا بأنها هدف الحياة وغايتها العليا. يقول الحسن البصري: "إن في زماننا رجالًا ينظرون إلى مسائل كأنها شعرة، ولقد أدركنا رجالًا كانوا يعدُّونها من الكبائر" وكان الإمام أحمد ابن حنبل يقول: " إظهار المحبرة من الرياء" وهو معنًى في التواضع لا يعرفه إلا الأصفياء. يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه **"لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس"** رواه الترمذي.

ذلك محور التصوف الصادق وتلك دائرته، وكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة وأحكامها؛ كذلك يحفظ المتصوفة للشريعة آدابها وروحها. وكما أبيح للفقهاء الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يرد فيه نص وترك أمره للاجتهاد والاستنباط؛ فكذلك للعارفين

أن يستنبطوا مما أُلهموا وعرفوا وذاقوا أحكامًا في الأمور التي لم ينص عليها، ولهم أيضًا أن يستنبطوا آدابًا وأذواقًا ونهجًا للمريدين والعابدين.

فللمتصوف علومه واجتهاداته التي ينفرد بها، ولتلك العلوم أثرها ومكانتها ومقامها داخل حدود التشريع الإسلامي الظاهري.

يقول الإمام الشعراني: "فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج والشريعة وصلتهم إلى الله عزَّ وجلَّ في كل لحظة؟!"

ثم يقول: "ولكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الله أن علم التصوف من عين الشريعة: كونه لم يتبحر في علم الشريعة؛ وقول الإمام الجنيد: (علْمُنا هذا مقيَّد بالكتاب والسنة)، دالّ على توهم من ادَّعى خروجه عنهما في ذلك الزمان أو غيره، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عزَّ وجلَّ إلا من تبحر في علوم الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها، وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك. فكل صوفي فقيه ولا عكس. وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلا من جهل حالهم".

صدق الإمام الشعراني! فإنه لا ينكر التصوف إلا من جهله علمًا وذوقًا، ولا ينكر طريق التصوف إلا عويلم ليست له ضلاعة في العلم، ولا مكانة في المعرفة، أما

العلماء حقًّا من رجال الفقه والاجتهاد والفتيا فقد سلَّموا للتصوف علمًا وذوقًا، سلموا له لا بصدقه فحسب، بل سلموا بالتفوق والزعامة. سلموا له بأنه أفقٌ لا تصعد إليه أجنحتهم؛ لأن لأجنحته تفوقًا غلَّابًا سره في تعبدها؛ كما أن سر علومه في إلهامها.

يقول الإمام القشيري في «رسالته» مدللًا على مكانة التصوف والمتصوفة:

"لم يكن عصر في مدة الإسلام وفيه شيخ من هذه الطائفة إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء قد استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس".

فما من عالمٍ من علماءِ الإسلامِ من قرَّاء كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ إلا وللتصوف مِنَّةٌ في عنقهِ، أخبروني عن قارئٍ في الشرقِ أوِ الغربِ يروي سندًا واحدًا من رواياتِ القراءاتِ السَّبعِ أو العشر دونَ أنْ يمُرَّ بسَندٍ فيهِ صوفيٌّ أو أشعريٌّ أو ماتريدي.

أقولُ هذا لِمَنْ يتحدَّثُ باسمِ الكتابِ والسنَّةِ..، إيتوني بسندٍ واحدٍ خلا عنْ طريقِ الصُّوفيةِ الأبرارِ؛ أُسَلِّمْ لكم بأنْ تتحدَّثوا عن الكتابِ والسنَّةِ.

هذهِ الزَّمجرةُ التي نسمعُها على التصوُّفِ والهجومُ الذي لايتوقَّفُ من قِبَلِ أناسٍ ينتمونَ إلى الإسلامِ أو إلى مؤسساتٍ تنتمي إلى الحركةِ الإسلاميةِ أو الإعلامِ

الإسلامي..؛ هذه الهجْمةُ كلُّها لاتهزُّ شعرَةً من شعراتِ هذه اللحيةِ التي أكرمني اللهُ تعالى بها... لا أقولُ هذا استكبارًا، لكن ليقيني أنَّ الباطلَ ليست له سطوةٌ على الحقِّ وإنْ ظهرَتْ غَشاوتُه وعلا صفيره.

ألا فليعلمْ علماءُ السنَّةِ والجماعةِ أنَّهُ إذا زمْجَرَ الباطلُ فسيكونُ سببُه تخاذلَ أهلِ الحقِّ عن نُصرةِ الحقِّ، عندما نتخاذَلُ عن هذه المعركةِ المُفتَعلةِ المُصطنعةِ ونعجزُ عن واجبِ إنقاذِ الأمَّةِ منْ خلالِ مشْربِ التصوفِ؛ فإنَّ الباطلَ يزمْجِرُ، وقديمًا قالوا: استأسد الحمَلُ لَمَّا اسْتنْوَقَ الجَملُ! (مع اعتذاري)

أقولُ للمتخاذلين: كفَى، علِّموا الناس بحالكم قبل قالكم، نحن اليومَ بحاجةٍ إلى منْ يرى الناسُ فيهِ التصوفَ لتعلو رايتُه خفَّاقةً من جديدٍ وهي عاليةٌ.

من لم يُفِدْكَ لحْظُهْ؛ لم ينفَعْكَ لفْظُه..

ويسوق الإمام الشعراني الأدلة على كلمة الإمام القشيري فيقول: "لقد أذعن الإمام الشافعي لشيبان الراعي حين طلب منه الإمام أحمد ابن حنبل أن يسأله عمن ينسى صلاةً لا يدري أيُّ صلاة هي؟ فقال شيبان: هذا رجل غفل عن الله عزَّ وجلَّ، فجزاؤه أن يؤدَّب".

وكان الإمام أحمد ابن حنبل يرسل إلى أبي حمزة البغدادي دقائق المسائل ويقول: أفتني في هذا يا صوفي؟ وكان يقول لابنه ناصحًا وموجهًا: "عليك بملازمة المتصوفة؛ فإنهم بلغوا مقامًا في الإخلاص لم نبلغه".

ويقول الإمام الشيخ محيي الدين شيخ المتصوفة الأكبر في «الفتوحات»: "إن طريق الوصول إلى علم القوم الإيمان والتقوى". ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا**﴾ [الطلاق: ٢].

الدرس الأول

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

مدخل

الصوفية أو التصوف -وَفق الرؤية الإسلامية- ليست مذهبًا، وإنما هي أحد أركان الدين الثلاثة (الإسلام، الإيمان، الإحسان)، فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام، وعلم العقيدة بالإيمان؛ اهتم التصوف بتحقيق مقام الإحسان (وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)، وهو منهج أو طريق يسلكه العبد للوصول إلى الله؛ أي: الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك عن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات، وتربية النفس، وتطهير القلب من الأخلاق السيئة، وتحليته بالأخلاق الحسنة.

وهذا المنهج يستمد أصوله وفروعه من القرآن والسنة النبوية واجتهاد العلماء فيما لم يرد فيه نص، فهو علم -كعلم الفقه- له مذاهبه ومدارسه ومجتهدوه وأئمته الذين شيدوا أركانه وقواعده - كغيره من العلوم - جيلًا بعد جيل، حتى جعله السادة الصوفية علمًا سمَّوه بـ علم التصوف، أو علم التزكية، أو علم الأخلاق، فألفوا فيه

الكتب الكثيرة، بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهر هذه الكتب: «الحِكَم العطائية» للإمام ابن عطاء الله السكندري، و«قواعد التصوف» للشيخ أحمد زروق، و«إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي، و«الرسالة القشيرية» للإمام القشيري، و« من جوامع الكلم» للإمام السيد محمد ماضي أبي العزائم، وغيرها.

النشأة والتطور:

انتشرت حركة التصوف في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري على شكل نزعاتٍ فرديةً تدعو إلى الزهد وشدة العبادة، ثم تطورت تلك النزعات حتى صارت طرقًا مميزة متنوعة معروفة باسم الطرق الصوفية، والتاريخ الإسلامي زاخر بعلماء مسلمين انتسبوا للتصوف؛ مثل: الإمام شمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي والنووي والغزالي والعز بن عبد السلام، وعمالقة الحديث الشريف، كما القادة مثل: صلاح الدين الأيوبي ومحمد الفاتح والأمير عبد القادر الجزائري والمجاهد عمر المختار والمجاهد عز الدين القسام.

حقيقة

نتج عن كثرة دخول غير المتعلمين والجهلة في طرق التصوف وما نتج عن ذلك من محل شكٍّ ممارساتٌ خاطئة عرّضها في بداية القرن الماضي لهجوم المتعلمين في

الغرب بوصفها ممثلة للثقافة الدينية التي تنشر الخرافات، ثم بدأ مع منتصف القرن الماضي الهجوم من قبل المدرسة السلفية بوصفها بدعة دخيلة على الإسلام.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

تعريف التصوف

للتصوف أكثر من أَلفَي تعريف، وكلها تدخل في معنى واحد؛ وهو الحضور مع الله في كل الأحوال..

أولًا: التصوف لغة:

قال بعض العلماء: إنه من الصوفة؛ لأن الصوفي مع الله كالصوفة المطروحة؛ لاستسلامه لله تعالى.

وقال البعض الآخرون: إنه من الصِّفة؛ إذ إن التصوف هو اتصاف بمحاسن الأخلاق والصفات، وترك المذموم منها.

وقال بعضهم: إنه من الصف، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع الله، وتسابقهم في سائر الطاعات..

وقال بعضهم: إنه من الصوف، لأنهم كانوا يؤثرون لبس الصوف الخشن للتقشف والاخشيشان..

وقال بعضهم: إنه من الصفاء، فلفظة "صوفي" على وزن "عوفي"؛ أي: عافاه الله فعوفي، وقال أبو الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا وظنه البعض مشتقًا من الصوف

ولست أمنح هذا الاسم غيرَ فتًى صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي

وقال الشيخ محمد متولي الشعراوي:

إنّ الصوفيّة منْ أصل صافى وصوفِيَ إليه؛ أي: بادله الإخاء والمودّة، وتكونُ بتقرّب العبْد لربّه بالحُب والطّاعة، ويُصافيه الله بقرْبه وكرامته، فنقول:

الصوفي هو الذي صوفِي مِن الله، جلّ جلاله.

ثانيا: التصوف اصطلاحًا:

قال الإمام زكريا الأنصاري: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن؛ لنيل السعادة الأبدية..[1].

قال الشيخ أحمد زروق في كتابه «قواعد التصوف»[1] التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها لله تعالى عما سواه. والفقه لإصلاح العمل وحفظ النظام وظهور

---

(١) «الرسالة القشيرية» (ص٧).

الحكمة بالأحكام. والأصول "علم التوحيد" لتحقيق المقدمات بالبراهين وتحلية الإيمان بالإيقان، وقال أيضًا وقد حُدَّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين، كلها لصدق التوجه إلى الله، وإنما هي وجوه فيه..

قال الإمام الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سني، وترك كل خلق دني.. [٢].

وقال الإمام أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية، ورُّدها لأحكام الربوبية.. [٣].

وقال الإمام ابن عجيبة في كتابه «معراج التشوف الى حقائق التصوف»[٤] التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، ووسطه عمل، وآخره موهبة.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

---

(١) القاعدة الثالثة عشرة (ص٦).

(٢) كتاب «النصرة النبوية» تأليف مصطفى المدني (ص٢٢).

(٣) «نور التحقيق» تأليف حامد صقر (ص٩٣).

(٤) (ص٢).

الدرس الثالث

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

النشأة والتاريخ

يرجع أصل التصوف -من سلوك وتعبد وزهد في الدنيا، وإقبال على العبادات، واجتناب المنهيات، ومجاهدة للنفس وكثرة الذكر لله- إلى عهد النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعهد الصحابة، وهو يستمد أصوله وفروعه من تعاليم الدين الإسلامي المستمدة من القرآن والسنة النبوية.

بداية ظهور اسم الصوفية:

قال الإمام القشيري: «اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يَتَسمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علمٍ سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم: "الصحابة"، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: "الزهَّاد" و"العُبَّاد"، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعَوا أن فيهم زهادًا، فانفرد خواصُّ أهل السنَّة -المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون

قلوبهم عن طوارق الغفلة -باسم "التصوف"، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة»..[1].

ظهور التصوف علمًا:

بعد عهد الصحابة والتابعين، دخل في دين الإسلام أُمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص؛ فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثر من غيره، فنشأ -بعد تدوين النحو في الصدر الأول- علم الفقه، وعلم التوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض "الميراث" وغيرها. وبعد هذه الفترة أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئًا فشيئًا، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضًا على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، من باب سد النقص، واستكمال حاجات الدين في جميع نواحي النشاط.. وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

---

(١) «كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون» تأليف حاجي خليفة (ج١/ ص٤١٤).

١- الإمام الحارث المحاسبي، المتوفى سنة ٢٤٣ هـ، ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، آداب النفوس، رسالة التوهم..

٢- أبو سعيد الخراز، المتوفى سنة ٢٧٧ هـ، ومن كتبه: الطريق إلى الله..

٣- أبو عبد الرحمن السلمي، المتوفى سنة ٣٢٥ هـ، ومن كتبه: آداب الصوفية..

٤- أبو نصر عبد الله بن علي السراج الطوسي، المتوفى سنة ٣٧٨ هـ، وله كتاب: اللمع في التصوف..

٥- أبو بكر الكلاباذي، المتوفى سنة ٣٨٠ هـ، وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف..

٦- أبو طالب المكي، المتوفى سنة ٣٨٦ هـ، وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.. قرأناه كله على الإمام الشيخ عبد الرحمن الشاغوري رحمه الله.

٧- الإمام أبو القاسم القشيري، المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف..

٨- مولانا الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني، المتوفى سنة (٥٦١هـ) وله مؤلفات عديدة في التصوف منها الفتح الرباني وفتوح الغيب وجلاء الخاطر..

٩- محمد بن علوي الحداد رحمه الله، المتوفى سنة (١١٣٢هـ) ومن كتبه الرسالة المعاونة والمظاهرة والمؤازرة وغيرها..

١٠- الإمام أبو حامد الغزالي، المتوفى سنة ٥٠٥ هـ، ومن كتبه: إحياء علوم الدين، الأربعين في أصول الدين، منهاج العابدين إلى جنة رب العالمين، بداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب «إحياء علوم الدين» من أشهر -إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

وشهدت الصوفية بعد جيل الإمام الجنيد قفزة جديدة مع الإمام الغزالي -خاصة في كتابه «إحياء علوم الدين»- محاولة لتأسيس العلوم الشرعية بصياغة تربوية، تلاه اعتماد الكثير من الفقهاء -أبرزهم سيدنا الإمام عبد القادر الجيلاني- للصوفية طريقةً للتربية الإيمانية، ويبدو أن الإمام الجيلاني وتلاميذه الذين انتشروا في بقاع المشرق العربي كافة حافظوا على الجذور الإسلامية للتصوف بالتركيز على تعليم القرآن والحديث مقتدين بأئمة مثل الحارث المحاسبي، والدليل على ذلك أن الذهبي وأستاذه ابن تيمية رغم الهجوم الضاري الذي شنَّه على الصوفية في عصره، لا يرى بأسًا في بعض أفكار التصوف ويمتدح أعلامًا فيه مثل الإمام الجيلاني والإمام أحمد

الرفاعي. وينسب المؤرخون لهذه المدارس الصوفية المنتشرة دورًا كبيرًا في تأسيس الجيش المؤمن الذي ساند صلاح الدين في حربه ضد الصليبيين..

ظهور التصوف طرقًا ومدارس..

يرجع أصل الطرق الصوفية إلى عهد النبي سيدنا محمد بن عبد الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عندما كان يخصّ كلًّا من الصحابة بورد يتفق مع درجته وأحواله:

أما الصحابي سيدنا أبو بكر فقد أخذ عنه الذكر بالاسم المفرد (الله)..

وأما الصحابي سيدنا علي بن أبي طالب؛ فقد أخذ من النبي صلَّى الله عليه وسلَّم الذكر بالنفي والإثبات وهو (لا إله إلا الله)، حيث تذكر المصادر التاريخية أن سيدنا عليًّا جاء إلى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم يومًا فقال له النبي: «**يا علي؛ عليك بمداومة ذكر الله في الخلوات**» فقال سيدنا علي: هذه فضيلة الذكر، وكل الناس يذكرون. فقال الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: «**يا علي لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول: الله**». فقال سيدنا علي: كيف أذكر يا رسول الله؟ قال: «**أغمض عينيك واسمع مني ثلاث مرات، ثم قل أنت ثلاث مرات وأنا أسمع**». فقال سيدنا النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا إله إلا الله»، ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته وسيدنا

علي يسمع، ثم قال سيدنا علي لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمضًا عينيه رافعًا صوته والنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم يسمع»[1].

ثم أخذ عنهما بعض التابعين هذه الأذكار وسميت الطريقتان: بالبكرية والعلوية. ثم نُقِلت الطريقتان حتى التقتا عند الإمام أبي القاسم الجنيد. ثم تفرعتا إلى الخلوتية، والنقشبندية. واستمر الحال كذلك حتى جاء الأقطاب الأربعة السيد الإمام أحمد الرفاعي والسيد الإمام عبد القادر الجيلاني والسيد الإمام أحمد البدوي والسيد الإمام إبراهيم الدسوقي وشيّدوا طرقهم الرئيسية الأربعة وأضافوا إليها أورادهم وأدعيتهم. واليوم هناك طرق عديدة جدًّا في أنحاء العالم ولكنها كلها مستمدة من هذه الطرق الأربعة.

إضافة إلى أوراد سيدنا الإمام أبي الحسن الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية الذي تُعدُّ أوراده جزءًا من أوراد أي طريقةٍ اليوم.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

---

(١) «تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار» عبد الرحمن الجبرتي (١/ ٣٤٦).

الدرس الرابع

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الطرق الصوفية

الطريقة لغة: هي "السيرة"، وطريقة الرجل: مذهبه، يقال: هو على طريقة حسنة وطريقة سيئة..

واصطلاحًا: اسم لمنهج أحد العارفين في التزكية والتربية والأذكار والأوراد أخذ بها نفسه حتى وصل إلى معرفة الله، فينسب هذا المنهج إليه ويعرف باسمه، فيقال الطريقة الشاذلية والقادرية والرفاعية نسبة لرجالاتها. وقد أخذ اسم الطريقة من القرآن: ﴿**وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا**﴾ [الجن: ١٦].

تختلف الطرق التي يتبعها مشايخ الطرق في تربية طلابهم ومريديهم باختلاف مشاربهم وأذواقهم الروحية، وباختلاف البيئة الاجتماعية التي ينشؤون فيها. فقد يسلك بعض المشايخ طريق الشدة في تربية المريدين فيأخذونهم بالمجاهدات العنيفة ومنها كثرة الصيام والسهر وكثرة الخلوة والاعتزال عن الناس وكثرة الذكر والفكر كالطريقة البدوية. وقد يسلك بعض المشايخ طريقة اللين في تربية المريدين فيأمرونهم

بممارسة شيء من الصيام وقيام مقدار من الليل وكثرة الذكر، ولكن لا يلزمونهم بالخلوة والابتعاد عن الناس إلا قليلًا كالطريقة القادرية. ومن المشايخ من يتخذ طريقة وسطى بين الشدة واللين في تربية المريدين كالشاذلية.

وكل هذه الأساليب لا تخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، بل هي من باب الاجتهاد. ولذلك قال بعض العارفين: لله طرائق بعدد أنفاس الخلائق.

وللطرق الصوفية شارات وبيارق وألوان يتميزون بها:

فيتميز الرفاعية باللون الأسود.

ويتميز القادرية باللون الأخضر.

ويتميز الأحمدية باللون الأحمر.

أما البرهانية فإنها لا تتميز بلون واحد كسائر الطرق بل **بثلاثة ألوان**:

الأبيض الذي تميز به إبراهيم الدسوقي.

والأصفر الذي تميز به سيدنا أبو الحسن الشاذلي ومنحه لابن أخته سيدنا إبراهيم الدسوقي.

والأخضر وهو كناية عن شرف الانتساب لأهل بيت رسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن أهم الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الإسلامي:

القادرية: وهي طريقة الإمام سيدنا عبد القادر الجيلاني..

الرفاعية: وهي للإمام أحمد الرفاعي..

الشاذلية: وهي للإمام أبي الحسن الشاذلي..

البدوية: وهي للإمام أحمد البدوي. رضي الله عنهم جميعًا.

من أقوال أكابر الصوفية في أصول الطريقة:

قال الإمام الجنيد: «الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام». وقال أيضًا: «من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث؛ لا يُقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة».

قال الإمام سهل التستري: «أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق»[1] قال سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي: «إِذا عارض كشفُك الصحيح

---

(١) «طبقات الصوفية».

الكتابَ والسنة فاعمل بالكتاب والسنة ودع الكشف، وقل لنفسك: إِن الله ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة، ولم يضمنها لي في جانب الكشف والإِلهام»[1].

قال الإمام أبو الحسين الوراق: «لا يصل العبد إِلى الله إِلا بالله، وبموافقة حبيبه في شرائعه، ومَنْ جعل الطريق إِلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنه مهتد»[2]

قال الإمام عبد الوهَّاب الشعراني في كتابه «لطائف المنن والأخلاق»: «إن طريق القوم - أي الصوفية - محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إِلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون»..

قال الإمام أبو يزيد البسطامي حين سئل عن الصوفي:

«هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله بشماله، وينظر بإِحدى عينيه إِلى الجنة، وبالأخرى إِلى النار، ويأتزر بالدنيا، ويرتدي بالآخرة، ويلبي مِن بينهما للمولى: لبيك اللهم لبيك».

---

(١) «إيقاظ الهمم».

(٢) «طبقات الصوفية».

قال سيدي الإمام عبد القادر الجيلاني:

الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله عزَّ وجلَّ وسنّة رسوله، فكلما ازداد صفاؤه خرج من بحر وجوده، وترك إرادته واختياره ومشيئته من صفاء قلبه[1].

إذن هذه أساسيات الطرق الصوفية ومن يدعي التصوف ويخالف الكتاب والسنة فهو مردود عليه ادعاؤه ولا يصح نسبته إلى أهل التصوف..

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

---

(١) «الفتح الرباني».

الدرس الخامس

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

ألقاب السادة الأكابر أقطاب التصوف

١- *أستاذ الطائفة*: سيدي أبو القاسم الجنيد.

٢- *الشيخ الأكبر*: سيدي مُحيِي الدين بن عربي.

٣- *قمر الصوفية*: سيدي أبو سعيد الخراز.

٤- *فقيه الصوفية*: سيدي ابن عطاء الله السكندري.

٥- *بحر العلوم*: سيدي جلال الدين السيوطي.

٦- *حجة الإسلام والتصوف*: سيدي أبو حامد الغزالي.

٧- *شهيد العشق الإلهي*: سيدي الحسين بن منصور الحلاج.

٨- *شهيدة العشق الإلهي*: سيدتنا رابعة العدوية.

٩- *شهيد الهجر والوصال*: سيدي نجم الدين كبرى.

١٠- *شهيد الذاكرين*: سيدي عقيل.

١١- *حضرة مولانا*: سيدي جلال الدين الرومي.

١٢- *شيخ الزهاد والعباد*: سيدي معروف الكرخي.

١٣- *شيخ الشيوخ*: سيدي أبو حمزة الصوفي البغدادي.

١٤- *إمام البغداديين*: سيدي السري السقطي.

١٥- *قاضي الشريعة*: الإمام الشافعي.

١٦- *أستاذ المشارق والمغارب*: سيدي عبد السلام بن مشيش.

١٧- *كهف أمن الطلاب*: سيدي أبو الحسن الشاذلي.

١٨- *الباز الأشهب*: سيدي عبد القادر الجيلاني.

١٩- *أبو العلمين*: سيدي أحمد الرفاعي.

٢٠- *أبو العينين*: سيدي إبراهيم الدسوقي.

٢١- *شيخ العرب*: سيدي أحمد البدوي.

٢٢- *سكردان الأولياء*: سيدي أبو العباس المرسي.

٢٣- *سلطان الزاهدين*: سيدي إبراهيم بن أدهم.

٢٤- *سلطان العاشقين*: سيدي عمر بن الفارض.

٢٥- *سلطان المشارق والغارب*: سيدي عبد الله بن أبى جمرة.

٢٦- *سلطان أهل التحقيق*: سيدي عبد الكريم الجيلي.

٢٧- *سلطان العارفين*: سيدي أبو يزيد البسطامي.

٢٨- *القطب المكتوم*: سيدي أحمد التجاني.

٢٩- *القطب النفيس*: سيدي أحمد بن إدريس.

٣٠- *القطب الرباني*: سيدي عبد الوهاب الشعراني.

٣١- *مفخرة الأولياء*: سيدي علي الخواص.

٣٢- *فخر الدين*: سيدي محمد عثمان عبده البرهاني.

٣٣- *أبو البركات*: سيدي أحمد الدردير.

٣٤- *محتسب الصوفية*: سيدي أحمد زروق.

٣٥- *صاحب التلقين*: سيدي أحمد العلاوي.

٣٦- *صاحب البردة*: سيدي شهاب الدين البوصيري.

٣٧- *صاحب دلائل الخيرات*: سيدي الجزولي.

٣٨- *صاحب الإبريز*: سيدي عبد العزيز الدباغ.

٣٩- *إمام دائرة المقربين*: سيدي أبو مدين الغوث.

٤٠- *ختم أهل العرفان*: سيدي محمد عثمان الميرغني.

٤١- *طبيب المبالي*: سيدي النجار أبو علي.

٤٢ - *صاحب درس الجمعة*: سيدي صالح الجعفري.

٤٣ - *الإمام الرائد*: سيدي محمد زكي إبراهيم.

٤٤ - *شيخ الإسلام*: سيدي عبد الحليم محمود.

٤٥ - *فيض الرحماني*:سيدي حسن حسان العرياني.

٤٦ - *دلال الخيراتي*:سيدي نعسان الفرواتي.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السادس

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الطريقة الشاذلية

سيد هذه الطريقة سيدنا أبو الحسن علي الشاذلي

تختلف طريقته عن الطرق الأخرى باشتهارها بالذكر بالاسم المفرد (الله) أو مضمرًا (هو).

من أفكارها:

التوبة: وهي نقطة انطلاق المريد أو السالك إلى الله تعالى.

الإخلاص: وينقسم قسمين: إخلاص الصادقين، وإخلاص الصِّدِّيقين.

النية: وتعد أساس الأعمال والأخلاق والعبادات.

الخلوة: أي اعتزال الناس، وهي من أسس التربية الصوفية في الطريقة، يدخل المريد الخلوة لمدة أيام بعد سلوك الطريق (انظر مصطلح الخلوة في كتابنا هذا).

الذكر: والأصل فيه ذكر الله، ثم الأوراد، وقراءة الأحزاب المختلفة في الليل والنهار (حزب البحر - حزب البر - حزب النصر...) والذكر المشهور عندهم هو الاسم المفرد (الله) أو المضمر (هو، هو)

الزهد: فراغ القلب عمَّا سوى الله تعالى، وهذا زهد العارفين، وهو أيضًا الزهد في الحلال وترك الحرام.

النفس: ركزت الشاذلية على أحوال النفس سعيًا منهم لتزكيتها، وهي سبعة أنواع: النفس الأمارة بالسوء – اللوامة – الملهمة – المطمئنة – الراضية – الكاملة ولها شواهد من كتاب الله تعالى.

الورع: وهو العمل لله وبالله على البينة الواضحة والبصيرة الكامنة.

التوكل: وهو صرف القلب عن كل شيء إلا الله تعالى.

الرضا: وهو رضا الله عن العبد.

المحبة: وهو سفر القلب في طلب المحبوب ولهج اللسان بذكره على الدوام، وللحب درجات لدى الشاذلية، وأعلى درجاته ما وصفته السيدة رابعة العدوية رحمها الله تعالى:

أحبك حُبَّيْنِ حب الهوى وحبًّا لأنك أهل لذاكا

السماع: وهو سماع الأناشيد والأشعار الصوفية وهي قسمان إلهيات ونبويات يشيدان إلى معالي الأمور. وقد نقل عن أحد أعلامهم قوله: (الصوفي هو الذي سمع السماع وآثره على الأسباب) ونقل عن الإمام الشعراني رحمه الله عن الحارث

المحاسبي قوله: (ما يتمتع به الفقراء سماع الصوت الحسن)، وقد أفرد كتَّاب التصوف للسماع أبوابًا منفصلة في مؤلفاتهم لما له من أهمية خاصة عندهم، وقد جمعتُ لذلك كتابًا سميته أناشيد الحضرة الشاذلية.

* * *

أبرز شخصيات هذه الطريقة قديمًا:

الإمام سيدنا أبو الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار الشاذلي المغربي الزاهد (٥٧١-٦٥٦ هجري) وشيخه سيدنا الشيخ عبد السلام بن مشيش وكان له أكبر الأثر في حياته، ليس له مؤلفات، بل قال: **كتبي أصحابي**.

ومفتاح طريقته الحب في الله تعالى مقابل طريق المجاهدة المعروف قبله، أخذًا من حديث الأعرابي: متى الساعة؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم: «**وماذا أعددت لها؟**» قال: ما أعددت لها من كثير صوم وصلاة غير أني أحب الله ورسوله قال: «**المرء مع من أحب**».

فالسائر إلى الله إذا أدى الواجبات واجتنب المنهيات وأحب الله ورسوله كان وصوله إلى الله أسرع ممن جاهد نفسه بالمجاهدات والرياضات والعبادات مع افتقاد الحب الذي هو جناح الطيران إلى حضرة الرحمن. وكل منهما يرجى له الوصول.

تزوج وأنجب أربعًا، وانتقل إلى تونس وتفقه وتصوف فيها، وسكن مدينة شاذلة ونسب إليها، ثم سكن الإسكندرية وتوفي بصحراء عيذاب متوجهًا إلى بيت الله الحرام أوائل ذي القعدة ٦٥٦ هجري بجميثرة

له كرامات يعجز العقل عن إدراكها...

من كرامات سيدي الإمام أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

كان سيدنا أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه يحج عامًا ويقعد في الإسكندرية عامًا، ولما حانت إحدى سنوات الحج انشغلت مصر وجيشها بصد هجمات المعتدين مما جعل السلطان يعتذر لأهل مصر هذا العام عن عدم استطاعته إرسال فرقٍ من جيش مصر تحمي الحجيج ذهابًا وعودة، وقد أفتاهم سيدي العز بن عبد السلام بذلك قبل أن يلحق بطريق سيدي أبي الحسن الشاذلي.

وكانت فتواه أنه لا يجوز السفر عند عدم الأمن والجيش

فأبلغ الناس سيدى أبا الحسن الشاذلي بذلك، فاجتمع الناس يوم الجمعة بالمسجد عليهما وقد سأل سيدي أبو الحسن الشاذلي سيدي العز بن عبد السلام سؤالًا فقال له: أرأيت لو أن رجلًا جعلت له الدنيا خطوة واحدة هل يباح له السفر في المخاوف أم لا؟

فقال سيدي العز بن عبد السلام: من كان على هذه الحال فهو خارج عن هذه الفتوى وغيرها

فقال له سيدي أبو الحسن الشاذلي: أنا والله الذي لا إله إلا هو ممن جعلت لي الدنيا كلها خطوة واحدة، سهلها وجبلها، وبرها وبحرها، وإذا رأيت ما يخيف الناس أتخطى بهم حيث الأمن، ولا بد لي ولك من المقام بين يدي الله عزَّ وجلَّ حتى يسألني عن حقيقة ما قلت لك.

(وكانت هذه إشارة لكون سيدي أبي الحسن سيجعله من أبناء طريقته ويرقيه مراقيَ كبار العارفين).

ثم سافر سيدنا أبو الحسن الشاذلي بالمحمل المصري والحجيج المصري بلا أي جيش يحميهم وبلا أي حراسة أو أي سلاح، فكان هو رضي الله عنه المتعهد بحمايتهم كما تقدم من قوله رضي الله عنه.

وفي السفر حصلت الكرامات التي لم يصدقها الفقهاء في مصر إلا لما رأوها بأعينهم ودونتها الكتب:

فكان سيدي أبو الحسن يمشي بين الحجيج كالبدر في السماء والشمس في ضحاها... وهو كفيف البصر.

فكمن اللصوص من الأعراب وقطَّاع الطرق والهاربين من الأحكام لقافلة المحمل والحج المصري..

فكانوا كلما انطلقوا بخيلهم وأسلحتهم نحو القافلة يجدون سورًا عاليًا منصوبًا على القافلة فلا يستطيعون النفاذ منه إلى أي فرد من الحجيج

فعلموا أن الأمر هو كرامة من الله عزَّ وجلَّ لأحد أوليائه في المحمل، فسألوا إذا ما كان بين الحجيج رجلٌ صالحٌ فعرفوا أنه هو سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

فنادوا من خلف الأسوار مذعنين بالتوبة يبكون، ورقت قلوبهم لله وحنت وتابوا على يد سيدي أبي الحسن الشاذلي

ثم ذهب سيدى أبو الحسن بالحجيج واللصوص للحج وزيارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورجع بهم إلى مصر أولياء..

فلما دخل القاهرة استقبله الفقهاء ووزير مصر وقائد جيشها فرأوا المجرمين الذين كانوا يطلبونهم صاروا نساكًا وعبادًا لله تعالى فسألوا سيدي أبا الحسن الشاذلي فقال لهم:

إسألوهم عما رأوه؟؟؟.

فأخبروا الفقهاء بالكرامة التي حدثت وهي منعةُ الله للحجيج ببركة سيدي أبي الحسن

ثم قال سيدي أبو الحسن الشاذلي لسيدي العز بن عبد السلام:

– يا فقيه والله لولا تأدبي مع جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخذتُ المركب من ههنا وتخطيت به إلى عرفات يعني بخطوة واحدة. فقال له سيدي العز باكيًا:

– آمنت بالله.

ثم قال له سيدي أبو الحسن الشاذلي:

– انظر من مكانك أنت والواقفون أجمعين.

فإذا بهم يرون البيت الحرام والكعبة، فصاح الناس والفقهاء بالصلاة على سيدنا محمد من هول كرامة الموقف وعظمة سيدي أبي الحسن الشاذلي.

فوضع سيدي العز بن عبد السلام رأسه بين يدي سيدي أبي الحسن الشاذلي باكيًا وقال له:

- أنت شيخي يا مولانا.

فقال له سيدي أبو الحسن:

- بل أنت أخي إن شاء الله.

قال ناظم العقيدة:

وأثبتن للأوليا الكرامةْ ومن نفاها فانبذن كلامه

سيدنا الإمام أبو العباس المرسي:

أحمد بن عمر المرسي يتصل نسبه إلى سيدنا سعد بن عبادة الصحابي، ولد سنة ٦١٦ هجرية وأهله من مرسية في الأندلس، وكان من أهل الإسكندرية، يعد الخليفة الأول للإمام الشاذلي، وانتقل معه إلى مصر سنة ١٢٤٤م، وصار قطب زمانه بعده. نشر العلم في الإسكندرية ثلاثًا وأربعين سنة، وهذب النفوس، حتى صار ممن يضرب المثل بورعه وتقواه، تولى خلافة المشيخة سنة ٦٥٦هجرية وكان عمره أربعين

سنة، أبرز تلامذته سيدنا ابن عطاء الله الإسكندري. توفي في الإسكندرية سنة ٦٨٦ ودفن في مقبرة باب البحر.

وله مقام كبير ومسجد باسمه في الإسكندرية، قال عن نفسه **(والله لو حُجِبَ عني رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين)** قال عنه شيخه سيدنا أبو الحسن: **(يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت)** ومن أشهر أتباعه في تونس السيدة المنوبية.

سيدنا ابن عطاء الله أحمد بن محمد السكندري:

وهو أحد أركان الطريقة الشاذلية.

ولد في الإسكندرية سنة ٦٥٨ هجرية وتوفي في القاهرة سنة ٧٠٩ هجرية، وأقيم على قبره قبة عام ١٩٧٣م.

من ألقابه: قطب العارفين وترجمان الواصلين ومرشد السالكين.

له ذوق ومعرفة بكلام الصوفية وآثار السلف، قال له شيخه أبو العباس المرسي: (الزم، فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا في المذهبين) أي الشريعة والحقيقة.

تأثر به سيدنا تقي الدين السبكي كثيرًا وسيدي أحمد زروق، وترك الكثير من المؤلفات غير «الحكم» العظيمة على لسان أهل الطريقة، وهي أهم كتبه.

ومنها: «تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس».

«التنوير في إسقاط التدبير».

«لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

«عنوان التوفيق في آداب الطريق» مدحه المؤرخون كالذهبي وابن حجر العسقلاني.

سيدنا ياقوت العرش:

أجلُّ أصحاب الشيخ أبي العباس المرسي، وأخذ عنه ابن عطاء الله السكندري، وصفه الشعراني بأنه إمام في المعارف، بشَّر به سيدنا أبو العباس، ولما وُلِدَ وَضَعَ طعامًا لإخوانه وأخبرهم بأنها وليمة ولدنا ياقوت، ولد ببلاد الحبشة وسيأتيكم.

وكان حبشيًّا وسمي بالعرش لأن قلبه لم يزل تحت العرش على ما نقلوه، وما على الأرض إلا جسده، وقيل: لأنه كان يسمع أذان حملة العرش كما جاء في «طبقات الشعراني» رحمه الله تعالى.

له الكثير من الكرامات العجيبة وكان جم التواضع، زوّجه الشيخ أبو العباس من ابنته فكان يعظمها أشد التعظيم، وكان يقول: أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله (أي بالتوحيد) ومن أقواله: على الفقير أن يعظم الناس بحسب دينهم لا بحسب ثيابهم.

ومناقبه لا تحصى، توفي في الإسكندرية سنة ٧٠٧ هجرية، ودفن بجوار مسجده الكبير في ٧٣٢ هجرية عن ثمانين عامًا، ثم وُسِّع مسجده وجُدِّد حديثًا.

* * *

الطريقة الشاذلية الدرقاوية الهاشمية في الشام

قدم من تلمسان الجزائر سيد الطريقة في بلاد الشام سيدنا الإمام محمد بن يلس التلمساني (1854-1928) وولده سيدنا الشيخ أحمد (ت ١٣٥٩) هاجر إلى دمشق سنة1902. فنشر الطريقة الشاذلية رحمه الله تعالى.

ثم تبعه تلميذه سيدنا محمد بن أحمد بن الهاشمي (ت 1381هجري- ١٩٦١م) وكان خليفته من بعده مع ولده سيدي أحمد التلمساني، وبويع بالذكر الخاص من سيدي أحمد بن مصطفى العلوي، فنشر التصوف وعلم التوحيد في البلاد الشامية.

ومن تلامذته في البلاد الشامية المجازين بالورد العام والخاص:

سيدنا الشيخ محمد هاشم الخطيب (ت١٩٥٨م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ سعيد الكردي (ت ١٩٧٢م) بعد أن عُمِّر ٨٢ عامًا.

ومن شيوخها سيدنا الشيخ محمد سعيد البرهاني (ت ١٩٦٦ م)

ومن شيوخها الشيخ محمد النبهان في حلب

نقيب الأشراف سيدنا الشيخ محمد سعيد الحمزاوي (ت ١٩٧٨م)

سيدنا الشيخ شاكر الخالدي

ومن شيوخها سيدنا عبد القادر عيسى في حلب.

ومن شيوخها الولي الزاهد الحافظ الجامع سيد وقته مولانا الشيخ شكري اللُّحفي (ت ٢٠١٥م) عن عمر ٩٦ عامًا ودفن بجوار سيدنا نور الدين زنكي خليفة المسلمين.

ومن شيوخها سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري (ت2004م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ أحمد خورشيد (ت ٢٠١٠ م)

ومن شيوخها سيدنا الشيخ مصطفى التركماني (ت ٢٠٠٦م) وستأتي ترجمته.

ومن شيوخها سيدنا الشيخ صالح الحموي (ت٢٠٠٩م).

وسيدنا الشيخ محمد صالح بن أحمد الخطيب (ت ١٩٨٠).

الطريقة اليشريطية

شيخ هذه الطريقة علي نور الدين اليشريطي الشاذلي، لم يكن ليخرج عن مدار الشريعة في معظم أحواله وأقواله، لكن أتباعه حرفوا أقواله، وشوَّهوا التصوف الذي عنده، وأنكر عليهم بعض رجالات الطريقة الشاذلية في الجزائر ولبنان وسورية.. وأمَّا الشاذلية في الأصل فإنَّهم لم يمسُّوا الأصول العقديَّة، بل نبهوا أن الشرع هو من يحكم أقوالهم، لا أن أقوالهم تحكم الشرع. أما اليشرطية فقد أخذوا عقائدهم عن الشيخ، لا عن الشرع، وكلما جاءهم شيخ شاذلي ولكنه ليس يشرطيًا ونبههم على أخطائهم جعلوا أصابعهم في آذانهم. وقد أتوا بطامات... الشاذلية منها بريئة، وربما أتوا بمخالفات صريحة في الأخلاق، وهذا كله حدث بعد شيخهم علي نور الدين اليشرطي، وذلك على عهد رجل يسمى أحمد الهادي.

وقد ألف رجل رسالة دكتوراه في الفلسفة سماها المدرسة الشاذلية اليشرطية وشيخها علي نور الدين، وكتب الدكتور صالح المرقب مقالة مرعية عنوانها (هذه حقيقة الشاذلية اليشرطية) ونقد زعيمها الحالي أحمد الهادي اليشرطي الذي يعيش حاليًّا في الأردن.

ورد الطريقة الشاذلية

الورد العام

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

آية: ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [المزمل: ٢٠]

أستغفر الله ١٠٠

أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو وأتوب إليه ٣ مرات

آية ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم١٠٠ مرة.

اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا من الأزل إلى الأبد على ما تعلق به علم الله عزَّ وجلَّ ٣ مرات.

﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**﴾ [محمد: ١٩]

لا إله إلا الله 100مرة.

لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله في كل لمحة ونفس بعدد كل معلوم لك..

قراءة سورة الإخلاص ٣

الدعاء للمؤمنين والمؤمنات.

يكرر هذا الورد صباحًا ومساءً

ومن الدعاء أن يقول:

اللهم اغفر لشيوخ الطريقة الشاذلية ومريديهم واقض حوائجهم ورُدَّهم إليك ردًّا جميلًا

اللهم ارحم شيوخنا ووالدينا ورضِّهم عنا وارضَ عنا وعنهم

اللهم ارحم أمة سيدنا محمد

اللهم اغفر لأمة سيدنا محمد

اللهم استر أمة سيدنا محمد

اللهم اشف أمة سيدنا محمد.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الطريقة الدندراوية

سيد الطريقة السلطان محمَّد الدندراوي المصري

دخل عليَّ في جامع الدرويشية بهيبته وطول قامته، يشع النور من خلال بشرته السمراء، وابتدرني بابتسامته العذبة، وألقى علي السلام مع صحبه وقالوا: هذا سيدنا الأمير الفضل.

رددت السلام وقلت مداعبًا: بل أمير المؤمنين.

جلس إلي ودارت كؤوس الأحاديث قبل صلاة الجمعة، ثم دعاني إلى حضور المولد الشريف الذي يقيمه كل عام في قرية بجوار دمشق.

المسافة قصيرة، لكن ما أبعد المسافة التي تفصلني عن حقيقتهم، وعن تاريخهم، وعن نظام الحكم في دولتهم، وعن أميرهم الذي أخذ البيعة منهم، فصار حاكمًا لـ"أكثر من ١٨ مليونًا" من البشر ينتشرون في أربعة أنحاء المعمورة!!

خرج الأمير الفضل من المسجد وهو يقول: حضرت خطبًا كثيرة، لكنني ما رأيت أسدًا على المنابر مثل سيدي الخطيب عبد العزيز.. وكان كلما قدمني في الاحتفالات يقدمني بهذه الصفة: أسد المنابر.

سأحدثكم:

عن دولة العمامات البيضاء، عن "الأسرة الدندراوية" أتحدث.. وما أعجبه من حديث!!

مُذ كنت صغيرًا أقرأ عن التصوف بحسب أسرتي التي تنتهج التصوف بحكم منهج الأجداد الذي توارثناه لعقود، كنت وأنا صغير حينما أذهب للجمعة ومجالس سيدي الوالد عليه رحمات الله أرى الرجال يرتدون الملابس الفضفاضة، جلبابهم أبيض، وعمامتهم كذلك،

لكنني عندما رأيت أتباع الأمير الفضل استشعرت عظمة الإسلام بتلك العمائم التي تتميز مِن بقية العمائم أن بها "عذبة" تتدلى على الكتف، ما إن تراها حتى تعرف أنهم من "الأسرة الدندراوية".

ورغم أنَّ مقر الأسرة في صعيد مصر وأن التصوف منهج غالب في جنوب الصعيد ترى تشعُّب الطرق الصوفية يضفي تنوعًا في صورة أتباعها، فمن "الشاذلية" أتباع الإمام أبي الحسن الشاذلي، إلى "الرفاعية" أتباع الإمام السيد أحمد الرفاعي، وإلى "الدسوقية" أتباع الإمام السيد إبراهيم الدسوقي، وإلى "الأحمدية" أتباع الإمام السيد أحمد البدوي، وغيرها من الجماعات الصوفية، تراهم يختلفون في مظهرهم باختلاف مشربهم الصوفي.

وهذا ما جعلني أنظر لـ"الدندراوية" على أنهم ليسوا أكثر من مجرد "طريقة صوفية" مثل بقية "الطرق الصوفية" حتى فاجأني الأمير قبل أيام وحكى لي كلامًا جديدًا عن "الأسرة الدندراوية" ومنهجهم الفكري الذي أرى أنه تجسيد للإسلام الحضاري، الذي كان يجب أن يلقى الرعاية من الدول العربية والإسلامية بديلًا متطورًا عن كل "الجماعات الإسلامية" التي ترى أنها أساءت للدين الإسلامي،

وهنا طلبتُ من سمو الأمير الفضل أن يضع كتابًا يعرّف فيه هذه الطريقة، ويذكر تاريخها؛ لتكون منارة للأجيال بعده.

وبعد سنوات من اللقيا المتكررة قدَّم لي كتابًا سماه **"الوثيقة البيضاء"**، وحين طالعته قلت: كيف لا يتم تدريس "الوثيقة البيضاء" "دستور الأسرة الدندراوية"؟ وسيأتي الكلام عليها.

ثم بدأت رحلتي في البحث عن هذه الجماعة؛ لأكتشف وأنا الأقرب منها جغرافيًّا -حوالي ١٠ كيلومترات أو ٢٠ بين دمشق وقرية فرع دندرة، عاصمة الخلافة في "إمارة الدندراوية" بدمشق التي أصبحت "دندراوية" بوجود الأمير الفضل فيها.

لكن السنوات لم تطل فقبل حوادث ٢٠١١ توفي الأمير الفضل، وتم مبايعة الأمير هاشم بن الأمير الفضل، الذي يقال: إنه أسر القلوب في الصعيد، حتى بايعه الأقباط الذين انضموا لإمارته، وهم على دين غير الدين.

سألت عن الأمير هاشم، وبحثت في شبكة الإنترنت، وعرفت أنه الأمير الرابع في "إمارة الدندراوية"، التي نشأت منذ ١٣٥ سنة على يد محمد الدندراوي، الملقب بالسلطان، ويعدُّ الجد المعنوي للدندراويين، مهما اختلفت أنسابهم أو أعراقهم أو

جنسياتهم، وجاء في إحدى الرسائل التعريفية بالفكر الدندراوي، بقلم أميرها الأمير الفضل بن العباس: أن جدهم محمدًا هو من أحفاد السلطان اليوسف، من ذرية الشريف إدريس الأول، مؤسس دولة الأدارسة في المغرب العربي، وحفيد الإمام سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنه، وهي معلومة تخالف ما يشاع من أنهم أحفاد أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

بعد انتقال سيدنا الأمير الفضل إلى رحاب ربه في شهر يناير ٢٠١١م شهدت قرية "دندرة" عاصمة إمارتهم حفل تنصيب الأمير هاشم حاكمًا جديدًا للإمارة في ٢٧ يونيو من العام ٢٠١١م، بحضور ممثلين عن ساحات الدندراوية في العالم، وشهدت القرية البعيدة حضورًا ملفتًا للانتباه من جنسيات مختلفة من أعضاء "الأسرة الدندراوية" التي أصبح ينتسب إليها مختلف أطياف المجتمع، بفئاته المختلفة؛ من أساتذة وعمداء كليات، إلى رجال أعمال، ورجال برلمان.

ثم البسطاء الذين انضموا للأسرة وأصبحوا يشكلون تجمعًا ملفتًا انتشر في مختلف محافظات الجمهورية، وعدد من بلدان أوروبة وآسية، وبعض الدول

الإفريقية، لكن يبقى مقرهم على شارع صلاح سالم في القاهرة "كعبة القصاد" ممن أثارهم الفضول للانضمام إلى "الأسرة الدندراوية"، وهناك يتم استقبالهم، وتوفر لهم "الأسرة" إقامة شاملة، ودورات تدريبية، تعرِّف منهجها التنظيمي والفكري؛ ليعودوا بعدها إلي بلدانهم سفراء دعوة للأسرة الدندراوية في بلدان العالم.

وما زالت الأسرة الدندراوية في دمشق مخلصة لطريقتها، تقيم الدروس في زاويتها على أرض منطقة الميدان برئاسة شيخها نائب الأمير الشيخ عبد الرزاق الملقي، ومن شيوخها الشيخ عصام بن الشيخ يوسف عرار، ومن وجهائها وساداتها البارزين الشيخ ياسر سرحان وأحضر أحيانًا معهم في كل عام مرةً أو مرتين في المولد النبوي والإسراء والمعراج.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثامن

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

منهاج الطريقة الدندراوية

(جمع إنسان محمد – الأسرة الدندراوية)

هذا هو اسم الجماعة التي انتشرت في مصر وكثير من بلدان العالم بفضل أميرها والمؤسس الفعلي لها الإمام الفضل بن العباس الذي لا يكاد يستقر في دندرة –موطن دعوته– حتى يرجع ليطوف بجميع دول العالم داعيًا إلى فكرته ودعوة جده، حتى نجح في إقناع الملايين داخل مصر وخارجها بصدق دعوته، وجمع حولها ملايين من المؤيدين والمنتسبين... وتقدم أنني عندما بحثت عن معلومات عن هذه الجماعة لم أجد عنها كتابًا مطبوعًا، ولا بحثًا منشورًا، ولا مقالًا مكتوبًا، فقلت لسيدي الأمير الفضل: لماذا لا تنشرون فكركم على الملأ لئلا يتسنى لأحد أن يفتري عليكم فينسب إليكم ما يسيء إلى الطريقة؟

فوعد خيرًا. وقدم كتابه العظيم: "الوثيقة البيضاء"، الذي طبع بعد ذلك في جزأين.

عرفت بعدها أن الدندراويين لا يرغبون في وضع أنفسهم وجماعتهم تحت عدسة الإعلام، ولا مرصد الباحثين، وهذا لم أجد له تفسيرًا مؤكدًا، لكنني لم أعدم مصادر داخل الجماعة أمدتني ببعض الرسائل المطبوعة والمكتوبة بخط اليد، منسوبة إلى أميرها الفضل بن العباس آل الدندراوي قبل تقديمه "الوثيقة البيضاء".

كما كشفت لي عن كثير من الأمور التي لا يسمح لأحد غير دندراوي أن يعرفها.

النشأة والتعريف:

نشأت الدندراوية على يد محمد الدندراوي، الملقب بالسلطان، ويعدّه الدندراويون جدهم المعنوي، وكان يقيم في دندرة -إحدى قرى محافظة قنا بصعيد مصر-

ومع أننا لم نجد إجابة تفسر سبب إطلاق لقب "السلطان" على محمد الدندراوي، ولا لقب "سمو الأمير" على الفضل بن العباس، إلا أنه يبدو أن هناك ارتباطًا بين إطلاق هذه الألقاب على زعماء الدندراوية ونسبتهم إلى أمراء دولة الأدارسة وسلاطينها.

وفي إحدى الرسائل التي كتبها الفضل بن العباس وصف فيها جماعته بأن دعوتها دعوة شاملة، وقال عنها: إنها ليست بدعوة مذهبية حديثة.. وليست بطريقة صوفية

جديدة.. وليست بجماعة سياسية قومية.. وليست بجمعية خيرية إقليمية.. ويوضح الفضل في فصل لاحق أنه لم يرد أن يكون كيان أسرته كيانًا متخصصًا يضاف إلى الكيانات السابقة، بل أراد أن يكون كيانًا يضم كل هذه الكيانات ويحتوي على كل مميزاتها وخصائصها، فيذكر أن "جمع إنسان محمد – الأسرة الدندراوي" ليست كيانًا من الكيانات الطائفية أو الطبقية، ولا القومية أو الإقليمية، وإنما هي كيان اجتماعي يجمع الأفراد المتفرقة والتجمعات المتوزعة في وعاء الأسرة الواحدة، فجمع إنسان محمد صيحة نداء لجميع المسلمين -أيًّا كان مذهبهم السلفي أو طريقتهم الصوفية أو تنظيمهم السياسي أو جمعيتهم الخيرية- بأن يتجاوزوا حواجز الفرقة، وأن يتألفوا تحت ظل الزعامة المحمدية الجامعة.

سررتُ كثيرًا حينما اجتمعت قبل اللقاء الأخير بسمو الأمير الفضل فقدم لي كتابًا عن الطريقة الدندراوية؛ لأنه استجاب لمطلبي، وكان ذلك قبل وفاته بسنتين تقريبًا.

نظرت في الكتاب فإذا به أنَّ لهم إمارة، إمارة لها أتباع ينتشرون في إنجلترة، وأفغانستان، وباكستان، وماليزية، واليمن، ولبنان، وسورية، والمغرب، وتونس، والسودان، وغيرها من البلدان، عدد صفحاته 1043، وهو في **أربعة فصول**:

الأول: تمهيد وتعريف منهج "الأسرة الدندراوية"

والثاني: "الإصلاح والمصلحون"

والثالث: "توصيف الأداء"

والرابع: "التأسيس والأساس".

ويشرح في مجمله منهج الأسرة الدندراوية "التكوين والكيان"

دهشت مما رأيته في الوثيقة التي تعطي صورة رائعة عن الإسلام أمام الجماعات المتطرفة التي تقدم النموذج الأسوأ عنه، وأثارني الكتاب حتى قلت: على الأمة اليوم أن تقرأ هذا المنهج الصوفي الرائع، لعله يكون الترياق الذي يخرجنا مما نحن فيه من تطرف إلى صوفية نقية خالصة؛ إذ في جمعهم سلوكيات وأخلاقيات تفتقدها أمتنا اليوم.

تأسيس الكيان:

في كتاب "الوثيقة البيضاء" حاول مؤلفه سيدي الفضل بن العباس أمير الأسرة الدندراوية تعريف الفكر الدندراوي.

فبدأ بأسباب نشأة الفكرة نفسها على يد جده السلطان محمد، ووضع خلفية لصورة الواقع المتردي للأمة الإسلامية وقتها وقد "أنهكها الهوان وأضنتها المهانة"،

هذا هو الذي دفع مؤسس الأسرة بصفته "واحدًا من المصلحين" إلى محاولة البحث عن تفسير لهذا الواقع المؤلم، ومن ثم اتخاذ خطوات لعلاج "ذلك البلاء المهين".

وفي رحلة تفسير هذا الواقع رأى السلطان أن هناك **أربع طوائف** وصفها بـ"الإصلاحية" انفردت كل منها بتصور لما أصاب "إنسان محمد"، ووضعت دواء حسب تصورها لهذا الداء:

الطائفة الأولى: المذاهب السلفية.

والثانية: الطرق الصوفية.

والثالثة: الجمعيات الخيرية.

والرابعة: رؤساء التنظيمات الوطنية.

وتوزع السواد الأعظم من أهل الإسلام على هذه الطوائف المتشابهة في الغاية، المتغايرة في كيفية الوصول إليها، فانقسمت بذلك طوائف الشارع الإسلامي "المتخصصة" كل منها إلى قسمين: تجمعات صالحة ومجموعات فاسدة، وابتعد عن مواقع تلك الطوائف أكثر أهل الإسلام، ففقدت تلك الطوائف تأثيرها في المسلمين على مر الزمان.

وبعد أن جال الدندراوي الأول في مصر وفي عدد من البلدان الإسلامية، عَلِمَ أنه لن يجد في أي تجمع من التجمعات المتخصصة المخلصة مَن تماثلت رؤيته معه، فبدأ برصد الداء من أجل توصيف الدواء، فقال:

" إنَّ أصل بلاء ما قد وصلنا إليه هو تركنا لما كنا عليه".

فأحد أدوار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حياة إنسان أمته هو دور الرسول الزعيم الجامع، الذي جمع الله به المسلمين، وإعمالًا لهذا الدور لسيد البشر محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جعل الله الارتباط بشخصه (صلى الله عليه وسلم) متساويًا في العقيدة مع التسليم برسالته، فبالتسليم برسالته الخاتمة أقام في الوجدان قيم الإسلام، وأقام في الوجود قيمة المسلمين، وبالارتباط بشخصه (صلى الله عليه وسلم) امتلك بسيادته المحمدية الشاملة الوجدان، فترسخ فيه قيم الإنسان، وهيمن بزعامته المحمدية الجامعة على الوجود حتى شمخت في الوجود قيمة المسلمين.

وبهذا الارتباط الانتمائي صار كل من اتبع السيادة المحمدية الشاملة وبايع الزعامة المحمدية محمديَّ التكوين، فبتكوينه المحمدي بنى الإنسان ذاته، وألف أسرته، وأقام مجتمعه، وأنشأ أمته، فالجميع في كيان إنساني لا يتجزأ مهما تنوعت

الطائفيات أو الطبقات، ومهما تعددت القوميات أو الإقليميات، ومن أجل هذا أنشأ الدندراوي الأول الأسرة الدندراوية.

التنظيم الدندراوي:

مع أن الدندراويين يصفون جماعتهم بالأسرة إلا أنهم منظمون تنظيمًا جيدًا، فأصغر وحدة في هذا الكيان هي الساحة، وتضم عددًا من جموع "إنسان محمد" في مكان ما، قد يكون مدينة أو قرية أو عدة قرى، وتكوِّن عدة ساحات في محافظة ما "تجمُّع ساحات إنسان محمد" وتصب هذه التجمعات في دندرة؛ مقر الأمير الفضل ونوابه من أمراء الأسرة الدندراوية.

وليس هناك شروط يجب أن تتوفر في المسلم حتى يكون دندراويًّا ويدخل في جموع (إنسان محمد) إلا شرط واحد؛ وهو أن يكون محبًّا لسيد الخلق، وأن يؤمن بإخلاص بالرؤية الدندراوية.

تقول مصادر في الأسرة: إن القيادة في الساحة جماعية وليست فردية، والأمير يبايع ولا يفرض، ولا يُقدَّس، ولا تقبل يده.

ومع أن الأسرة الدندراوية غير معترف بها قانونًا؛ لأنها ليست طريقة صوفية فحسب فتخضع للمجلس الأعلى للطرق الصوفية، ولا هي جمعية خيرية فحسب

فتخضع لقانون الجمعيات، ولا حزب سياسي فتحصل على رخصة الحزب السياسي، لذلك لا تتعرض للمساءلة القانونية، ولا إلى الهجمات الأمنية، وتنعقد اجتماعات ساحاتها ومؤتمراتها تحت غطاء قانوني.

وعندما سألت مصادر داخل الأسرة عن سبب تمتعهم بحرية الاجتماع والحركة في حين أنهم يعدون جماعة محظورة تتشابه مع جماعة الإخوان المسلمين في شمولية منهجها وكيفية تنظيمها، ومع السلفية الحركية في رفع شعار "نحن نعلم بالسياسة ولا نعمل بها"؛ نفى هذا المصدر صفة الحظر عن الأسرة، وقال: إن لقاءاتهم واجتماعاتهم تعقد تحت غطاء (مراكز دندرة الثقافية) المشهَّرة وفق قانون الجمعيات.

واتخذت الأسرة الدندراوية مثال النعل النبوي شعارًا لها، وأعلاهُ نجمة سباعية خضراء عليها اسم الله تعالى واسم رسوله سيدنا محمد صلوات الله عليه، يحيط بها هلال أخضر مكتوب عليه:

ومن تكن برسول الله نصرته إن تلقه الأسد في آجامها تجم

قال فيها الشاعر:

ونعل تدوس العرش روحي فداؤها إذا وضعت فوق الرؤوس لنا نعلو

شفاء لنا من كل داءٍ وإنما حقيقتها تاج وصورتها نعل

هذا الشعار مرفوع في كل بيت دندراوي؛ ليلتزم مسيرة المسألة المحمدية.

وكل ساحة من الساحات لها اجتماعان؛ الاثنين والخميس من كل أسبوع، يقرأ فيهما القرآن، وتعقد الحضرة، ويتم الشدو بالأهازيج الدندراوية بأداء جماعي، ويدرس فيها سلسلة كتب الوثيقة البيضاء، وبعض الرسائل الأخرى التي يكتبها الأمير الفضل، ويناقش في هذه الاجتماعات أحوال الساحة.

والأسرة الدندراوية تمتد بمظلتها الاجتماعية على كل منتسبيها، فواجب على الدندراوية أن يتزاوروا ويعرفوا أحوال بعضهم بعضًا، ويتآزروا في أوقات الشدة والفرح، ويقوموا بعمل اجتماعي وخيري وتثقيفي في إطار ساحاتهم، ويعقدوا دورات تدريبية للحرفيين المنتسبين للأسرة، وينشئوا جمعيات خيرية تخصص لمساعدة فقراء أهل البلدة أو الحي.

المؤتمر العام:

مشهد مهيب يأسر القلوب ويشرح الصدور ويسمو بالروح.. يؤكِّده ما يفيض به الدندراوية في وصف مشهد جموعهم في مؤتمرهم العام، فالدندراويون يتوافدون

إلى دندرة مرتين كل عام؛ مرة في المولد النبوي الشريف، وأخرى في مناسبة الإسراء والمعراج، مرتدين زيهم الأبيض، كما أنهم يتميزون بالعمامة البيضاء التي تأخذ شكل العدد ٧، وترتخي من الخلف بعذبة على الرقبة.

ففي المولد النَّبوي الشَّريف؛ يتجمعون بمئات الآلاف في المؤتمر العام للدندراوية، الذي يتوافد إليه منتسبو أسرتهم من جميع قارات العالم، بخلاف مؤتمر الإسراء والمعراج الذي يقتصر الحضور فيه على المصريين منهم فقط.

وقد حضرت صورة مصغرة عنه مرات في مؤتمرهم بدمشق بحضور سمو الأمير الفضل رحمه الله.

وقبل حلول المؤتمر بشهر تقريبا تبعث القيادة في دندرة خطاباتٍ لجموع الساحات، تطلب منهم اقتراحاتهم للبرنامج المزمع تنفيذه في المؤتمر، وتعقد الساحات اجتماعاتها لطرح أفكارها للبرنامج القادم، وهذه الأفكار تأخذ بها القيادة في دندرة بعد مناقشتها لدى لجنة المتابعة والتقرير.

عندما قمت بالاطلاع على نموذج البرنامج الأخير لمؤتمر الإسراء والمعراج وجدت أنه أوراق مجدولة مخصص فيها: لقاءات لمناقشة أحوال الساحات، وجلسات للاقتراحات والشكاوى، ولقاء المدارس القرآنية، ودورات للحاسب

الآلي والإنترنت، وملتقى المواهب، وملتقى شباب جموع الساحات، ولقاء مختلف جموع الساحات، ومحاضرات يلقيها الأمير الفضل ومحاضرات غيرها.

لقد استطاعت هذه الطريقة بحسن تنظيمها أن تنال احترام جميع الطرق في العالم الإسلامي...فهنيئًا للإسلام بهم، وهنيئًا لهم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فشعارهم:

الله أكبر، نحن المحمديون، ولله الحمد

وعلى الحقيقة الكبرى نقول: جميع رجال الطرق محمديون بالفطرة والمنهج والسلوك.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس التاسع

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الطريقة الدسوقية

سيدها سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي

الجامع بين الشريعة والحقيقة

لله سبحانه وتعالى عبادٌ صفَوا فتخلصوا من علائق الدنيا، فأخلصت قلوبهم وأرواحهم في عبادة الله ونفع خلقه، فاصطفاهم الله أولياءً له وخصهم ببعض فضله، فأصبح ذكرهم مرفوعًا في مشارق الأرض ومغاربها؛ لأنهم ساروا على قدم الحبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فتعلَّموا وعلَّموا فأصبحوا من أهل الوراثة المحمدية.. فالعلماء ورثة الأنبياء.

ومن هؤلاء العلماء الذين ذاع علمهم وانتشر مريدوهم في الآفاق الإمام العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي القرشي، الذي يلقب بـ "أبي العينين" والمقصود بهما عين الشريعة وعين الحقيقة؛ لأنه حاز فضل إتقان علوم الشريعة كلها، وتخلَّق بها، وسار في طريق الله يجاهد نفسه حتى ارتقى فأصبح من أهل الحقيقة؛ وهي معرفة

الدنيا على حقيقتها، فيفنى العبد في الله ويعرض عما سواه، وينكشف له من الحقائق ما لا يراها غيره من أهل الدنيا الذين حجبتهم الشهوات.

نسبه:

أجمع علماء الأنساب والمؤرخون كافة على اتصال نسب القطب الدسوقي بسيدنا الحسين بن علي بن أبي طالب، فهو:

سيدنا إبراهيم الدسوقي، بن عبد العزيز أبي المجد، بن قريش، بن محمد المختار، بن محمد أبي النجا، بن علي زين العابدين، بن عبد الخالق، بن محمد أبي الطيب، بن عبد الله محمد الكاتم، بن عبد الخالق، بن أبي القاسم جعفر الزكي، بن علي الهادي، بن محمد الجواد، بن علي الرضا، بن موسى الكاظم، بن جعفر الصادق، بن محمد الباقر، بن علي زين العابدين، بن الحسين بن علي بن أبي طالب زوج السيدة فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولد رضي الله عنه في التاسع والعشرين من شهر شعبان عام ٦٣٣ للهجرة على أرجح الأقوال.

نشأ سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي في بيت إيماني صالح، فحفظ القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، ودرس العلوم الشرعية والعربية المختلفة -من توحيد

وفقه وتفسير وبلاغة وأدب- حتى أتقنها وأصبح أحد كبار علماء الأمة وعينًا من علوم الشريعة، ودرس في علوم التصوف والأخلاق تزكية النفس وتبحر فيها حتى صار عينًا من علوم الحقيقة؛ ولذا لُقِّب بـ"أبي العينين"، وكان يعمل في صناعة الفخار والحصير والزراعة ليكسب قوت يومه، وكان مجاهدًا في سبيل الله فشارك في فتح عكا مع جيش المسلمين حيث عسكر الصليبيون.

وقد نسب له أبيات من الشعر عن نشأته الصوفية تقول:

نعم نشأتي في الحب من قبل آدمٍ وسرّي في الأكوان من قبل نشأتي

على الدَّرة البيضاء كان اجتماعُنا وفي قابِ قوسينِ اجتماعُ الأحبةِ

لم يترك سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي كثيرًا من المؤلفات والكتب؛ بسبب انشغاله بتربية المريدين؛ لذلك فُقِدت معظم كتبه وضاعت، وعلى حسب استنباط شيوخ الصوفية- كالكركي والمناوي والبقاعي- تم الإلمام ببعض أسماء مؤلفاته التي نسبت إليه.

يُقام له في مدينة دسوق احتفالان سنويًا؛ أحدهما في شهر نيسان يُسمى بالمولد الرجبي، والثاني في تشرين الأول وهو الاحتفال بمولده الذي يُعد من أكبر

الاحتفالات الدينية في مصر، حيث يزور مسجده الذي بقلب المدينة أكثر من مليون زائر تقريبًا خلال أسبوع من داخل مصر وخارجها.

ولسيدي الإمام إبراهيم الدسوقي أقوال وإرشادات كثيرة وجَّهها لمريديه لتكون نبراسًا لهم في طريقهم إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان يأخذ العهد على المريد، فيقول له: "يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، وعلى أن تتبع جميع الأوامر الشرعية، والأخبار المرضية، والاحتفال بطاعة الله عزَّ وجلَّ قولًا وفعلًا واعتقادًا، وألَّا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك في أخلاقه، فإن لم تستطع فاتبع خُلُق شيخك، فإن نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدي أن التوبة ما هي بكتابة درج ورق ولا كلام من غير عمل، إنما بالتوبة العزمُ على ارتكاب ما الموتُ دونه، فصفَّ أقدامك يا ولدي في حندس الليل البهيم، ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة ويزعم أنه من أهل الطريق".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من لم يحبس نفسه في قعر الشريعة، ويختم عليها بخاتم الحقيقة؛ لا يقتدى به في الطريقة"، ويقول: "الشريعة كالشجرة، والحقيقة ثمرتها، فلا بد لكل واحد من

الأخرى، ولكن لا يدرك ذلك إلا من كمل سلوكه في طريق القوم".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من عرف الله وعبده فقد أدرك الشريعة والحقيقة، فأحكِموا الحقيقة والشريعة ولا تفرِّطوا إن أردتم أن يُقتدى بكم، ولم يكن اسم الحقيقة إلا لأنها تحقق الأمور بالأعمال، ومن بحر الشريعة تنتج الحقائق".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى مراقيَ أهل الله".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"لو هاجر الناس مهاجرةً صحيحةً طالبين الله خالصًا، ودخلوا تحت أوامره؛ لاستغنَوا عن الأشياخ، ولكنهم جاؤوا إلى الطريق بعللٍ وأمراض، فاحتاجوا إلى حكيم".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"قوة المبتدئ الجوع، ومطره الدموع، وفطره الرجوع، وأما من أكل ونام، ولغا في الكلام، وترخص وقال: ما على فاعل ذلك من ملام؛ فلا يجيء منه شيء والسلام".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"من رأى أن له عملًا يقبل فقد سقط من عين رعاية الحق تعالى"، ويقول: "احذر يا ولدي أن تدعيَ أن لك معاملةً خاصةً مع الله، واعلم أنك إن صُمْتَ فهو الذي صوَّمك، وإن قمت فهو الذي قوَّمك، وإن اتقيت فهو الذي وقاك، وليس لك في الوسط شيء، وإنما الشأن أن ترى أنك عبد عاصٍ ليس لك حسنة واحدة، وهو صحيح، فمن أين لك حسنة وهو الذي أحسن إليك؟! وإن شاء قبلك وإن شاء ردك".

وكان يقول قدس الله سره ورضي عنه:

"يا ولدي إن كنت تصوم الدهر وتقوم الليل وتدعي أن لك سريرة ظاهرة ومعاملة خالصة؛ فلا تدعي قط أنك شممت لطريق القوم رائحة، ولا تشهد نفسك إلا عاصيًا مفلسًا من جميع الأعمال الصالحة، واحذر نفسك، فكم تلف من غرورها وزورها فقير!".

الجانب العملي من تصوفه:

تشير أقوال الإمام إلى العمل بأحكام القرآن والسنة، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

وتقوم على اصطناع المكابدة والمجاهدة وسلوك طريق النسَّاك والزاهدين، وذلك بالإكثار من الصيام والقيام والذِّكر وقراءة القرآن، وبالتسبيح والتقديس والدعاء والابتهال، إلى جانب الزهد في الدنيا والترفع عن اللذائذ والشهوات، والابتعاد عن ضروب اللهو، وأن يرضى المريد بقضاء الله وقدره.

وكان الدسوقي ينصح مريديه باتباع الشريعة الإسلامية بحذافيرها، والبعد عن البدع بحسب ما هو مذكور في القرآن: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾.

وكان يقول:

اللهم إن كان أحد من أصحابي يفعل خلاف طريقي؛ فلا تهلكني بذنوبهم، فيا أولادي إن كنتم أولادي وخالفتموني فأنتم كاذبون.

ونجد بعض أهل السنة يقول: إن أبناء الطريقة الدسوقية وفروعها قد خالفوا طريق شيخهم الدسوقي، وبعدوا تمامًا عن التصوف العملي السني الداعي إلى العمل بالقرآن والسنة النبوية، وإن الدسوقي كان يخشى من أتباعه هذه الأيام أن يدنسوا طريقته ويسيئوا إليها ببعدهم عن طريقه؛ لذلك قال: يا أولادي ناشدتكم بالله، لا

تسيئوا إلى طريقي، ولا تلبسوا في تحقيقي، ولا تدلسوا ولا تدنسوا، وإن كنتم صحبتمونا لتأخذوا مِنّا أوراقًا من غير عمل فلا حاجة لنا بكم.

وأمَّا وحدة الشهود ووحدة الوجود عند الدسوقي؛ فيقول عنها بعضهم: إن هذا المذهب يشبه السوفسطائية إلى حدٍّ كبير، وكذلك يُعتقد أن مبدأ الحلول عقيدة زائفة منقولة غلوًّا عن الدسوقي.

كراماته:

تقول الصوفية: إن سيدنا إبراهيم الدسوقي بُشِّر بمولده قبل أن يولد، فكان بقرية سنهور المدينة -جنوب شرق مدينة دسوق- شيخ من كبار الصوفية وقتها اسمه محمد بن هارون، وكان على صلة وطيدة بوالد الدسوقي «أبي المجد عبد العزيز»، فكلما رأى ابن هارون أبا المجد قام له وشدّ على إكرامه، حتى لاحظ أصحابه ذلك وسألوه عن سببه، فقال لهم: إنَّ في ظهره وليًّا يبلغ صيتُه المشرق والمغرب، وبعد ذلك بمدة رأوه قد ترك القيام فسألوه عن السبب، فقال لهم: إن القيام لم يكن لشخص أبي المجد، بل لبحر في ظهره وقد انتقل إلى زوجته.

وقيل: إنه في ليلة مولده ظهرت له أول كرامة، فقد كان ابن هارون حاضرًا عند أبي المجد والد الدسوقي في الليلة التالية للتاسع والعشرين من شعبان فاتفق وقوع

الشك في هلال رمضان، ولم يعرفوا إن كان المسلمون سيصومون في اليوم التالي أم لا، فسأل ابن هارون أمَّ الدسوقي عما إذا كان رضع في هذا اليوم، فقالت: إنه منذ أذان الفجر لم يرضع، فأخبرها: أن لا تحزن فسوف يرضع -الدسوقي- ثانية بعد أذان المغرب، ويعني بقوله أن الدسوقي قد صام، وعلى أساس معرفته بهذا الأمر أمر الناس بالصِّيام.

وقد نُسِبَ للدسوقي عن كرامته الأولى في كتابه «الحقائق» أنه قال:إن الفقير مَنّ الله عليه مِن ظهر أبيه ولطف به في الأحشاء، فحين وضعتني أمي كنت مبشِّرًا في ذلك العام بالصيام، ولم يُرَ الهلال، وإن ذلك أول كرامتي من الله.

ورغم ما يُنسب للدسوقي من أقوال تظهر خشيته على أتباعه من الكاذبين ومروِّجي الأساطير ينسب له كثيرٌ من أتباعه العديد من الكرامات، وقد قال الدسوقي في هذا الصدد:

خواص الخواص جعلوا زواياهم قلوبهم، ولبسوا تقواهم، وخوفهم من ربهم ومولاهم، قد رفضوا الكرامات ولم يرضوا بها، وخرجوا عنها لعلمهم أنها من ثمرة أعمالهم، فلم يطيروا في الهواء، ولم يمشوا على ماء، ولم يُسَخّر لهم الهواء، ولم تُبصبِص

لهم الأُسود، ولم يضربوا بالأرض فيتفجر الماء، ولا لامَسوا مجذومًا ولا أبرص فبرئ ولا غير ذلك، فخرجوا من الدنيا وأجورهم موفورة كاملة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن الكرامات المنسوبة للإمام الدسوقي: أن تمساح النيل -وكان مُنتشرًا في نهر النيل بمصر في ذلك الوقت- خطف صبيًّا من شاطئ دسوق، فأتت أمه مذعورة إلى الدسوقي تستنجد به، فأرسل نقيبه فنادى بشاطئ النيل: «معشر التماسيح، من ابتلع صبيًّا فليطلع به»، فطلع ومشى معه إلى الشيخ الدسوقي، فأمره أن يلفظ الصبي فلفظه حيًّا بمشهد الناس، وقال للتمساح: مُتْ؛ فمات حينها.

وفي كرامة أخرى نسبت إليه: ذُكِر توجه أحد تلامذته إلى الإسكندرية لقضاء شيء من السوق لشيخه، فتشاجر أحد التجار مع الرجل، فاشتكاه التاجر إلى قاضي المدينة، وكان هذا القاضي ظالمًا يكره الأولياء بحسب الرواية، ولما علم أن خصم البائع من أتباع إبراهيم الدسوقي أمر بحبسه وإهانته، فأرسل التابع إلى الشيخ يستغيث به من ظلم القاضي، فكتب الشيخ الدسوقي رقعة وأعطاها لرجل من أتباعه، وأمره بتسليمها للقاضي، وكانت تتضمن هذه الأبيات:

سهام الليل صائبة المرامي إذا وُتِرت بأوتار الخشوع

يُفوِّقها إلى المرمى رجالٌ يطيلون السجود مع الركوع

بألسنةٍ تُهَمْهِمُ في دعاءٍ وأجفانٍ تفيض من الدموع

إذا أوترنَ ثم رمينَ سهمًا فما يغني التحصُّنُ بالدروع

فلما وصلت الرقعة إلى القاضي؛ جمع أصحابه وأخذ يستهزئ بحامل الورقة وبما فيها، حتى وصل به الحال إلى سبِّ الشيخ، ثم أخذ يقرأ الورقة على أصحابه، فلما قرأها قضى نحبه إذ شهق فمات.

وفي رواية أخرى: عندما وصل إلى قول الشيخ: «إذا أوترن ثم رمين سهمًا»؛ خرج سهمٌ من الورقة فدخل في صدره وخرج من ظهره فوقع ميتًا.

ورويت له **كرامة أخرى** نسبت له: أنه سافر مرة إلى دمنهور الوحش، فمر ببئر فطلب منها ماء ليشرب، فقيل له: إن ماءها مالح، فتفل فيها فتحولت إلى مياه عذبة من وقتها، فقال:

إذا وردوا الأطلال تاهت بهم عجبًا وإن لمسوا عودًا زها غصنه رطبا

وإن وطئوا يومًا على ظهر صخرة لأنبتت الصمَّاءُ من وطئهم عشبا

وإن وردوا البحر الأُجاج شواربًا لأصبح ماء البحر من ريقهم عذبا

ومن خرق العوائد للإمام الدسوقي أيضًا: أنه جاء سبعة من القضاة إلى مدينة دسوق لكي يمتحنوه، فلما وصل مركبهم إلى شاطئ المدينة أرسل النقيبَ لهم فدفعهم، فوجدوا أنفسهم خلف جبل، فأقاموا سنة يأكلون حشيش الأرض حتى تغيرت أجسادهم، وأصبحت ثيابهم قديمة، ثم تذكروا ما وقعوا فيه، فتابوا هناك، فأرسل الدسوقي لهم النقيب فدفعهم، فوجدوا أنفسهم على ساحل دسوق، ومُسِحت من قلوبهم أسئلتهم، فسألهم الدسوقي عن المسائل التي كانوا سيمتحنونه بها، فضحكوا وقالوا: «يكفينا ما رأيناه!» فأخذوا عليه العهد، وصاروا من تلامذته حتى ماتوا.

ولما شعر سيدي إبراهيم الدسوقي بدنو أجله؛ أرسل نقيبه إلى أخيه سيدي أبي العمران شرف الدين موسى، الذي كان يقطن جامع الفيلة بالقاهرة، فأمره أن يبلغه السلام، ويسأله أن يطهِّر باطنه قبل ظاهره، وذهب النقيب إلى أخيه، ودخل عليه المسجد وهو يقرأ على طلابه كتاب الطهارة، فأخبره النقيب برسالة أخيه سيدي إبراهيم، فلما سمعها طوى الكتاب وسافر إلى دسوق، فلما وصل وجد سيدي إبراهيم الدسوقي قد تُوفي وهو ساجد، وكان ذلك عام ٦٩٦ هـ الموافق ١٢٩٦م على أرجح الأقوال؛ أي: توفي وله من العمر ثلاثة وأربعون عامًا.

وقد دُفن سيدي إبراهيم الدسوقي بمدينة دسوق محل مولده، التي لم يغادرها في حياته إلا مراتٍ معدودة، وأقام أهل المدينة بعد ذلك على ضريحه زاوية صغيرة، وتوسعت شيئًا فشيئًا حتى تحولت الزاوية إلى مسجد من أكبر مساجد مصر، ويُعرف حاليًا بمسجد سيدي إبراهيم الدسوقي أو المسجد الإبراهيمي اختصارًا.

ومسجد العارف بالله سيدي إبراهيم الدسوقي واحد من أهم معالم مدينة دسوق ومساجدها بمحافظة كفر الشيخ، وقد بني في عهد الأشرف خليل بن قلاوون سلطان مصر في ذلك الوقت، فكان زاوية صغيرة تجاورها خلوة للإمام الولي الصالح سيدي إبراهيم الدسوقي الذي زاره قلاوون وأمر ببناء هذه الزاوية والخلوة له، وبعد وفاة الإمام إبراهيم الدسوقي دفن في خلوته الملاصقة للمسجد.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس العاشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخليفة الواحد والعشرون

المجدد للطريقة الشاذلية

أحمد بن مصطفى العلاوي

١٨٧٤-١٩٣٤م

هو الإمام المجدّد، أستاذ عصره وشيخ زمانه وغوث أوانه سيدي أحمد بن مصطفى العلاوي المستغانمي الحسني رضي الله عنه وأرضاه...

صاحب الفيوضات الربانية والعلوم النبوية والمنح السنية والمواهب اللدنية، ولد رضي الله عنه عام ١٨٧٤م وحيدًا بين أختين، وقبل حمله رأت أمه الحبيب صلى الله عليه وسلم في منامها وبيده الشريفة زهرة نرجس، فابتسم في وجهها وألقى بالزهرة إليها، فقبلتها منه على استحياء، ولما أفاقت قصّت الرؤيا على زوجها، فأوَّلها بأن الله استجاب دعاءه الذي طالما دعا الله به: ﴿**رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ**﴾ [الأنبياء: ٨٩].

نشأ نشأة دينية تحت رعاية أبويه، وأخذ حظه الوافر من العلوم الشرعية والعربية على علماء عصره.

يعدُّ أحد أبرز مجددي الطريقة الشاذلية الدرقاوية في العالم أجمع، فقد بلغت زوايا الطريقة في حياته شرق آسية وبلاد المغرب وبلاد الشام واليمن والجزيرة العربية وأوربة وجنوب إفريقية، ونشر خلفاءه وتلاميذه من العلماء والصلحاء في جميع البلدان، دعاة ومعلمين ومرشدين ودالين على حضرة الله تعالى، ولقد خَلَفَ الشيخ أحمد العلاوي شيخه سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي رضي الله عنه على زاويته في مستغانم بعد وفاته -وكان قبله قد سلك الطريقة العيساوية-، فقام بالدعوة والإرشاد خير قيام.

أسس العديد من المدارس والجمعيات الإسلامية والمجلات والصحف وعلى رأسها صحيفة «البلاغ»، وصنّف العديد من المؤلفات في التوحيد والتفسير والتصوف والفلسفة والرد على الفرق والملل، وكان يجيد عدة لغات كالفرنسية والإنجليزية واليونانية والفارسية، وناظر رهبان النصارى وعلماءهم، وأسلم على يديه العديد منهم وكان من أشهرهم طبيبه الإنجليزي مارتن لنجر الذي أسلم وسمّى نفسه أبو بكر سراج، وكان للشيخ أثر عظيم في التصدي للحملات الفرنسية

الاستعمارية ومحاولة تغريب عقول المسلمين، فكان يقوم بعقد الندوات والدروس في مختلف مدن الجزائر، مذكرًا الناس بالعودة إلى الله، والتمسك بدين الإسلام وتعاليمه، وترك تقليد الغربيين في معيشتهم وحياتهم، كما تواصل مع عدد من المجاهدين ضد الاستعمار على رأسهم تلميذه الأمير عبد الكريم الخطّابي رحمه الله.

وإضافة إلى تأسيس الزوايا والمدارس كان الشيخ صاحب عقلية عجيبة ونظر بعيد، فقام بشراء الأراضي والمزارع والمواشي ووقفها على أتباع طريقته؛ لتكون مصدر دخل ورزق لمريديه وأتباعه وزواياه، وليشتغلوا بالسير والسلوك إلى الله عن هم الرزق، وما تزال هذه الأوقاف تسمى بالأوقاف العلاوية.

من أخلاقه الشجاعة والصبر والحلم وحب المساكين والفقراء والإحسان إليهم، وكان وصولًا لرحمه، يحب إطعام الطعام ويبذل المال للمريدين وطلاب العلم والضيوف، وكان يترجم أخلاقه النبوية فعليًّا أمام مريديه ليكون قدوة عملية لهم.

أما عن تربية الشيخ لمريديه فكانت قائمة على العلم والتعلم والذكر والمذاكرة، وكان يلقّن السالكين الاسم الأعظم ويحض خلفاءه على تسليك أتباعهم بهذا الاسم المفرد؛ لسرعة فتحه ومحقه للأغيار دون سائر الأذكار، اختصارًا على المريد إذا صحّت نيته وتوجهه، وهذا واضح جلي في قصائد الشيخ في ديوانه وفي مؤلفاته وفي رسائله إلى نوابه ومقدميه في بلدان الإسلام..

توفي الشيخ رضي الله عنه بعد مرض ألمَّ به في عام ١٩٣٤م، ودفن في زاويته في مدينة مستغانم الجزائرية، وقد أودع أمانة الطريقة من بعده في بلاد الشام والمشرق لدى سيدي الشيخ محمد بن الهاشمي، وذلك بعد أدائه الحج وزيارته للشام وبيت المقدس عام ١٩٣٤م، وفي بلاد المغرب لدى سيدي الشيخ عدّة بن تونس رضي الله عنهم جميعًا. وخلّف عشرات الخلفاء في بلدان الإسلام، كما ترك تراثًا دينيًّا عظيمًا من مؤلفات في التفسير والعقائد والفلسفة والتصوف والشعر...

ولو أردنا الكتابة عن حياة هذا الإمام وما حوت من وقائع وعلوم ومعارف؛ لاحتجنا إلى المجلدات لحصرها.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

مصطلحات التصوف١

إن لكل فن من الفنون أو علم من العلوم -مثل الفقه والحديث والمنطق والنحو والهندسة والجبر والفلسفة- اصطلاحات خاصة به، لا يعلمها إلا أرباب ذلك العلم، ومن قرأ كتب علم من العلوم دون أن يعرف اصطلاحاته، أو يطلع على رموزه وإشاراته؛ فإنه يؤول الكلام تأويلات شتى مغايرة لما يقصده العلماء، ومناقضة لما يريده الكاتبون، فيتيه ويضل.

وللصوفية اصطلاحاتهم التي قامت بعض الشيء مقام العبارة في تصوير مدركاتهم ومواجيدهم، حين عجزت اللغة عن ذلك. فلا بد لمن يريد الفهم عنهم من صحبتهم حتى تتضح له عباراتهم، ويتعرف إلى إشاراتهم ومصطلحاتهم.

قال بعض الصوفية: **نحن قوم يحرم النظر في كتبنا على من لم يكن من أهل طريقنا.**

وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني: سمعت سيدي عليًّا الخواص يقول: إياك أن تعتقد -يا أخي إذا طالعت كتب القوم، وعرفت مصطلحهم في ألفاظهم- أنك

صرت صوفيًّا، إنما التصوف التخلق بأخلاقهم، ومعرفة طرق استنباطهم لجميع الآداب والأخلاق التي تحلَّوا بها من الكتاب والسنة.

وإن كلام الصوفية -في تحذير من لا يفهم كلامهم ولا يعرف اصطلاحاتهم من قراءة كتبهم- ليس من قبيل كتم العلم، ولكن خوفًا من أن يفهم الناس من كتبهم غير ما يقصدون، وخشية أن يؤولوا كلامهم على غير حقيقته، فيقعوا في الإنكار والاعتراض، شأن من يجهل علمًا من العلوم؛ لأن المطلوب من المؤمن أن يخاطب الناس بما يناسبهم من الكلام وما يتفق مع مستواهم في العلم والفهم والاستعداد.

وهأنا أجمع لك بعضًا من الكتب التي جمعت مصطلحات التصوف..، فقد وضع الصوفية كتبا لمعرفة مصطلحاتهم وعلومهم، منها:

***التعرف على مذهب أهل التصوف**

تأليف: الإمام أبي بكر الكلاباذي.

***اصطلاحات الصوفية**

تأليف: عبد الرزاق القاشاني

***معجم الكلمات الصوفية**

تأليف: أحمد النقشبندي الخالدي.

***المعجم الصوفي**

تأليف: سعاد الحكيم.

***معجم ألفاظ الصوفية**

تأليف: حسن الشرقاوي.

***المصطلح الصوفي بين التجربة والتأويل**

تأليف: محمد المصطفى عزام.

***

أنواع مصطلحات الصوفية:

تعددت المصطلحات الصوفية بتعدد جوانب الحياة العرفانية التي تتمثل في الطريق والارتحال، والممارسة الوجدانية، والمذهب، والمقامات والأحوال.

ومن المصطلحات التي تنتمي إلى **"الطريق"**:

السفر[1]، والرحلة، والحج، والسلوك، والسالك، والمقامات، والأحوال، والمجاهدة، والوصول، والواصل، والغاية، والمعراج، والسائر.

ومن المصطلحات التي تنتمي إلى **"التجربة الصوفية"**:

التجربة، والرؤيا، والنزغ، والغلبة، والهذيان، والخواطر، والوارد، والنقر، والهواجم، والهواجس.

ومن المصطلحات التي تنتمي إلى **"المذهب"**:

الإحسان، والإرادة[2]، ودفتر الحضرة، ودفتر الفيض، و(دفتر الجذبة)، والولاية، وحقيقة دفتر الحقائق، وأمهات السماء[3]، والشيخ[1]، .....

---

(١) قطع المسافة إلى الله تعالى، وكشف ما كان خفيًّا، والسَّفر وسيلة إلى الخلاص، والسَّفر سفران: سفر بظاهر البدن، وسفر بسير القلب عن أسفل السَّافلين إلى ملكوت السَّماوات.

(٢) إنَّ الإرادة لا تكون إرادةً حتى يكون لها شروط أربعة: العِلْم، والتَّقوى، وقول صادق، وتمامها قلب منيب يخشع.

(٣) أمُّ كلِّ شيءٍ: أصله وعماده (أمُّ الكتاب: المجموع الحاوي لكل شيء - أمُّ القرى- أمُّ موسى- أمَّهاتكم..)، وهي محلُّ الإيجاد والتَّكوين والظُّهور، ويقال: أمُّ رأسه؛ لأنَّه مجموع القوى الحسيَّة والمعنويَّة في الإنسان.

والمريد[٢]، والقطب، والإنسان الكامل، والغوث، قطب الأقطاب، والطريقة[٣].

ومن المصطلحات التي تنتمي إلى **"الأحوال" و"المقامات"**[٤]:

---

(١) مرتبة ووظيفة، فهو الدَّليل في سفر الصُّوفي إلى الله، وهو مربٍّ شذَّب شطحات النَّفْس، وهو مؤدِّب يعد المريد للوقوف بين يدي الحضرة بما يليق بآدابها.

ومن طلب الطريق بلا دليل إلهيٍّ فقد طلب المحالا

وكلُّ شيخٍ عنده إجازة تحدد إمكاناته، فمنهم المجاز بإعطاء العهد، ومنهم المجاز بتسليم زاوية حتى نصل إلى أعلى المشايخ، وهو الشَّيخ صاحب منهج التَّسليك نفسه: الرِّفاعي، الشَّاذلي، القادري.

(٢) المريد: رتبةٌ عند الصُّوفيَّة، هو المتعلِّم على شيخ طريقة، وللمريد درجات، وعليه أن يقرأ أورادًا في اليوم والليلة يكلفه بها شيخه؛ ليسير على طريقته في التَّصوف، وذلك ضمن تربيته للمريد.

(٣) السُّلوك -الطَّريق إلى الله- مرورًا بمجاهدة النَّفْس ووصولًا إلى النَّشاط الرُّوحي، وهي العمليَّة التي يتولَّى فيها المرشد أوالشَّيخ مهمَّة توصيل الفرد أو المريد إلى الحضرة الإلهية، وتدعى بالتَّربية الرُّوحيَّة، وهي بلغة عصرية تدريس على المستوى العملي ضمن مناهج وثوابت؛ لذلك تعدَّدت الطُّرق الصُّوفيَّة.

(٤) المقام: كلُّ صفة يجب الرُّسوخ فيها ولا يصح التنقل عنها، والحال: كلُّ صفةٍ تكون فيها في وقت دون وقت؛ كالسُّكر، والمحو، والغيبة، والرِّضا.

التوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا، والتأمل، والقرب، والمحبة، والخوف[1]، والرجاء[2]، والشوق، والأنس، والطمأنينة، والمشاهدة، والتعين (المعاينة قرينة المشاهدة).

مصادر المصطلح الصوفي:

لمصادر المصطلحات الصوفية ومرجعياتها الاشتقاقية عديدة، تتمثل في:

*القرآن الكريم

*والسنة النبوية الشريفة

*وعلوم اللغة

*وعلوم الشريعة

*وعلم الكلام والفلسفة والآداب

*والعلوم التجريبية

---

(١) الخوف من الله.

(٢) رجاء الله، يظهر الأمن عند المريد، فتفارق نفْسه المجاهدة، فيأتي الخوف منبهًا لحال الأمن وباعثًا يحرك للمجاهدة، ومهما كبر الخوف؛ لا يجب أن يصل إلى درجة اليأس؛ لذلك يتدخَّل الرَّجاء؛ ليوازن بين الخوف واليأس، الخوف والرَّجاء زمامان على النُّفوس؛ لئلا تخرج إلى رعونتها.

فمن المصطلحات التي أخذت من القرآن الكريم: الذكر، والسر[1]، والقلب[2]، والتجلي[3]، والاستمتاع[4]، والاستقامة[5]، والاستواء[6]، .....

والاصطناع[7]، والاصطفاء[8]، والإخلاص[9]، والرياء[10]، والرضا[1]، والخلق[2]، والعلم[3]، والنفس المطمئنة[4]، والسكينة[5]، والتوبة[6]، والدعوة[7]، واليقين[8]، .....

.....

---

(١) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ﴾ [الملك: ١٣].

(٢) ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

(٣) ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

(٤) ﴿اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ [النساء: ٢٤].

(٥) ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

(٦) ﴿اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤].

(٧) ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١].

(٨) ﴿اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

(٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٦]، ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

(١٠) ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

والنور[٩]، والحق[١٠].

ومن المصطلحات التي أخذت من الحديث النبوي الشريف والأثر: الجلال، والخضر[١١]، والخوف[١]، وأهل الذكر، والرداء[٢]، والأبدال، والأوتاد، والغوث، والنجباء، والنقباء.

---

(١) ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

(٢) ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(٣) ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

(٤) ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي﴾ [الفجر: ٢٨، ٢٧].

(٥) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا﴾ [الفتح: ٤].

(٦) ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ﴾ [النور: ٣١].

(٧) ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(٨) ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].

(٩) ﴿يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

(١٠) ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤]، ﴿قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠].

(١١) يعبر به عن إمام الأولياء في العِلْم اللَّدني.

ومن المصطلحات التي أخذت من النحو: الغياب[٣]، والحضور، والمعرفة، والاسم، والحال، والرسم، والعلة، والصفة، والشاهد، والإشارة، والواحد، والجمع، والوصل والفصل.

ولو أني أعلم أن شرح هذه المصطلحات يفيد الإخوة الكرام ويضعهم على أول الطريق الصوفي؛ لفعلت.. ولكني لا أرى كبير فائدة لشرحها في هذه العجالة.

وربما أشرح لكم أهم هذه المصطلحات لاحقًا..؛ نحو: مصطلح المراقبة والمشاهدة والتجلي والمكاشفة[٤].

يتبع دروس التصوف

---

(١) «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ**».

(٢) «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي**».

(٣) الغياب، والغيبة، والحضور: مفردات كالفناء والبقاء؛ إذ كلَّما كانت الغيبة كليَّة كان الحضور كليًّا، وكلَّما غاب العبد عن الخلق حضر مع الحقِّ، وغيبة القلب تكون عن عِلْم ما يجري من أحوال الخَلْق؛ لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثمّ قد يغيب عن إحساسه بنفْسه وغيره بوارد قوي.

(٤) ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب، والتَّجلي: إشراق الأنوار وإقبال الحقِّ على قلوب المقبلين عليه.

هنا دمشق

الدرس الثاني عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

مصطلحات التصوف٢

أحبتي

لا يمكن للسالك المريد أن يسافر في معراجه الصوفي من أجل امتلاك حقيقة الإنسان الكامل أو الوصول إلى حقيقة القطب إلا بمعرفة المفاهيم والمصطلحات الصوفية التي ترشده وتهديه في سفره الوجداني وترحاله الروحاني.

وقد مرَّ معنا أنواع من المصطلحات المتعددة سببها تعدد التجارب الذوقية الفردية والجماعية للسالكين.

فتوسعت تعبيراتهم واختلفت من حقل إلى آخر، فاللفظ واحد ولكنه متعدد المعنى؛ ولذا نشأت المعاجم الصوفية، وفيها:

الرحلة: رحلة خلاص من عالم المادة والطبيعة.

ارتقاء من صفة إلى صفة (كما قال الإمام القشيري).

توجه القلب إلى الحق تعالى بالذكر (ابن عربي)

ففي الانتقالات المعنوية المهمة التي يمر بها المتصوف في طريقه للكمال؛ ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أكمل، فينتقل الصوفي بين المقامات والأحوال، ويكتشف الحالات المعنوية المدهشة للعالم الأكبر فتتحقق الحكمة.

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

الحج: الرحلة إلى الله بالمعاني المتقدمة نفسها.

التجربة: حقيقة التصوف تكمن في مجموعة التجارب الذاتية للمتصوفة، ومنهم من ربطها بالفلسفة كـ(كتاب التجربة الصوفية وخصائصها في الإسلام) لنظلة أحمد الجبوري.

التجربة تعرف بالحال: هي سمو روحي يتصل به الصوفي بالله تعالى، وبه يشرق ويفيض عليه العلم، فيصل به إلى الشهود أو الفناء بالله تعالى.

وهي خلاصة شخصية فردية روحية، عمادها المعرفة الذوقية والحب الإلهي، وهي تعبيرات رمزية عن الذوق بغية الوصول إلى الخضوع غير المحدود لله تعالى.

النزغ: هو المس الشيطاني، وهدفه الخروج عن دائرة اتصال الجن بالإنس إلى دائرة الاتصال بالله تعالى، والخروج عن كل ما يسقط علاقته مع الله تعالى، وسببه غفلة

النفس عند الصوفية؛ لذلك قال تعالى: ﴿**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ**﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الغلبة: حال يمر بها الصوفي إذا زاد عليه الوجد حتى يغلبه، فإذا زاد عليه وصل إلى حالة السكر عما حوله (غيبة القلب).

وهي حال تطرأ للعبد لا يمكن معها ملاحظة السبب ولا مراعاة الأدب، ويكون مأخوذًا عن تمييز[1].

الهذيان: شيء لا يدركه السامع للصوفي، فإما أن يحكم على نفسه بعدم الفهم وقصور فهمه أو يسوء ظنه بالصوفي فينسبه إلى الهذيان، وهذا أسلم له من رد الحق.

الخواطر: يوضحها الإمام الجيلاني في «الغنية» بقوله: وفي القلب خواطر ستة:

خاطر النفس- خاطر الشيطان-خاطر الروح - خاطر المَلَك - خاطر العقل - خاطر اليقين:

خاطر النفس: يأمر بالشهوات.

خاطر الشيطان: يأمر بالكفر والشرك.

---

(١) «التعرف على التصوف» (ص١٣٧).

خاطر الروح والمَلَك: يردان بالحق والطاعة لله تعالى.

خاطر العقل: تارة يأمر بها تأمر به النفس والشيطان، وأخرى بما يأمر به الروح والملك؛ ليدخل العبد في الخير والشر.

خاطر اليقين: وهو روح الإيمان ومورد العلم، يرد من الله تعالى ويصدر عنه، وهو للأولياء والصديقين والأبدال، ولا يرد إلا بحق؛ لمراقبتهم لله تعالى.

النقر: يشبه الصوفية النقر على الدف بنبضات القلب.

مثل الناي عند المولوية. الإمام جلال الدين الرومي يقول: استمع إلى الناي الرخيم كيف يقص حكايته؟! إنه يشكو آلام الفراق!!

الهواجم: ما يرد على القلب بقوَّة الوقت من غير تعمق من العبد ولا من عمله.

البوَادِه: ما دخل بغير إذن بحسب الوارد وقوته وصفته، وربما تغير المريد والقول لا يتغير، أولئك سادات الوقت.

الهواجس: هواجس النفس ووساوس الشيطان.

من أراد التخلص منها يقرأ كل يوم ١٠٠ مرة: سبحان الملك القدوس، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم.

وهنا دور المرشد في نقل المريد شيئًا فشيئًا.

الإحسان: يتردد في كتب الصوفية لأنه الأصل في طريق التصوف.

ومن حديث سيدنا جبريل وإجابة النبي صلى الله عليه وسلم له: (**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**).

وله ركنان: المراقبة والمشاهدة، فإن لم تكن تراه فراقبه فإنه يراك، وسيمر تفصيله لاحقًا إن شاء الله تعالى.

الإرادة: جمرة من نار المحبة في القلب مقتضيةٌ لإجابة دواعي الحقيقة.

وهي استدامة الكد وترك الراحة، والإقبال بالكلية على الحق جل جلاله، والإعراض عن الخلق، وهي ابتداء المحبة.

كيف أنك عندما تحب أحدًا تقبل عليه بكليتك وتستمع له بشغف وحب؟؟

قال شاعر التصوف:

وعن مذهبي في الحب ما لي مذهب وإن مِلْتُ يومًا عنه فارقت مِلَّتي

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهوًا قضيتُ بِرِدَّتي

الإرادة لا تكون إرادةً حتى يتحقق فيها شروط أربعة:

العلم والتقوى وقول صادق وتمامها: قلب منيب يخشع

الحضرة: هناك حضرة إنسانية، وحضرة ربانية إلهية.

والمراد هنا حضرات معينة دعانا مولانا عزَّ وجلَّ لحضورها -مع أنَّ تحصيلها منه- وجعلنا فقراء إليها، فمنها: حضرة المشاهدة، ومنها حضرة المكالمة، ومنها حضرة السماع، ومنها حضرة التعليم.

وعندما نقول: (الحضرة الإلهية) فهي الذات الإلهية والصفات والأفعال.

الفيض: جريان الشيء بسهولة، ﴿**تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**﴾ [المائدة: ٨٣]

وتقول: أفاض القوم في الحديث؛ إذا أخذوا فيه واندفعوا إليه.

فالمريد تظهر عليه الفيوضات الربانية وهو مستمر مع تجلي الحق جل جلاله.

الجذبة: مَنْ جَذَبَهُ الحق إلى حضرته وأولاه ما يشاء من المواهب بلا كلفة، والمجذوب: هو المريد السالك، فتراه ينتقل إلى الحق طاويًا المنازل التي سلكها غيره.

والجذبة حال من أحوال النفس يغيب فيها القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق، وتغشاه غبطة شاملة، ويُعبَّر عنها بالتوفيق والعناية؛ ولذا جذب أرواح أوليائه إليه، وألف بذكره والوصول إلى قربه.

والمجذوب هو من اصطنعه الحق لنفسه، واصطفاه لحضرة أنسه، وطهره بماء قدسه، فحاز من المنح والمواهب ما فاز به بجميع المقامات والمراتب، بلا كلفة المكاسب والمتاعب، تأتيه النفحة الربانية فينجذب إلى الله بكليته.

يقول سيدنا الإمام محمد بن يلس رحمه الله تعالى: (عليك بذكر الرب، اسم شخصه في القلب، تنال مقام الجذب، ترى فيه مولاي، فتفنى مع الأكوان، ترى بعين الرحمن الحقَّ بلا مكان، هو الظاهر في الأشياء).

الولاية: هناك فرق بين الوِلاية والوَلاية، فالوَلاية: النصرة، والوِلاية: تولي الله عبده المخلص العابد المتخلق بالأخلاق النبوية الوارث المحمدي يجتبيه ويصطفيه.

والولي عند الصوفية من تولاه الحق سبحانه بظهور أسمائه وصفاته عليه علمًا وعينًا وحالًا.

الولي من تولاه الحق بكثير مما تولى به النبي؛ من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف وتصريف، وما أكثر الأولياء! ولله الحمد كل شيوخ طريقتنا أولياء، فاحفظوا ذلك لهم.

حقيقة الحقائق: أنك عبد حادث، وأن الله تعالى رب قديم، فحقيقة الحقائق تعم الخلق والحق جل جلاله.

أمهات السماء: أم كل شيء: أصله وعماده.

ومنه: أم الكتاب: المجموع الحاوي لكل شيء، ومنه: أم القرى، وأم موسى، وأمهاتكم، ويقال: أم رأسه لأنه مجموع القوى الحسية والمعنوية في الإنسان.

أم السماء: محل إيجاد التكوين والظهور.

الشيخ: مرتبة ووظيفة، فهو الدليل في سَفَرِ الصوفية إلى الله تعالى.

وهو مربٌّ يشذِّب شطحات النفس.

وهو مؤدب يُعِدُّ المريد للوقوف في الحضرة بما يليق بآدابها.

ومن طلب الطريق بلا دليل إلهيٍّ فقد طلب المُحالا

ألا تقولون: (لولا المربي ما عرفت ربي)؟ المربي هنا هو الشيخ.

وكل شيخ عنده إجازة تحدد إمكاناته:

١- فمنهم المجاز بإعطاء البيعة والعهد (مجاز بالورد العام).

٢- ومنهم المجاز بتسليم زاوية (مقدم الزاوية).

٣- ومنهم المجاز بالخلوة (بإدخال الخلوة).

٤- ومنهم المجاز بالإرشاد.

.....حتى تصل إلى أعلى المشايخ؛ وهو شيخ صاحب منهج التسليك نفسه، وأشهرهم: الإمام الرفاعي والإمام الشاذلي والإمام سيدي عبد القادر الجيلاني والإمام سيدي أحمد البدوي.....

المريد: مرتبة عند الصوفية، وهو المتعلم على يد شيخ طريقة.

وللمريد درجات وتكاليف، فعليه أن يقرأ الأوراد التي يكلفه بها شيخه في اليوم والليلة؛ ليسير على طريقته في التصوف، وذلك ضمن تربيته للمريد، ولا يفارق شيخه إلا أن يأذن له.

وبعض الأخوة يقع في غلطة أنه بعد انتهاء الحضرة يغادر بلا إذن، ويترك حضور الإرشاد، وهذا خطأ بيِّن، فالتصوف: شيخ ومريد وبيعة وإرشاد، وتركه سيطول طريقه مع الله؛ لأنه ترك ركنًا عظيمًا من أركان التصوف؛ وهو الإرشاد.

القطب، والغوث، والخليفة، وقطب الزمان، وواحد الزمان، وقطب الوقت، وشخص الوقت، وصاحب الوقت، ومرآة الحق... كلها ألفاظ لشخص واحد.

القطب: مركز الدائرة الصوفية ومحيطها ومرآة الحق، هو الإنسان الكامل أو الحقيقة المحمدية، عليه مدار العالم، وله رقائق ممتدة إلى جميع الخلائق بالخير لقدمه فوق أعناق الكل؛ من مريدين أو أبدال أو أقطاب...، مرورًا بجميع أولياء زمانه وجميع الرتب الصوفية تحته.

الإمام الشعراني يقول: بيان أن أكبر الأولياء بعد الصحابة القطب ثم الأفراد ثم الإمامان ثم الأوتاد ثم الأبدال رضي الله عنهم، وسيأتي الحديث عنها إن شاء الله تعالى.

قطب الأقطاب: هو نفسه القطب الغوث المتقدم، وتحته أقطاب معاونون له.

الطريقة: السلوك؛ أي: الطريق إلى الله تعالى بدءًا بمجاهدة النفس حتَّى يصل إلى النشاط الروحي.

فهي العملية التي يتولى فيها المرشد أو الشيخ مهمة توصيل الفرد أو المريد إلى الحضرة الإلهية، وتدعى بالتربية الروحية.

وهي بلغة عصرية: تدريس على المستوى العملي ضمن مناهج وثوابت؛ لذلك تعددت الطرق الصوفية بتعدد مناهجها....

الأحوال والمقامات: المقام: كل صفة يجب الرسوخ فيها، ولا يصح التنقل عنها.

والحال: كل صفة يكون الشخص فيها في وقت دون وقت؛ كحال السكر، وحال المحو، وحال الغيبة عن الخلق، وحال الرضا... وهكذا، فحال السكر لا يدوم له عندها حال، تحل بالقلب ثم تزول في الوقت، فهي درجات ومراحل في التطور الروحي، استنادًا إلى تقرير القرآن أن الوجود الإنساني ينبغي أن يكون في صعود دائم

عبر درجات ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]

هذه الدرجات بعضها أحوال وبعضها مقامات، تأتيه من نسمات القرب من الله تعالى، فمقام العبد عند الله تعالى بحسب عباداته ومجاهداته ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] مثل: التوبة والورع والزهد...كما سيأتي.

ولذا قالوا: الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، فهي معانٍ ترد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب؛ من طرب أو حزن، أو قبض أو بسط، أو هيئة، فإذا دام الحال وصار مَلَكةً يسمى مقامًا، والأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود، ويسمى الحال بالوارد، والمجاهدات تجعل الرجل خيرًا في أبيه وشيخه.

-**التوبة والأوبة والإنابة**: هي الرجوع إلى الله تعالى.

يقال: تاب من ذنبه؛ أي: رجع عنه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨]: توبة ابتداءٍ من الحق، وتوبة جزاءٍ من الخلق؛ أي: منَّ عليه بالتوبة ليتوب.

التوبة الرجوع عن الكبائر إلى الطاعة، وهي من أسباب محبة الله ومقدماتها.

والتوبة: اعتراف بالذنب وسؤال المغفرة مع عهد أو عزم على عدم العودة إليه، فهي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب جل جلاله.

والتائبون ثلاثة: عوام – وخواص – وخواص الخواص:

توبة العوام: العودة عن الذنب بالاستغفار والندم بالقلب.

توبة الخواص: مراجعة الطاعات ورؤية التقصير فيها، فهم لا يرون عباداتهم لائقة بمقام الربوبية.

توبة خواص الخواص: الالتفات من الخلق إلى الحق؛ أي: عدم رؤية أي منفعة أو مضرة من الخلق وعدم الركون إليها.

الورع: ترك ما لابأس به خشية مما به بأس.

فهو ترك كل شبهة، وترك ما لا يعنيك، وترك الفضول من كل شيء، وترك الشبهة في الحديث والقلب والعمل، والاسترسال مع الله تعالى على ما يريد.

والورع: حفظ اللسان عن التأويل، واتباع الشرع في التنزيل، فهو اصطلاح يشترك فيه كل الجماعات الإسلامية ووُعَّاظ الشريعة.

الزهد: قلة الشيء... وهو مقام في الدنيا من بدايات الطريق الصوفي، يتركه الأكابر لأنهم يتخلَّقون بالله في سلوكهم.

يقول سيدنا الحسن البصري: الزهد في الدنيا أن تبغض أصلها وتبغض ما فيها.

ويقول سيدنا ابن المبارك: الزهد: أن تترك الدنيا ثم لا تبالي مَن أخذها، فالزهد: هو الثقة بالله تعالى مع حب الفقر.

ويقول سيدنا الجنيد: الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد.

يقول سيدنا أبو يزيد البسطامي: ليس الزهد عندي بمقام، إني كنت زاهدًا ثلاثة أيام: أول يوم زهدت في الدنيا، واليوم الثاني زهدت في الآخرة، واليوم الثالث زهدت في كل شيء سوى الله، فناداني الحق: ماذا تريد؟ فقلت: أريد أن لا أريد؛ لأني أنا المراد وأنت المريد.

الفقر: في القرآن يشير إلى الحاجة، وهو نعت للخلق في مقابل الغنى الذي هو نعت للحق جل جلاله، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [**فاطر: ١٥**]، ويقول شاعرنا:

الفقر حكمٌ يعم الكون أجمع ولا أحاشي من الأعيان من أحد

والفقير: هو المكسور فقار الظهر؛ من ذلته ومسكنته، والعبد لا يفتقر إلا إلى الله.

فعليك أن تشير إلى نفسك دومًا بالفقر، لا تقل: أنا ذهبت، أنا جئت، أنا فعلت، بل قل: الفقير ألهمني الله فجئت، الفقير ألهمني الله ففعلت، احفظوا قواعد التصوف. لا تقل: أنا ولا لي ولا معي ولا عندي.

الفقر سلوك نفسي ومجاهدة، وهو ثمن القرب الإلهي وبابه، كما يقل:

أتيناك بالفقر يا ذا الغنى وأنت الذي لم تزل محسنًا

اعلم أن فقرك نعت وصفة واجبة وجوبًا ذاتيًّا لك.

قال أحد الأقطاب: قال رب العرش لي (في المنام): يا غوث ليس الفقير عندي من ليس له شيء، بل الفقير الذي له أمر في كل شيء، إذا قال لشيء: كن؛ فيكون، وقال: يا غوث قل لأصحابك وأحبابك: من أراد منكم محبتي فعليه اجتياز الفقر ثم فقر الفقر ثم فقر عن فقر الفقر، فإذا تم فقرهم فلا هم إلا أنا[1].

الصبر: هو ضبط النفس عن التسرع والعجلة، وعن الاندفاع إلى المفاسد والمهالك.

---

(١) «الرسالة الغوثية».

وهو صفة يتحلى بها المؤمن أو المريد بعد نظره في عواقب الأمور التي فيها مشقة ومرارة على النفس ولا تلائم الحس والطبع؛ ولذلك يجاهد نفسه في التصبر عليها:

يصبر عن معصية الله فلا يأتيها.

ويصبر على طاعة الله فيلازمها.

ويصبر على طلب العلم والمعرفة.

ويصبر على صحبة العلماء العاملين وتحمل الشدائد في إقامة دعائم الدين.

ويصبر على مباشرة الإخوان والأولاد.

ويصبر على غلظة الناس وجفوتهم وعدم اكتراثهم به إذا دعاهم إلى فضيلة أو مكرمة.

والأهم: أن يصبر على تصاريف الأقدار؛ من المرض والفقر ونقص الحاجات وفقدان الأهل والأحباب وأنواع البلاء.

والصبر نصف الإيمان، والصبر مع الله ورسوله يجعل العبد كالطفل الرضيع مع والديه الشفوقين الرحيمين، فالطفل لا يعرف ما ينفعه أو يضره، فيسلِّم لوالديه تسليمًا مطلقًا؛ لكمال يقينه بأنهما أولى به من نفسه في هذه المرحلة.

فإذا أكرم الله العبد بشميم رائحة هذا المشهد؛ صبر نفسه مع الله، وسلم شأنه لله، وفوض أمره لله، حتى إن بعض العباد يتلذذ بالابتلاء أعظم من تلذذ أهل النعم بالملذات والشهوات.

التوكل: إظهار العبد عجزه واعتماده على غيره في أموره.

تقول: توكل على الله؛ أي: استسلم إليه، وقد ورد لفظ التوكل في القرآن أكثر من ٤٠ مرة، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [يوسف: ٦٧].

والتوكل عند الصوفية هو الرضا نفسه.

والتوكل: أن يفوض أمره إلى الله، ويسلم له قياد نفسه، ويسترسل مع الله على ما يريد.

والتوكل: ألا تتقدم على مقامك ولا تتأخر، وأن تلقي عن قلبك ذكر ما مضى وما هو آت.

والتوكل: أن يطمئن قلبك بوعود الله تعالى أنه هو الخير لك، فلا تتطلع لغد، وأن تمكث حيث أنزل لك الحق حتى يكون الله من نقلك.

اطرح البدن في العبودية، وعلق قلبك بالربوبية، وانقطع إلى الله بالكلية.

فإن أعطاك شكرت، وإن منعك صبرت، وارض بما قدّر لك.

هو الانخلاع عن الحول والقوة، أن تفني تدبيرك في تدبيره، وترضى بالله وكيلًا ومدبرًا.

أخي! كل الحادثات حاصلة من الله تعالى، لا يقدر أحد على الإيجاد غيره، فَسَكّنْ سرك إلى الله.

وإن شئت قلت: هو اكتفاء العبد الذليل بالرب الجليل؛ كاكتفاء الخليل بالجليل حين أتاه جبريل فعرض عليه المساعدة، وكفى بذلك.

الرضا: يأتي بعد صدق التوكل على الله.

قال الإمام الشاذلي: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله ما حقيقة المتابعة؟

فقال: هي رؤية المتبوع عند كل شيء، ومع كل شيء (أن تبقى مع الشريعة).

وملازمة الذكر، ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأداء الفرائض والإكثار من النوافل؛ لأن المتقين في نارين هما: نار الخوف من الله سبحانه، ونار الشوق إلى الله سبحانه، وهذا جعل الرضا عندهم هو سرور القلب في

مُرِّ القضاء؛ أي: في النعمة والمصيبة، وسبب ذلك هو حبهم كل شيء يرضي الله سبحانه وتعالى؛ لذلك يرون أقدار الحياة خيرًا ورحمة، وينظرون إليها بعين الرضا، وما نزولها بساحتهم إلا حكمة من الحق عزَّ وجلَّ؛ لأنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير بحق الله تعالى.

وللرضا أقسام: رضا المتقين - ورضا المقربين - ورضا المحبين، فهؤلاء ماتوا قبل أن يموتوا، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

التأمل: هو المراقبة نفسها، وهو رياضة فكرية تسمح بالغوص أعمق، وتساعد المريد في الوصول إلى مقامات أعلى؛ كالتأمل في أسماء الله تعالى والتعرف إلى صفاته..

القرب: الدنو عكس البعد (الذي هو التدنس بمخالفة الله سبحانه والتجافي عن طاعته).

والقرب: هو القيام بالطاعة والانقطاع عما دون الله، وأن ترى صنائعه ومننه عليك وتغيب فيها عن رؤية أفعالك ومجاهداتك، وهذا يسمى حضرة القدس بمعنى الطهر، وحضرة القدس هو مكان الدنو والتدلي، ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى**﴾ [النجم: ٨، ٩].

والقرب في الدنيا نوعان:

١- قرب الفرائض، وهو فناء العبد بالكلية في الله تعالى، فلا يشعر بجميع الموجودات حتى نفسه، ولا يبقى في نظره إلا وجود الحق، وهو ثمرة الفرائض.

٢- قرب نوافل: وهو زوال الصفات البشرية وظهور صفاته تعالى عليه، فذلك فناء صفاتك في صفاته: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق: ١٩].

(وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه).

المحبة: ثمرة القرب، يقال: أحبه؛ إذا لزمه، والمحبة اسم لصفاء المودة.

الهوى والحب والعشق والود: عواطف لها طبيعة واحدة

هوى القلب: من عالم الغيب إلى عالم الشهادة في القلب.

فإذا تخلص من كل شيء إلا سبيل الله سمي حبًّا؛ لصفائه وخلوصه.

فإذا أفرط فيه صاحبه سمي عشقًا.

فإذا ثبت في قلبه فهو الود أو المودة، ﴿**سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾ [مريم: ٩٦] أي: ثباتًا في المحبة عند الله تعالى.

والحب مقام إلهي فإنه تعالى وصف ذاته باسم الودود.

الحب علة وجود العالم، وهناك حديث موضوع يكرره العامة وربما تجده في كتب التصوف، وهو موضوع كما ذكره الزركشي والعسقلاني والسيوطي والعجلوني

وغيرهم: (كنت كنزًا مخفيًّا، فأحببت أن أُعرَف، فخلقتُ الخلق، فبه عرفوني) وفي رواية: (فبي عرفوني).

فالحب إذًا علة وجود العالم، وهذا الحديث الموضوع يستبدل به آيةٌ تعطي المعنى نفسه: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦] أي: ليعرفوني فيحبوني، ولا بأس بهذا المعنى؛ لأن من عرف الله أحبه حبًّا ملأ عليه جوانحه وجوارحه.

الشوق: هبةٌ خصَّ الله تعالى بها المحبين، فمن أحب الله اشتاق إلى لقائه.

يقول ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى المقامات، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقًا إلى ربه.

فالمشتاق في عمل دؤوب وترقب مستمر إلى لقاء الحبيب والتمتع بجماله، يشعر بالقربة الوجودية والكونية؛ لأن حضوره لا يكون إلا بالحي القيوم، والسالك كلما وصل إلى درجة من درجات الوصال اشتاق لغيرها، والأولياء كلما طلع الفجر اشتاقوا إلى الليل؛ للعكوف على طاعة المعبود بحق جل جلاله.

يبدأ بالاشتياق إلى وعد الله للمحبين بالجنة، ثم الشوق إلى الكرامة، ثم التخلق بأخلاقه تعالى... إلى أن ينتهي إلى الاشتياق إلى شهوده بجميع التجليات، وفي هذا تحفيز للعارف إلى اجتياز كل مرحلة لبلوغ الأعلى منها؛ كفعلهم في المقامات.

وأبرحُ ما يكون الشوق يومًا إذا دنت الخيام من الخيام

أبيات في الشوق:

تحفظون أبياتًا نُسِبت للسيدة رابعة العدوية:

عرفت الهوى مذ عرفت هواك وأغلقت قلبيَ عمن سواكا

وبتُّ أناديك يا من ترى خفايا القلوب ولسنا نراكا

أحبك حُبَّينِ حبَّ الهوى وحبًّا لأنك أهلٌ لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي الحُجْب حتى أراكا

وأشتاق إليك شوق النوى وشوقًا لقرب الخُطا من حماكا

فأما الذي هو شوق النوى فنار حياتي غدت مِن ضياكَا

وأما اشتياقي لقرب الحِمى فما نرى الدموع لطول نواكا

وقال آخر:

على أبوابكم عبد ذليل كثير الشوق ناصره قليل

له أسف على ما كان منه وحزنٌ من معاصيه طويلُ

يمدُّ إليكمُ كفَّ افتقار ودمعُ العين منهملٌ يسيل

يرى الأحباب قد وردوا جميعًا وليس له إلى وِرْدٍ سبيلُ

أكون نزيلكم ويضام قلبي؟! وحاشا أن يضام لكم نزيل!

وحق ولائكمُ وشديد شوقي سُلُوِّي عن هواكم مستحيل

قضيت بحبكم أيام عمري فلا أسلو وهل يُسلى الجميل؟!

الأنس: فرح وسعادة غامرة تملأ القلب بالمحبوب الذي هو الله تعالى، وحلاوة الأنس بالله تعالى لا تحصل إلا بالخلوة الطويلة والانفراد.

فإن نبينا لما أطال خلوته مع الله تعالى نزل عليه الخطاب: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥]

فالسالك ينفرد في زاوية من مكان مظلم، ويبدأ بالتفكير ويطيل النظر ويتناسى الخلق ويجمع همه على ربه، ويسمى هذا مقام الجمع النوراني.

وتحصل له مكاشفات عن طريق دوام الذكر والعبادة والبعد عن القواطع والشواغل التي تقسّي القلب، وفي الحديث: «**ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان**...»: منها: (**أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**).. وقال صلى الله عليه وسلم:(**وجعلت قرّة عيني في الصلاة**).

وما نال الكليم مرتبته حتى خلا أربعين يومًا؛ ﴿**وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً**﴾ [**الأعراف: ١٤٢**] ﴿**وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا**﴾ [النساء: ١٦٤].

الطمأنينة: سكون القلب إلى الله وأمنه ووعده

ولا ترجع النفس إلى الله إلا مطمئنة؛ ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ**﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨]

وهي درجات:

طمأنينة القلب: بذكر الله تعالى.

طمأنينة الروح: بعدم التفاتها إلى ما وراءها، وأن تؤمن بوعد اللقاء وتعلم بحصول الموعود به.

فالواصل إلى شهود الحضرة مطمئن إلى لطف الله تعالى، ولولا هذا اللطف لَحَقَهُ شهود الحضرة وأفناه جملةً، فقد خر سيدنا موسى صعقًا لما تجلى ربه للجبل، وتدكدك الجبل وساخ في الأرض من تجليه سبحانه، ولا يتوهم متوهم أن الحاصل في الدنيا للبشر كذلك، ولا قريب منه أبدًا، وإنما هي المعارف واستيلاء مقام الإحسان على القلب.

فالطمأنينة مَرْتَبة من مراتب الطريق الصوفي، تعني: سكون القلب وراحته، وهذه لا تكون إلا لعبد رجح عقله، وقوي إيمانه، ورسخ علمه، وصفا ذكره لله، وثبتت حقيقته، وهذا في القرآن:

﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [**الرعد: ٢٨**]

﴿**قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهي على **ثلاثة أقسام**:

الأول: طمأنينة العامة: الذين إذا ذكروا الله اطمأنوا إلى ذكرهم، وأنه سوف يستجيب دعاءهم، ويدفع عنهم الآفات، فلا دافع ولا مانع إلا الله تعالى.

الثاني: طمأنينة الخاصة: وهي ما اقترن بالرضا بقضاء الله والصبر على بلائه ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: ١٥٣] فاطمأنوا وسكنوا إلى المعية في قوله: ﴿**مَعَ**﴾.

الثالث: طمأنينة خاصة الخاصة: هؤلاء عكس المتقدمين، قلوبهم لا تقدر أن تطمئن بالله أو تسكن إليه هيبةً له وتعظيمًا؛ إذ هو غاية لا تدرك؛ لأنه ليس كمثله شيء.

إنَّ تحقق الصوفي بالطمأنينة يضفي عليه قوة نفسية ويجعل غيره يأنس به، قال سهل بن عبد الله التستري: إذا سكن قلب العبد إلى مولاه واطمأن إليه قويت حال العبد، فإذا قويت أَنس بالعبد كل شيء، وهذا لا يحصل إلا بمداومة الذكر.

المشاهدة: النفس يحجبها عن إدراك الجلال الإلهي حُجُب المخلوقات، ولا تصل إلى الله إلا بالمجاهدة والتجرد عن القواطع الموصلة إليه، وعندئذٍ تنكشف المغيبات للسالك، فتارة يسمع ما لا يسمعه غيره، وتارة يرى ما لا يراه غيره، يقظة أو منامًا، وتارة يعلم ما لا يعلم غيره إلهامًا أو فراسةً صادقة، فهذا يسمى كشفًا أو مشاهدة.

فقد يرى النبي صلى الله عليه وسلم، وقد يرى سيدنا الخضر، حتى قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: حكاياتهم في رؤيته والاجتماع به أكثر من أن تحصر.

وابن عطاء الله السكندري يقول في الأخذ عن الخضر: واشتهر ذلك إلى أن بلغ حد التواتر.

وهذا يسمى بالإلهام القلبي، ويسميه ابن القيم: العلم اللَّدنيِّ.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: وما حكي عن تفرس بعض المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن حد الحصر.

ولذلك عقدوا لها بابًا في كتبهم سمَّوه باب (المشاهدة).

وهذا يوصلنا إلى **الهواتف**؛ وهي: ما يقرع السمع لمن صفا قلبه في اليقظة.

قال سيدنا أبو يزيد: قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف لي هاتف: من يجالس الملوك ينبغي أن يجالسهم بأدب.

ومنها: **الإسراءات الروحانية** إلى السماء بمنزلة المنام يراه الإنسان.

قال سيدنا أبو يزيد: لي معراج كما كان للنبي معراج، فهو عروج روحاني.

وآخرها: **الكشف** عما وراء الحجب الحسية، العلوية والسفلية، والاطلاع على حقائق الموجودات إما بالبصر أو بالبصيرة، وهذا الأخير هو مرادهم بالكشف؛ ولذا قالوا: الكشف الإلهام.

المعاينة: كقول سيدنا حارثة: (وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا)

فصار الخبر عنده كالمعاينة؛ أي: كالرؤية والمشاهدة.

والمعاينة: مطالعة الحقائق بلا حجاب ولا خصوصية ولا بقاء للغير، وهذه لا تتم إلا بعد ورود وارد قوي يغلب على السالك، فيغيب عن إحساسه، يكاشف به بنعت الجمال، فتطرب روحه وينتشي فؤاده، وهذا مقام السكر

وتستطيع أن تقول: المعاينة والمشاهدة والكشف والتجلي ذات معانٍ متقاربة.

الخوف والرجاء: الخوف من الله تعالى.. والرجاء رجاء الله تعالى.

قد يظهر الأمن عند المريد فتفارق نفسه المجاهدة، فيأتي الخوف كمنبه لحال الأمن وباعث ومحرك للمجاهدة.

ومهما كبر الخوف لا يجب أن يصل إلى درجة اليأس؛ لذلك يتدخل الرجاء ليوازن بين الخوف واليأس.

الخوف والرجاء زمامان على النفوس لئلا تخرج إلى رعونتها.

الجلال: كشف الجلال يعني: الهيبة والانتقام والقاهرية والعظمة والكبرياء، وكشف **الجمال** يوجب ارتياحًا وسرورًا.

يتميز النقشبندية بما عندهم من جلال، فهم لا يحبون المزح.

ويتميز الشاذلية بما عندهم من جمال، فهم يحبون المزح والمرح والسماع.

العارفون كاشفهم مولانا بجلاله فغابوا، والمحبون كاشفهم بجماله فطابوا.

الجلال نعوت القهر من الحضرة الإلهية، وهو نعت إلهي يعطي القلوب هيبة وتعظيمًا، وبه ظهر اسم الجليل، فإذا دنا وتجلى لعباده حصل لهم جمال الجلال، بجماله ظهر لخلقه بخلقه، وبجلاله حجبهم عن معرفته:

جمالك في كل الحقائق سافر وليس له إلا جلالك ساتر

الجلال احتجاب الحق عنا بعزته، وألا نعرفه بحقيقته وهويته، فإن ذاته سبحانه لا يراها أحد على ما هي عليه إلا هو.

فكلام الصوفية عبارات وألفاظ واضحة في ظاهرها، ولكنها تشير إلى غير الذي يظهر من العبارة؛ مثل هذه المصطلحات من قول ابن العربي:

فاصرف الخاطر عن خاطرها واطلب الباطن حتى تعلما

ومن التفسير الإرشادي عند الصوفية -وقد أبدع فيه صاحب «الرسالة القشيرية» في كتابه «لطائف الإشارات»- قولهم: علم الإشارة تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم الشرعية، وسمي علم الإشارة؛ لأن مشاهدات القلوب ومكاشفات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، فلا تعلم إلا ممن نزل تلك الأحوال وحل تلك المقامات، وفي الحديث: (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرَّة بالله)[1].

الواجد: مرتبة من مراتب الصوفية.

ويعبر عنه بـ(الغوث) الذي هو موضع نظر الله تعالى من العالم في كل زمان ومكان، وسيمر معنا ذلك إن شاء الله تعالى.

الجمع: أن تكون الهموم كلها همًّا واحدًا، وهو شهود الحق بلا خلق، وجمع الجمع: شهود الخلق قائمًا بالحق، حتَّى يفنى عما سوى الله، ويرى نفسه في تصريف الحق سبحانه، ويشهد أن كل أفعاله وأحواله عليه بعلمه ومشيئته تعالى.

---

(١) من «الأربعين الصوفية» للسلميِّ، ضعيف جدًّا.

فهذا فني عن رؤية الأسباب برؤية مسبب الأسباب جل وعلا، وهذا يسمى غارقًا في بحار أنوار التوحيد: لا فاعل إلا الله تعالى..

وإذا أثبت العبد لنفسه كسبًا ونظر إلى أعماله خرج عن الجمع، فعليك أن تعتقد أنك تحت تصرف الله تعالى؛ كما قيل:

تراني كالآلات أنت محركي أنا قلم والاقتدار أصابع

أي: ما يحركني إلا القدر.

الغياب: الغياب والغيبة والحضور مفردات كالفناء والبقاء، وكلما كانت الغيبة كلية كان الحضور كليًّا؛ أي: كلما غاب العبد عن الخلق حضر مع الحق، فالغيبة: غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد قوي، فينطق بأشياء يؤاخذ عليها لو كان صاحيًا.

الحضور: يقابل الغفلة، حضور مع الحق جل جلاله يطرأ على قلب العبد فيحضر معه عند غيبته عن الخلق، ويظهر أثره في الجوارح

السيدة مريم حضر قلبها مع الله حين استعاذت بالله من سيدنا جبريل.

القلب هو القطب الرئيسي في الإنسان، منه تشع المواجد التي تستجيب لها الجوارح فتظهر فيها.. فالسمع مثلًا لا يصل إلى مرتبة الحضور والخشوع إلا إذا كان القلب في حالة حضور... وهكذا، فإذا غفل القلب غفلت الجوارح.

وهناك حضور تام وحضور غير تام، أو نقول: حضور العموم –وحضور الخصوص– وحضور خصوص الخصوص.. فتلك تفصيلات.

ويعبر عن الحضور بالصحو؛ وهو رجوع الصوفي إلى الإحساس بعد غيبة عقله وإحساسه.

المعرفة: الإدراك والوعي وفهم الحقائق.

الرسم: صوفية الرسم: كإنسان اقتصر على نسبته إلى الصوفية، وتزيَّا بزيهم من لبس الصوف والمرقعات، لكن لم يلتزم شيئًا من طريقتهم، ولم يتقيد بشيوخهم في الأعمال الظاهرة والباطنة، فهو يتمتم بأقوالهم ولا يلتزم أعمالهم، فمن شاهد حاله ظنه من الصوفية وهو في الحقيقة ليس منهم، ومثل هذا الذين تناولهم ابن تيمية بالنقد والتجريح.

الإشارة: رمز أو حركة للدلالة على أمر ما.

الإشارات عند الصوفية: هي إلهامات وإشراقات بتوفيق الله تعالى.

ويسمى علم التصوف علم الإشارة.

قال الإمام أبو علي الروذباري: علمُنا هذا إشارة، فإذا صار عبارةً فني.

وقال ابن عطاء الله:

إذا أهل العبارة ساءلونا أجبناهم بأعلام الإشارة

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

المنهج العملي في التصوف

أحبتي

يرى الصوفية أنه لا يكفي أن توضَّح للناس أحكام الشرع وآدابه بالكلام النظري فحسب، ولكن ينبغي أن يأخذوا بيد تلميذهم ويسيروا به في مدارج الترقي، ويرافقوه في جميع مراحل سيره إلى الله، يحيطونه برعايتهم وعنايتهم، ويوجهونه بحالهم وقولهم، يذكرونه إذا نسي، ويقوِّمونه إذا انحرف، ويتفقدونه إذا غاب، وينشطونه إذا فتر. وهكذا يرسمون له المنهج العملي الذي يمكنه به أن يتحقق بأركان الدين الثلاثة: الإسلام والإيمان والإحسان.

ومن أهم الطرق العملية التي يطبقها رجال التصوف للوصول إلى رضا الله ومعرفته:

١ - العلم:

يعتقد الصوفية أن العلم والعمل توءَمان لا ينفك بعضهما عن بعض، والسالك في طريق الإيمان والتعرف إلى الله والوصول إلى رضاه لا يستغني عن العلم في أية مرحلة من مراحل سلوكه؛ ولهذا قسّم الإمام الغزالي العلم إلى:

علم ظاهر: وهو العلم بأعمال الجوارح كالعبادات والعادات.

وعلم باطن: وهو العلم بأحوال القلوب وما يرد عليها.

فيجب الاهتمام بأحوال القلوب؛ لكي تستقيم أعمال الجوارح.

ففي ابتداء سيره لا بد له من علم العقائد وتصحيح العبادات واستقامة المعاملات، وفي أثناء سلوكه لا يستغني عن علم أحوال القلب وحسن الأخلاق وتزكية النفس؛ ولذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: من تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق؛ لهذا عُدَّ اكتساب العلم الضروري من أهم النقاط الأساسية في المنهج العملي للتصوف؛ إذ يرى الصوفية أن التصوف ليس إلا التطبيق العملي للإسلام كاملًا غير منقوص في جميع جوانبه الظاهرة والباطنة.

٢- الصحبة:

يعتقد الصوفية أن للصحبة أثرًا عميقًا في شخصية المرء وأخلاقه وسلوكه، وأن الصاحب يكتسب صفات صاحبه بالتأثر الروحي والاقتداء العملي، وأن الصحابة رضي الله عنهم ما نالوا هذا المقام السامي والدرجة الرفيعة إلا بمصاحبتهم لرسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومجالستهم له، وأن التابعين أحرزوا هذا الشرف باجتماعهم بالصحابة.

وبما أن الصوفية -وباقي المسلمين- يؤمنون بأن رسالة النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عامة خالدة إلى قيام الساعة؛ يرون أن لرسول الإسلام صلى الله عليه وسلم وُرَّاثًا من العلماء العارفين بالله، ورثوا عن نبيهم العلم والخُلق والإيمان والتقوى، فكانوا خلفاء له في الهداية والإرشاد والدعوة إلى الله، فمَنْ جالسهم سرى إليه من حالهم الذي اقتبسوه من رسول الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ومَنْ نصرهم فقد نصر الدين، ومن ربط حبله بحبالهم فقد اتصل برسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بحسب اعتقادهم. ويرون أن هؤلاء الوُرَّاث هم الذين ينقلون للناس الدين، مُمَثَّلًا في سلوكهم، حيًّا في أحوالهم، واضحًا في حركاتهم وسكناتهم، وهم الذين عناهم الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: «**لا**

تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» ويعتقدون أن أمثال هؤلاء الوراث لا ينقطع أثرهم على مر الزمان، ولا يخلو منهم بلد، وأن صحبتهم دواء مجرب، والبعد عنهم سم قاتل، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم؛ مرافقتهم هي العلاج العملي الفعَّال لإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق، وغرس العقيدة، ورسوخ الإيمان.

ويستدلون على أهمية الصحبة بآيات من القرآن؛ منها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥].

﴿الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ولأئمة التصوف في أهمية صحبة الشيوخ المرشدين أقوال:

قال سيدنا الإمام أبو حامد الغزالي: «مما يجب في حق سالكِ طريق الحق أن يكون له مرشدٌ ومربٍّ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة».

وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري: «وينبغي لمن عزم على الاسترشاد، وسلوك طريق الرشاد؛ أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينْتهِ عما نهى عنه وزجر».

وقال الإمام أحمد زروق: أخذ العلم والعمل عن المشايخ أتم مِن أخذه عمَّن دونهم.

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، ﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]، فلزمت المشيخة.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

مجاهدة النفس

أحبتي

يعرّف الصوفية مجاهدة النفس أنها: «بذل الوسع في حمل النفس على خلاف هواها ومرادها المذموم، وإلزامها تطبيق شرع الله أمرًا ونهيًا».

ويقولون: إنه ليس المراد من مجاهدة النفس استئصال صفاتها؛ بل المراد تصعيدها من سيئ إلى حسن، وتسييرها على مراد الله وابتغاء مرضاته.

ويستدل الصوفية على المجاهدة بآيات من القرآن وأحاديث من السنة؛ منها:

في القرآن: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

في السنة النبوية: «**المُجاهِدُ مَنْ جاهد نفسَهُ في الله**».

ومن أقوال أئمتهم في الحث على مجاهدة النفس:

قال الإمام أبو عثمان المغربي: «من ظن أنه يُفتح له بهذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة؛ فهو في غلط».

وقال شيخ الإسلام سيدنا زكريا الأنصاري: «إنَّ نجاة النفس أنْ يخالف العبدُ هواها، ويحملَها على ما طلب منها ربُّها».

وقال الإمام أحمد بن عجيبة: «لا بد للمريد في أول دخوله الطريق من مجاهدة ومكابدة وصدق وتصديق، وهي مَظهَر ومجلاة للنهايات، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته، فمن رأيناه جادًّا في طلب الحق باذلًا نفسه وفلسه وروحه وعزه وجاهه ابتغاء الوصول إلى التحقق بالعبودية والقيام بوظائف الربوبية؛ علمنا إشراق نهايته بالوصول إلى محبوبه، وإذا رأيناه مقصِّرًا علمنا قصوره عما هنالك».

واعترض أقوام على رجال التصوف واتهموهم بأنهم يُحَرِّمون ما أحل الله من أنواع اللذائذ والمتع، وقد قال الله: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [**الأعراف: ٣٢**] ولكن رجال التصوف ردوا عليهم بقولهم: إنهم لم يجعلوا الحلالَ حرامًا؛ إذْ أسمى مقاصدهم هو التقيد بشرع الله، ولكنهم حين عرفوا أن تزكية النفس فرضُ عين، وأن للنفس أخلاقًا سيئة وتعلقات شهوانية توصِل صاحبها إلى الردى، وتعيقه عن الترقي في مدراج الكمال؛ وجدوا لزامًا عليهم أن يهذبوا نفوسهم ويحرروها من سجن الهوى.

يقول الإمام البوصيري رحمه الله:

وخالف النفس والشيطان واعصهما وإنْ هما محضاك النصح فاتَّهِمِ

وبهذا المعنى يقول الصوفي الحكيم الترمذي ردًّا على هذه الدعوى، وجوابًا لمن احتج بالآية القرآنية: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ**﴾ [الأعراف: ٣٢]: "فهذا الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف؛ لأنَّا لم نُرِدْ بهذا التحريمَ، ولكنا أردنا تأديب النفس حتى تأخذ الأدب وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك، ألا ترى إلى قوله جل وعلا: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ٣٣] فالبغيُ في الشيء الحلال حرامٌ، والفخرُ حرام، والمباهاةُ حرام، والرياء حرام، والسرف حرام، فإنما أُوتِيَتِ النفسُ هذا المنعَ من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها، حتى فسد القلب. فلما رأيتُ النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق تريد بذلك تغنيًا أو مباهاة أو رياء؛ علمتُ أنها خلطت حرامًا بحلال فضيَّعَتِ الشكرَ، وإنما رُزِقَتْ لتشكُرَ لا لِتكْفرَ، فلما رأيتُ سوء أدبها منعتُها، حتى إذا ذلَّت وانقمعت، ورآني ربي مجاهدًا في ذاته حق جهاده؛ هداني سبيله كما وعد الله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فصرتُ عنده

بالمجاهدة محسنًا فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، وقذفَ في القلب من النور نورًا عاجلًا في دار الدنيا حتى يوصله إلى ثواب الآجل".

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الذكر عند الصوفية

يعرّف الإمام ابن عطاء الله السكندري الذكر أنه: هو التخلص من الغفلة والنسيان بدوام حضور القلب مع الحق، وقيل: ترديد اسم الله بالقلب واللسان، أو ترديد صفة من صفاته، أو حكم من أحكامه، أو فعل من أفعاله، أو غير ذلك مما يُتقرَّبُ به إلى الله.

ويعتقد الصوفية أن الذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد، ويثمر المعارف والأحوال التي شمَّر إليها السالكون، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها؛ كان أعظم لثمرتها وفائدتها.

فالذكر أصل كل مقام وقاعدته التي يبنى عليها؛ كما يُبنى الحائط على أساسه، وكما يقوم السقف على جداره.

حث أئمة التصوف على الذكر كثيرًا، فقال الإمام أبو القاسم القشيري: الذكر منشور الولاية، ومنار الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة النهاية، فليس وراء الذكر شيء، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر، ومنشؤها

عن الذكر. وقال أيضًا: الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى، بل هو العمدة في هذا الطريق، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر.

ويجعل الصوفية للذكر أنواعًا، ولكل منها أدلة عندهم من الكتاب والسنة يجيزونها بها، ولكل منها فوائد تعود على السالك إلى الله بما يناسب حاله، فيذكرون:

ذكر السرّ، وذكر الجهر. الذكر الفردي، والذكر الجماعي. الذكر باللسان، والذكر بالقلب.

والأدلة على الذكر من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى؛ منها قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨]

ومنها قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]

ومنها قوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» **قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر»**.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السادس عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخلوة ١

أحبتي

يعرِّف السادة الصوفية الخلوة أنها: انقطاعٌ عن البشر لفترة محدودة، وتركٌ للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة؛ كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكرٌ لله بقلب حاضر خاشع، وتفكرٌ في آلائه آناء الليل وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يُعلِّمه إذا جهل، ويذكِّره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوساوس وهواجس النفس.

أما عن أدلتها التي يستدلون بها من الكتاب والسنة؛ فعديدة؛ منها:

-الآية القرآنية الكريمة: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ [**المزمل**: ٨].

وقد قال العلامة أبو السعود مفسرًا لهذه الآية: ودُم على ذكره تعالى ليلًا ونهارًا على أي وجه كان؛ من التسبيح والتهليل والتحميد... إلى أن قال: وانقطِعْ إليه بمجامع الهمة واستغراقِ العزيمة في مراقبته، وحيث لم يكن ذلك إلا بتجريد نفسه عن العوائق الصادَّة المانعة عن مراقبة الله، وقطع العلائق عما سواه؛ قيل: ﴿**تَبْتِيلًا**﴾.

-حديث بدء الوحي عن السيدة عائشة أنها قالت: (أولُ ما بُدِئَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، فكان يخلو بغار حِراءَ؛ فيتَحَنَّثُ فيه - وهو التعبد- الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء).

وقد قال ابن أبي جمرة في شرحه لهذا الحديث:

"في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبده وصلاح دينه؛ لأن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم لما اعتزل الناس وخلا بنفسه؛ أتاه هذا الخير العظيم، وكل أحد امتثل ذلك أتاه الخير بحسب ما قسم له من مقامات الولاية. وفيه دليل على أن الأَوْلى بأهل البداية الخلوة والاعتزال؛ لأن النبي صلَّى الله عليه وسلَّم كان في أول أمره يخلو بنفسه".

وقال الإمام القسطلاني في شرحه لحديث السيدة عائشة المذكور:

"وفيه تنبيه على فضل العزلة؛ لأنها تريح القلب من أشغال الدنيا، وتفرغه لله تعالى، فتتفجر منه ينابيع الحكمة. والخلوة أن يخلو عن غيره، بل وعن نفسه بربه، وعند ذلك يصير خليقًا بأن يكون قالبه ممرًّا لواردات علوم الغيب، وقلبه مقرًّا لها".

ويذكر الإمام الغزالي طريقة الخلوة ومراحلها ومقاماتها، فيقول:

"إن الشيخ يُلزِم المريد زاويةً ينفرد بها، ويوكِّل به من يقوم له بقدر يسير من القوت الحلال -فإنَّ أصل الدين القوت الحلال- وعند ذلك يلقِّنه ذكرًا من الأذكار؛ حتى يشغل به لسانه وقلبه، فيجلس ويقول مثلًا: الله، الله، أو سبحان الله، سبحان الله، أو ما يراه الشيخ من الكلمات، فلا يزال يواظب عليه حتى يسقط الأثر عن اللسان، وتبقى صورة اللفظ في القلب، ثم لا يزال كذلك حتى تُمحى من القلب حروف اللفظ وصورته، وتبقى حقيقة معناه لازمة للقلب، حاضرة معه، غالبة عليه، قد فرغ عن كل ما سواه؛ لأن القلب إذا اشتغل بشيء خلا عن غيره -أيَّ شيء كان- فإذا اشتغل بذكر الله وهو المقصود؛ خلا لا محالة من غيره، وعند ذلك يلزمه أن يراقب وساوس القلب، والخواطر التي تتعلق بالدنيا، وما يتذكر فيه مما قد مضى من أحواله وأحوال غيره، فإنه مهما اشتغل بشيء منه -ولو في لحظة- خلا قلبه عن الذكر في تلك اللحظة، وكان أيضًا نقصانًا. فليجتهد في دفع ذلك، ومهما دفع الوساوس كلها، وردَّ النفس إلى هذه الكلمة؛ جاءته الوساوس من هذه الكلمة، وأنها ما هي؟ وما معنى قولنا: الله؟ ولأي معنًى كان إلهًا؟ وكان معبودًا؟ ويعتريه عند ذلك خواطر تفتح عليه باب الفكر، وربما يَرِدُ عليه من وساوس الشيطان ما هو كفر وبدعة، ومهما كان كارهًا لذلك، ومُتَشمِّرًا لإماطته عن القلب؛ لم يضره ذلك".

ويجعل الصوفية للخلوة نوعين؛ هما:

خلوةٌ عامة: ينفرد بها المؤمن ليتفرغ لذكر الله بأية صيغة كانت، أو لتلاوة القرآن، أو محاسبة نفسه، أو ليتفكر في خلق السماوات والأرض.

خلوةٌ خاصة: يقصد بها الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمدارج المعرفة، وهذه لا تكون إلا بإشراف مرشدٍ مأذون، يُلَقِّنُ المريدَ ذكرًا معينًا، ويكون على صلة دائمة به؛ ليزيل عنه الشكوك ويدفعه إلى آفاق المعرفة، ويرفع عنه الحجب والأوهام والوساوس، وينقله من الكون إلى المُكَوِّن.

متى يكون الفتح؟ لا يكون الفتح حتى تصبح مؤهلًا لأن تكون قدوة، ولا تكون من أهل الأحوال إلا بعد الخلوة؛ ولهذا كان رجال من أهل الله يؤكدون عليها، لكن لما تركها المرشدون وتهاونوا بها تاه المريدون.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخلوة ٢

فضل الخلوة

الخلوة من أعظم أعمال الطريق، وهي آكد واجبات المريد، ولا يفتح على السالك ما لم يمارس الخلوة؛ لأن الفتح له مقومات، ولا يكون إلا بالخلوة عندما يكون العقل صافيًا والقلب سليمًا والنفس زكية، فمن أراد أن تكشف له حقائق الكون وعلومه فعليه بالخلوة.

إذا قرأت لشيوخ التصوف رأيت أنهم بالخلوة نالوا أعلى الرتب.... مولانا الشيخ الإمام الجيلاني بقي في الخلوة /٢٥/ سنة. ومولانا الإمام الغزالي جلس /٥/ سنوات في الأموي بالمنارة... والإمام البسطامي سبع سنوات. وغيرهم اعتزلوا وانقطعوا عن الناس.

فوائد الخلوة:

يكفيك من فوئدها أنها تحسن ختامك عند الوفاة، وأنها تطهرك من كل ما لا يليق

بالمقام في حضرة الله عزَّ وجلَّ؛ لأن السالك إنما يسير للوصول إلى هذه الحضرة، وهذه الحضرة لا يدخلها إلا طاهر، والطهارة هنا القلبية والروحية والنفسية؛ لأن حضرة القدوس لا يدخلها أرباب النفوس، فالقائمون بالخلوة يمتنع في حقهم الهفوات والزلات، ومن هنا قال سيدنا ابن عطاء الله السكندري: (حسنات الأبرار سيئات المقربين).

سيدنا أبو يزيد البسطامي جاهد نفسه سبع سنوات فقال: يا رب سبع سنوات وأنا بين يديك، فهتف به هاتف: يا أبا يزيد خلِّ نفسك وتعال..

وهنا أسأل: لماذا كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث الليالي الطوال في غار حراء.. وهو الطاهر المطهر؟ السر في ذلك: أن في الخلوة انقطاعًا عن كل الدنيويات التي من شأنها تعكير النفس وتدنيس الجوارح، نعم؛ الخلوة تعمل عملها في العقل والقلب والجوارح.

أ -عمل الخلوة في العقل: تعطيه القدرة على التأمل والتفكير؛ ليكشف الحقائق وتتجلى له مظاهر الكون فيفهم ويتنور... وما أكثر ما فتح على العلماء بخلواتهم!! فكم من فرق بين علماء الحاضر وعلماء الماضي؟ كان علماء السلف في النهار بين الكتب، وفي الليل بين يدي مناجاة ربهم عزَّ وجلَّ... الإمام الغزالي ألف كتابه

«الإحياء» في خلوته.. فقيام الليل وصيام النهار يعطيك فهمًا ثاقبًا عجيبًا!! والعالم الحقيقي هو الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة؛ ولذلك يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: إن لم يكن العلماء هم الأولياء فليس لله ولي! ومن هؤلاء الإمام النووي رضي الله عنه، فقد وصل إلى القطبية.

قال أحدهم: رأيت في المنام جمعًا كبيرًا فجئت إليه؛ فإذا بنور من أحدهم متصل بالسماء، فسألت فقيل: هذه الليلة قُطِّبَ الإمام النووي (أي: صار قطب الوقت)، فتوجهت لزيارته يقظةً فدخلت المسجد في دمشق، فلما صليت ركعتين وجلست جاء إلي الإمام النووي وسلَّم علي وقال لي: أقسمت عليك بالله ألا تحدث بما رأيت البارحة، قال: فلم أتكلم بها حتى مات رضي الله عنه.

إن سيدنا النووي كان قادريًّا، وكان له سند فيها، وكان يجل مولانا الجيلاني إجلالًا عظيمًا، رضي الله عنهم..

ب - عمل الخلوة في الجوارح: وعملها فيها أنها تذللها لربها وتعوِّدها الطاعةَ وترك المعصية، فتصبح منقادة لأوامر الله دون كلل أو ملل، وتصبح سعادتها بذلك.. فالخلوة تؤدب الجوارح حتى يصبح المريد ذا طاقة عظيمة بين يدي مناجاة ربه، فلا يكل ولا يمل، بل يشتاق إليه اشتياق الولهان بربه عزَّ وجلَّ؛ كما كانت السيدة رابعة

العدوية تشتاق، كانت تردد: يا رب متى يجنُّ الليل حتى أقف بين يدي مناجاتك؟؟ وكانت تقول: أَحَسِبَ أصحاب محمد أن يستأثروا به من دوننا؟ والله لنزاحمنَّهم على الحوض!! وقد كان أصحاب سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم يجلسون الليالي والدهور بين يدي المناجاة لا يبيتون؛ لأنهم استأنسوا بالله تعالى.

ج - عمل الخلوة في النفس: تعمل على تزكيتها وتطهيرها من رعونتها، وتعمل على ضبط حركاتها وتقييد ملذاتها فالخلوة أسرع طريق لذلك، وعلاج النفس بذكر الله والمجاهدة.

د - عمل الخلوة في القلب: تجليه وتتجلى عليه، وورد: (**إن القلب ليصدأ كما يصدأ الحديد، وإن جلاءه ذكر الله**)، والقلب هو عماد الطريق إلى الله، وهو محل نظر الله تعالى، ومحل هبوط الواردات.

فالخلوة تجعل القلب سليمًا رقيقًا منيرًا، وكل قلب خالٍ له عمود نوراني متصل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعرش الرحمن، لكن قد يحتجب هذا النور بالمعاصي، وإنما يزداد تألُّقًا ونورًا بالطاعات، فتنطلق الروح في ملكوت ربها عزَّ وجلَّ.

الخلوة تعيد القلب كما خلق طاهرًا نقيًّا أبيض، وتعطي الإنسان حنانًا وعطفًا حتى على عدوه[1]، الخلوة تحول القلب إلى كتلة رحمة ونور وهداية...

هـ - عمل الخلوة في الروح: الخلوة تطلق الروح من عوالق الجسد محلّقة في ملكوت الله، فلا تحدّها أرض ولا سماء، والروح عندما تنطلق تأخذ معها الحواس، فتطَّلع على حقائق الكون وتسبح في عوالم الله عزَّ وجلَّ، حتَّى يرى الأولياء والصالحون من حولهم، وتصبح أحوالها سنية، تكون كما بين اليقظة والمنام، ويسمى ذلك عالم المثال، فالروح تنطلق تدريجيًّا حتَّى ترى وتسمع وتحس بأمور من عالم المثال.

أعمال الخلوة:

أذكار الخلوة من عمل المرشد، فلا يمارس السالك الخلوة إلا بإذن شيخه، فهو الذي يعين له الورد، ويعين له المدة والحالة. ولكل شيخ مسلِّك أسلوبه ومنهجه وقواعده في التربية والخلوة، (الأصول واحدة، والآداب تختلف من شيخ لآخر)[2] فلكل شيخ طريقته.

---

(١) وانظر بحثنا: «رحمة الصوفية بالأمة المحمدية».

(٢) وقد عمل الفقير إلى الله العزيز تعالى عبد العزيز ثلاث خلوات عند ثلاث من مشايخ التصوف، فرأى أن لكل شيخ طريقة خاصة في الخلوة.

وثبت عن سيدنا الإمام الجيلاني قدس الله سره أن الخلوة عنده التي يبدأ بها المريد هي خلوة (لا إله إلا الله) كما في كتبه: (سر الأسرار - الطريق إلى الله - الفيوضات الربانية).

والخلوة لها نصيب من كتاب الله تعالى؛ فمثلًا: خلوة القرآن بين العصر والمغرب يقرأ فيها جزأين من القرآن.. ثم الذكر بالاسم المفرد.. وغير ذلك.. والخلوة عند الشاذلية لها أحوال أربعة أو خمسة، ينتقل الذاكر فيها من مقام إلى مقام حتى يصل إلى المقام الأخير...

صفاء ولا ماء... نور ولا كدر...

اللهم أذقنا برك وعفوك وحلاوة ذكرك ومجالسة أوليائك، ورضي الله تعالى عن شيوخ الطرق أجمعين.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثامن عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخلوة ٣

من معالم منهج التزكية عند الصوفية: (الخلوة والعزلة)؛ وذلك أن المريد الصوفي يسلك السبيل إلى الله عزَّ وجلَّ، والطريق لا يخلو عادة من معوقات ومكدرات، فانتهج الصوفية سبيل الخلوة والعزلة لتخليص المريد من الآفات القلبية والسلوكية؛ ليرتقي في درجات الوصول إلى الله تعالى، فلندعهم يوضحوا لنا ما الخلوة؟ وما حكمها؟ وما أهميتها للمريد؟ وما الآثار المترتبة عليها؟

١-تعريف الخلوة:

جاء في «تهذيب خالصة الحقائق»[1] في الخلوة:

الحد: قال حكيم: الخلوة ترك اختلاط الناس وإن كان بينهم.

---

(١) «تهذيب خالصة الحقائق» (١/ ٣٨٧).

وقال آخر: الخلوة الخلو عن جميع الأذكار إلا عن ذكر الله تعالى.

وقيل: الخلوة محافظة الحواس وترك الاستئناس بالناس.

وقيل: الخلوة المفارقة عن النظراء والأقران قلبًا وقالبًا.

وقال حكيم: الخلوة الأنس بالذكر والاشتغال بالفكر.

وهذه التعريفات مجملة، لا توضح المراد بالخلوة بدقَّة، فلندع أحد معاصري الصوفية يوضح لنا حقيقتها، قال سيِّدنا الشيخ عبد القادر عيسى في «حقائق عن التصوف»[1]:

فالخلوة إذن انقطاعٌ عن البشر لفترة محدودة، وتركٌ للأعمال الدنيوية لمدة يسيرة؛ كي يتفرغ القلب من هموم الحياة التي لا تنتهي، ويستريح الفكر من المشاغل اليومية التي لا تنقطع، ثم ذكرٌ لله تعالى بقلب حاضر خاشع، وتفكرٌ في آلائه تعالى آناء الليل

(١) «حقائق عن التصوف» (ص٢٤٢).

وأطراف النهار، وذلك بإرشاد شيخ عارف بالله، يعلِّمه إذا جهل، ويذكره إذا غفل، وينشطه إذا فتر، ويساعده على دفع الوساوس وهواجس النفس.

فالخلوة بناء على هذا التعريف تتناول ثلاثة أمور:

الأول: انقطاع عن الناس.

الثاني: ملازمة الذكر، وخاصة الذكر بالاسم المفرد؛ وهو: الله، الله.

الثالث: إرشاد شيخ عارف بالله تعالى؛ كما قال الشيخ زروق في «قواعده»[1]: (ولكنها بلا شيخ مخطرة!!).

فهي طريق للتزكية والتربية مهم عند الصوفية، لها شروط وضوابط، وليس -كما يتبادر إلى الذهن- أنها مجرد اجتناب الرذائل والخواطر السيئة، وإنما الأمر أبعد من ذلك.

وقد فرق بعضهم بين العزلة والخلوة كما جاء في «دائرة المعارف»[2]:

---

(١) «قواعد التصوف» (ص٧٧).

(٢) «دائرة المعارف» (٧ / ٤٥٧).

(الخلوة عند بعض الصوفية هي العزلة، وعند بعضهم غير العزلة، فالخلوة من الأغيار والعزلة من النفس وما تدعو إليه ويشغل عن الله، فالخلوة كثيرة الوجود، والعزلة قليلة الوجود، فعلى هذا العزلة أعلى من الخلوة).

والجمهور على أن: الخلوة أعلى من العزلة؛ لأن العزلة عن النَّاس، ثمَّ يتبعها الخلوة حين يعتزل النَّاس وينفرد مع ربِّه عزَّ وجلَّ، فيتلقَّى الواردات الإلهية، لكن قد يعبَّر عن الخلوة بالعزلة أيضًا.

وقال الشيخ أحمد زرُّوق في «قواعد التصوف»[1]: (الخلوة أخص من العزلة، وهي بوجودها وصورتها نوع من الاعتكاف، ولكن لا في المسجد، وربما كانت فيه، وأكثرها عند القوم لا حد لها، ولكن السنة تشير للأربعين بمواعدة موسى عليه السلام، والقصد في الحقيقة الثلاثون؛ إذ هي أصل المواعدة، وجاور صلى الله عليه

(١) «قواعد التصوف» (ص٧٧) (القاعدة: ١١٤).

وسلم بحراء شهرًا). ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

والخلوة عند الصوفية نوعان:

خلوة عامة: ينفرد فيها المريد؛ ليتفرغ لذكر الله تعالى بأية صيغة كانت، أو لتلاوة القرآن الكريم، أو لمحاسبة نفسه، أو ليتفكر في خلق السماوات والأرض.

وخلوة خاصة: يقصد منها الوصول إلى مراتب الإحسان والتحقق بمدارج المعرفة، وهذه لا تكون إلا بإشراف مرشد مأذون يلقن المريد ذكرًا معينًا ويكون على صلة دائمة به؛ ليزيل عنه الشكوك ويدفعه إلى آفاق المعرفة، ويرفع عنه الحجب والأوهام والوساوس، وينقله من الكون إلى المكوِّن!![1].

وسنفصل في هذه النقطة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

---

(١) «حقائق عن التصوف» (ص ٢٦٨).

الدرس التاسع عشر

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخلوة ٤

١ -أدلَّة الخلوة

وردت السنة في فضل الخلوة والندب إليها، وحرّض عليها جميع الشيوخ والسالكين والعارفين بالله تعالى المرشدين إليه جل جلاله.

-فمن مدرستي البخاري ومسلم عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «**مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى**» قال: ثم من؟ قال: «**ثم رجل مُعتزل في شِعْب من الشِّعاب يعبد ربه**»[1].

---

(١) حديث البخاري: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ الْغَنَمُ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»، فالعزلة والخلوة فضيلة لمن خاف على دِينه، ومكانتها بعد الجهاد في سبيل الله، وفي رواية للبخاري أيضًا: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ». شَعَفَ الجبال: رؤوس الجبال.

٣-أهمية الخلوة:

-يقول الإمام القشيري في «رسالته» المشهورة في علم التصوف[١]:

(إن الخلوة صفة أهل الصفوة، والعزلة من أمارات الوصلة، ولا بد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه، ثم في نهايته من الخلوة ليتحقق بأنسه).

-ويقول ابن أبي جمرة: (الأَولى بأهل البادية الخلوة والاعتزال؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان في أول أمره يخلو بنفسه).

والخلوة عند الصوفية طريق للتلقي عن الله تعالى وحصول الفتوحات الربانية والفيوضات الإلهية؛ إذ إن الإلهام والكشف في مصادر التلقي المعتبرة عند الصوفية، وهي التي عليها منهج أهل السنة والجماعة وأصول الفقه الإسلامي، وتستمد منها الأحكام العقدية والعمليَّة[٢].

---

(١) الرسالة القشيرية (ص ١٠١).

(٢) مصادر الفتوحات الإلهية ومصادر الأحكام الشَّرعيَّة: العقيدة التي هي الكتاب والسُّنَّة.

-جاء في «حقائق عن التصوف»[1] وفي «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» لابن عجيبة[2]: (قال الإمام أبو الحسن الشاذلي: ثمار العزلة الظفر بمواهب المنهج؛ وهي أربعة[3]: كشف الغطاء، وتنزل الرحمة، وتحقيق المحبة، ولسان صدق في الكلمة).

-وقال الشيخ زروق في «قواعده» عن الخلوة[4]: (والقصد بها تطهير القلب من أدناس الملابسة[5]، وإفراد القلب لذكر واحد وحقيقة واحدة، ولكنها بلا شيخ مخطرة، وله فتوح عظيمة!! وقد لا تصلح لأقوام، فليعتبر كل أحد بها حاله).

-وقال سيدنا الإمام الجنيد (بعد ٢٢٠ - ٢٩٧هـ) ببغداد: "من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه؛ فليعتزل الناس".

-وقال سيدنا سفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ) من فقهاء الكوفة، وأحد أعلام الزهد: (من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم، ومن راءاهم وقع فيما

---

(١) «حقائق عن التصوف» (ص٢٦١).

(٢) «إيقاظ الهمم في شرح الحكم» (ص٨٥).

(٣) لأيِّ شيءٍ صرت صوفيًّا؟ لتصل إلى الله، وكيف تصل إلى الله؟ بأربعة...

(٤) (ص٧٧).

(٥) الاختلاط بالنَّاس.

وقعوا، وهلك فيما هلكوا، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلَّت في زماننا). ولما سمع أحد العارفين المتأخرين بهذه العبارة قال:**إن كان حلَّت في زمانه فقد وجبت في زماننا!!**

والعلماء بالله نصّوا أن من آداب العزلة أن يكون صاحبها عالمًا؛ ليؤدي فرضه صحيحًا، ولا يستهويه الشيطان بوساوسه[1].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

(١) تقدَّم معنا أقوال علماء التَّصوف في أهميتها، والآن نتناول أقوال علماء الشَّريعة.

الدرس العشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الخلوة ٥

فمن أقوال العلماء في أهمية الخلوة وفوائدها:

-قال ابن القيم (ت٧٥١هـ) -وبدأت به؛ لأن المعترضين على الصوفية من أتباعه-: (لما كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفًا على جمعيته على الله، ولمِّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى -فإن شعث القلب لا يلمه إلا بالإقبال على الله تعالى- وكان فضول الطعام والشراب وفضول مخالطة الأنام وفضول المنام مما يزيده شعثًا ويشتته في كل واد، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه، أو يعوقه ويوقفه؛ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن شرع لهم من الصوم...) إلى أن قال: (وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله وجمعيته عليه).

-وقال الإمام النووي (ت٦٧٦هـ) رحمه الله تعالى في شرح حديث السيدة عائشة عند قوله: "حبب إليه الخلاء": (أما الخلاء فهو الخلوة، وهي شأن الصالحين، وعباد

الله العارفين...)، ثم قال: قال أبو سليمان الخطابي[1] رحمه الله: حُبِّبَتْ إليه العزلة صلى الله عليه وسلم لأن معها فراغ القلب، وهي معينة على التفكر، وبها ينقطع عن مألوفات البشر، ويتخشع قلبه)[2].

وقال الإمام الشافعي(ت٢٠٤هـ) رحمه الله تعالى: (ومن أحب أن يفتح الله قلبه، ويرزقه العلم: فعليه بالخلوة وقلة الأكل، وترك مخالطة السفهاء وبعض أهل العلم الذي ليس معهم إنصاف ولا أدب)[3].

-وقال الدكتور مصطفى السباعي -(١٩١٥-١٩٦٤م) في حمص، مؤسس حركة الإخوان في سورية-: رحمه الله تعالى في كتابه "مذكرات في فقه السيرة": (يجب على الداعية إلى الله أن تكون له بين الفَيْنة والفَيْنة أوقات يخلو فيها بنفسه، تتصل فيها روحه بالله جل شأنه، وتصفو فيها نفسه من كدورات الأخلاق الذميمة والحياة

---

(١) أوَّل من نال شرف شرح «صحيح البخاري»، و«سنن أبي داود»، حمد بن محمَّد بن الخطَّاب البُستي، فقيه، أديب، محدث، مفسر، (ت٣٨٨هـ) بمدينة بُسْت، أفغاني، له كتاب «معالم السُّنن»، ومن تلامذته الإمام الحاكم صاحب «المستدرك»، وله كتاب «العزلة» مطبوع.

(٢) «صحيح مسلم بشرح الإمام النووي» (ج٢/ ص١٩٨).

(٣) "بستان العارفين" للإمام الفقيه الحافظ أبي زكريا محيي الدين النووي المتوفى (ص٤٧).

المضطربة من حوله. ومثل هذه الخلوات تدعوه إلى محاسبة نفسه إن قصرت في خير، أو زلت في اتجاه، أو جانبت سبيل الحكمة، أو أخطأت في منهج أو طريق، أو انغمست مع الناس في الجدال والنقاش، حتى أَنْسَتْهُ تذكُّرَ الله والأنس به، وتذكرَ الآخرةِ وجنتِها ونارِها والموتِ وغصصه وآلامه؛ ولذلك كان التهجد وقيام الليل فرضًا في حق النبي صلى الله عليه وسلم، مستحبًّا في حق غيره. وأحق الناس بالحرص على هذه النافلة هم الدعاة إلى الله وشريعته وجنته. وللخلوة والقيام لله بالعبودية في أعقاب الليل لذة لا يدركها إلا من أكرمه الله بها. وقد كان سيدنا إبراهيم بن أدهم (ت١٦٢هـ)[1] رحمه الله تعالى يقول في أعقاب تهجده وعبادته: نحن في لذة لو عرفها الملوك لقاتلونا عليها)[2].

---

(١) مدفون بأهم مساجد جبلة، فهناك مسجد إبراهيم بن أدهم، علَّمه سيِّدنا داود الاسم الأعظم في البادية، وكان والده أحد الملوك، فأعرض عن الدُّنيا، ومرة اعترضه أسد مع بعض أصحابه في رابية، وقال: يا أبا الحارث! إن كنت أُمرت فينا بشيء؛ فامضِ لما أمرت به، وإن لم تؤمر بشيء فتنحَّ عن طريقنا، فأدبر الأسد يهمهم.

(٢) "مذكرات في فقه السيرة" للدكتور مصطفى السباعي (ص١٨).

ولا يظنَنَّ أحد أن الخلوة خاتمة السير، بل هي أول خطوة في طريق الوصول إلى الله تعالى، فلا بد أن تتلوها خلوات ومجاهدات طويلة، ومذاكرة متواصلة للمرشد بهمة وصدق واستقامة، وملازمة لذكر الاسم المفرد في الصباح والمساء، وعند كل فراغ؛ حتى يكون على اتصال دائم بالله تعالى، قد جمع بين مرتبتي الإحسان -المراقبة والمشاهدة- اللتين أشار إليهما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: **"الإحسان أن تعبدَ الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"**.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

العقيدة التي يتبنّاها الصوفية

يعلن معظم المتصوفة حاليًّا اعتقادهم بحسب مبادئ عقيدة أهل السنة الأشاعرة التي انتشرت وسادت على أنَّها مذهب عَقَدي رسمي لأهل السنة والجماعة، بل تبناها جمهور علماء أهل السنة والجماعة؛ كالإمام النووي، والإمام ابن حجر العسقلاني، والإمام السيوطي، وغيرهم كثير، فبالتالي لا تخرج كتب المتصوفة الحديثة لا تخرج عن عقيدة أهل السنة، سواء أكانت أشعرية أم ماتريدية، رغم أنهم يتبنَّون كتب ابن عربي والسهروردي التي تتهمها الحركات السلفية وبعض الباحثين المعاصرين بأنها تتضمن ما يفيد بعقائد الحلول والاتحاد، وهذا باطل مبين؛ لأن سيدنا ابن الفارض[1] يقول في شعره:

جل عن حلول وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

---

(١) عمر اليافي.

ووحدة الوجود التي يقولون بها هي نفسها وحدة الشهود المعروفة عند العلماء.

لكن المتصوفة يقولون: إن هذه الكتب ليست في متناول العوام -والعوام في نظر المتصوفة هم كل من لم يتمرس بالصوفية وممارساتها- وإنه بالإمكان حمل كلام ابن عربي والسهروردي على محامل نابعة من الإسلام، فالعوام غير قادرين على تذوق المعاني التي لا تتجلى إلا لمن حَصَل على الكشف الإلهي، لذلك كان المتصوفة هم وحدهم من يمتلك حق التأويل لهذه الكتب والمقولات للشيوخ الكبار، ويرى الشيخ المسافر أن ابن عربي والسهروردي وابن سبعين -فضلًا عن جلال مسيرتهم في التصوف- ينتمون إلى ميدان الحكمة الفلسفية، وأن كثيرًا من كتبهم فلسفية بامتياز وإن لم تُسمَّ بذلك، ويشهد له إنتاج ذلك العدد الكبير من فلاسفة الغرب الذين أسسوا أطروحاتهم الفلسفية أو ضمنوها أجزاء من إنتاج المشايخ الأولياء الثلاثة، أو كما يطلق عليهم بعضهم: "الفلاسفة العظام الثلاثة".

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الشريعة والطريقة والحقيقة

يقسّم الصوفية الدين إلى ثلاثة أركان رئيسية هي؛ الشريعة، والطريقة، والحقيقة، ويعدُّ الوهابيون هذا التقسيم تقسيم بدعة في دين الإسلام، ولم يرد في صحته أي أدلة، ويستدل الصوفية على صحته بما ورد من حديث نبي الإسلام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي اشتهر باسم حديث جبريل، وهو مروي عن الصحابي سيدنا عمر بن الخطاب، يقول:

(بينما نحن جلوس عند رسول الله إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه، وقال: يا محمد؛ أخبرني عن الإسلام، قال: **الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**، قال: صدقت، فعجبنا

له يسأله ويصدِّقه، قال: فأخبرني عن الإيمان قال:**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: **أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: **ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**، قال: فأخبرني عن أماراتها، قال: **أن تلد الأمة ربتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاة الشاء يتطاولون في البنيان**. ثم انطلق، فلبث مليًّا ثم قال: **يا عمر؛ أتدري من السائل**؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**).

فالحديث يذكر أقسام الدين كما يقولون، وهي:

ركن الإسلام: وهو الجانب العملي؛ من عبادات ومعاملات وأُمور تعبدية، ومحله الأعضاء الظاهرة الجسمانية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالشريعة، واختص بدراسته الفقهاء.

ركن الإيمان: وهو الجانب الاعتقادي القلبي؛ من إيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وقد اختص بدراسته علماء التوحيد.

ركن الإِحسان: وهو الجانب الروحي القلبي؛ وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإِن لم تكن تراه فإِنه يراك، وما ينتج عن ذلك من أحوال إيمانية وأذواق وجدانية، ومقامات عرفانية، وعلوم وهبية، وقد اصطلح العلماء على تسميته بالحقيقة، واختص ببحثه الصوفية.

وللوصول إِلى هذا المقام، والإِيمان الكامل؛ لا بد من سلوك الطريقة؛ وهي مجاهدة النفس، وتصعيد صفاتها الناقصة إِلى صفات كاملة، والترقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين، فهي الجسر الموصل من الشريعة إِلى الحقيقة.

قال السيد الجرجاني في «تعريفاته»: **"الطريقة هي السيرة المختصَّة بالسالكين إِلى الله؛ مِن قطع المنازل والترقِّي في المقامات"**.

ولتوضيح الصلة بين الشريعة والحقيقة يضربون لذلك مثلًا الصلاة، فالإِتيان بحركاتها وأعمالها الظاهرة، والتزام أركانها وشروطها، وغير ذلك مما ذكره علماء الفقه؛ يمثل جانب الشريعة، وهو جسد الصلاة. وحضور القلب مع الله في الصلاة يمثل جانب الحقيقة، وهو روح الصلاة. فأعمال الصلاة البدنية هي جسدها،

والخشوع روحها، وما فائدة الجسد بلا روح؟! وكما أن الروح تحتاج إلى جسد تقوم فيه؛ فكذلك الجسد يحتاج إلى روح يقوم بها، ويستدلون على ذلك بالآية القرآنية: ﴿**أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ [البقرة: ٤٣] ولا تكون الإقامة إلا بجسد وروح؛ ولذا لم يقل: أوجدوا الصلاة.

فالشريعة عندهم هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة، والحقيقة هي الثمرة، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة، فَمَنْ تمسَّك بالأولى منها سلك الثانية فوصل إلى الثالثة، وليس بينها تعارض ولا تناقض؛ ولذلك يقول الصوفية في قواعدهم المشهورة: (**كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة**).

ويقول الشيخ أحمد زرُّوق: (لا تصوف إلا بفقه؛ إذ لا تعرف أحكام الله الظاهرة إلا منه. ولا فقه إلا بتصوف؛ إذ لا عمل إلا بصدق وتوجه لله تعالى. ولا هما - التصوف والفقه- إلا بإيمان؛ إذ لا يصح واحد منهما دونه. فلزم الجميع لتلازمها في الحكم؛ كتلازم الأجسام للأرواح، ولا وجود لها إلا فيها؛ كما لا حياة لها إلا بها، فافهم).

ويقول سيدنا الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه:

(مَنْ تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق).

ويقولون: إنه كما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة؛ كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وكما أبيح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع، والحكم بالتحليل والتحريم على ما لم يَرِدْ فيه نص؛ فكذلك لعلماء الصوفية أن يستنبطوا آدابًا ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

عقيدة الصوفية في الأولياء

أحبتي

الولي عندهم: هو عبد لله، اختصه الله بعنايته وتوفيقه واصطفاه من بين عبيده، وهو عبد لا يضر ولا ينفع بذاته كباقي البشر، هو دون الأنبياء في المرتبة والمنزلة؛ إذ لا أحد يصل إلى رتبة الأنبياء مهما ارتقى في مراتب الولاية[1]؛ لذلك فالولي ليس بمعصوم عن الخطأ إلا من عصمه الله. ويستشهدون بالآية القرآنية: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] فالمتقون هم أولياء الله، وقد ورد تحذيرمنهم ومن معاداتهم في أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك كما في الحديث القدسي: (**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**).

---

(١) نهاية الولاية مهما بلغت لا تلحق أبدًا بالنُّبوة، فلو أنَّ وليًّا تقدَّم إلى العين التي يأخذ منها الأنبياء والرُّسل؛ لاحترق من حينه؛ كما قال الشعراني في المبحث الثَّاني والأربعين من كتابه «اليواقيت والجواهر».

نعرف أوَّلًا أنَّ كلَّ أهل الإيمان بالله ورسوله أولياء لله: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ولكنَّ قربهم من الحقِّ جلَّ جلاله على قدْر معرفتهم به يرتقي في طبقات الولاية الخاصَّة بعد الولاية العامَّة.

مراتب الأولياء:

جعل الصوفيةُ الأولياءَ على مراتب، وذلك بحسب اجتهادهم في دقائق التقوى، وبحسب ما يعدُّونه توفيقًا من الله لهم، وبذلك تفاوتت مراتبهم في مقامات الولاية، فليس كل المتقين على درجة واحدة. أما من حيث الدرجات؛ فيجعلون المراتب من الأفضل إلى الأدنى كالتالي[1]:

القطب الغوث[2]، الذي به يغاث عباد الله .....

---

(١) هذا الترتيب بعد الأنبياء والرُّسل والصَّحابة، فأفضل الأولياء المحمَّديِّين بعد الأنبياء هم الصَّحابة، وأفضل الجميع الصِّدِّيق الأكبر، ثمَّ الفاروق، ثمَّ سيِّدنا عثمان، تمَّ سيدنا علي؛ كما دلَّت عليه الأحاديث والآيات، وعملنا مع عملهم كمشي النَّحلة من سرعة طيران القطاة، فقد حازوا قَصَب السَّبق بصحبة سيِّد الوجود صلَّى الله عليه وسلَّم.

(٢) أو قطب الأقطاب، أو الفرد الجامع، ولا يكون في كلِّ عصر إلَّا واحد، وهو الخليفة عن رسول الله لحفظ العالَم بالنِّيابة عنه صلَّى الله عليه وسلَّم. الشعراني المبحث الخامس والأربعون في كتابه «اليواقيت والجواهر».

وبوساطته تنزل الرحمة[1]، اشتهر منهم أربعة: سيدنا الجد الإمام عبد القادر الجيلاني، وسيدنا الإمام أحمد الرفاعي، وسيدنا الإمام أحمد البدوي، وسيدنا الإمام إبراهيم الدسوقي.

ثم الإمامان، وهما كالوزيرين له.

ثم الأربعة الأوتاد الحافظون لجهات الأرض.

ثم السبعة النجباء الحافظون للأقاليم السبعة[2].

---

(١) وقد ذكر سيِّدنا أبو الحسن الشَّاذلي خمس عشرة علامة له؛ منها: أن يمد بمدد الحفظ والرَّحمة والخلافة والنِّيابة، ومدد حملة العرش، ويكرم بكرامة الحِلم والفضل، وعِلم الإحاطة بكل معلوم...، وفي «الفتوحات» في الباب السَّبعين ومئتين: وهو عبد الله، الجامع، المنعوت بالتَّخلُّق والتَّحقُّق بمعاني جميع الأسماء الإلهية بحكم الخلافة، وهو مرآة الحقِّ تعالى، ومجلى النُّعوت المقدَّسة، ومحلُّ المظاهر الإلهية، وصاحب الوقت؛ أي: المتصرِّف في الخَلْق، وعين الزَّمان، والغالب عليه الخفاء. «اليواقيت والجواهر» (٢/ ٧٩).

(٢) أي: في القارات السَّبع، مشغولون بحمل أثقال الخَلْق، فلا ينظرون إلَّا في الحقِّ، ولهم أعمال ظاهرة: الفتوَّة، والتَّواضع، والأدب، وكثرة العبادة، وأعمال باطنة: الصَّبر، والرِّضا، والشُّكر، والحياء.

ثم النُّقباء وهم اثنا عشر نقيبًا في كلِّ زمانٍ، لا يزيدون ولا ينقصون، جعل الله بأيديهم علوم الشَّرائع المنزَّلة، ولهم عشرة أعمال[1].

-ثم الأربعون الأبدال الساعون في قضاء حوائج المسلمين، وهم في الشام.

وقد ورد فيهم أحاديث مختلف في صحتها وضعفها؛ منها؛ قول النبي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:»**الأبدال بالشام، وهم أربعون رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا، يُسقَى بهم الغيث، ويُنتصر بهم على الأعداء، ويُصرف عن أهل الشام بهم العذاب**» وإسناده حسن.

ثم التسعة والتسعون الذين هم مظاهر أسماء الله.

ثم الثلاث مئة والتسعون الأولياء الصالحون من المؤمنين.

وأهل المراتب لا بد منهم في كل زمان إلى نزول سيدنا عيسى ابن مريم. على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وطريقهم مقيَّدة بالكتاب والسُّنَّة، ومبنيَّة على سلوك أخلاق

(١) أربعة ظاهرة وهي: كثرة العبادة، والزُّهد، والتَّجرد عن الإرادة، وقوة المجاهدة، وأربعة باطنة: التَّوبة والإنابة، والمحاسبة والتَّفكر، والاعتصام، والرِّياضة.

الأنبياء والأصفياء، فالتَّصوف زبدة عمل العبد بأحكام الشَّريعة إذا خلا من العِلل وحظوظ النَّفْس.

كرامات الأولياء:

الكرامة: هي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة، يظهرها الله على أيدي أوليائه الصالحين من أتباع الرسل كرامة لهم.

وقد أجمع أهل التصوف على إثبات كرامات الأولياء، ومنها: كلام البهائم، وطي الأرض، وظهور الشيء في غير موضعه ووقته.

ويستدلون على ثبوتها وصحتها بآيات من القرآن؛ منها:

قصة الذي عنده علم من الكتاب في الآية القرآنية: ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ [**النمل**: ٤٠]، وقصة السيدة مريم بنت عمران حين دخل النبي سيدنا زكريا عليها المحراب ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن أحاديث النبي سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: **"أن رجلين خرجا من عند النبي في ليلة مظلمة، وإذا نور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما"**[1].

ومن قصص وقعت للصحابة: قصة الصحابي سيدنا عمر بن الخطاب: روي عن ابنه عبد الله بن عمر قال: وجه عمر جيشًا وولى عليهم رجلًا يدعى سارية، فبينما عمر في المدينة يخطب على المنبر جعل ينادي: يا ساريةُ الجبل!! ثلاثًا. ثم قدم رسول الجيش فسأله سيدنا عمر، فقال: يا أمير المؤمنين هزمنا فبينما نحن كذلك إذ سمعنا صوتًا ينادي: يا سارية الجبل ثلاثًا، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله. قال: فقيل لعمر: إنك كنت تصيح هكذا وهكذا). وإسناده حسن.

الصوفية يعدُّون **أعظم الكرامات الاستقامة على شرع الله**. قال سيدنا أبو القاسم القشيري: واعلم أن من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات، والحفظ من المعاصي والمخالفات.

والصوفية يمنعون إِظهار الكرامة إِلا لغرض صحيح؛ كنصرة شريعة الله أمام الكافرين والمعاندين، أما إِظهارها بلا سبب مشروع فهو مذموم؛ لما فيه من حظ النفس والمفاخرة والعجب. قال سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي: ولا يخفى أن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٠٥)، وانظر كتابي «شخصيات إسلامية».

الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس، إِلا إِنْ كانت لنصر دين أو جلب مصلحة؛ لأن الله هو الفاعل عندهم، لا هُمْ، هذا مشهدهم، وليس وجه الخصوصية إِلا وقوع ذلك الفعل الخارق على يدهم دون غيرهم؛ فإِذا أحيا كبشًا مثلًا أو دجاجة فإِنما ذلك بقدرة الله لا بقدرتهم، وإِذا رجع الأمر إِلى القدرة فلا تعجب.

كما أن **الصوفية لا يعدُّون ظهور الكرامات على يد الولي الصالح دليلًا على أفضليته على غيره**. قال مولانا الإمام اليافعي: لا يلزم أن يكون كلُّ مَنْ له كرامة من الأولياء أفضلَ من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض مَنْ ليس له كرامة منهم أفضل من بعض مَنْ له كرامة؛ لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها، ودليلًا على صدقه وعلى فضله، لا على أفضليته، وإِنما الأفضلية تكون بقوة اليقين، وكمال المعرفة بالله تعالى.

ولا يعد الصوفية أيضًا عدم ظهور الكرامة على يد الولي الصالح دليلًا على عدم ولايته. يقول الإمام القشيري: لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا؛ لم يقدح عدمها في كونه وليًّا.

وهل يجوز للولي أن يعرف أنه ولي؟

اختلف الصوفية في الولي: هل يجوز أن يعرف أنه ولي أم لا؟ **على قولين**:

فقال بعضهم: لا يجوز ذلك؛ لأن معرفته تزيل عنه خوف العاقبة، وزوال خوف العاقبة يوجب الأمن، وفي وجوب الأمن زوال العبودية؛ لأن العبد بين الخوف والرجاء.

وقال الأجلة منهم والكبار: **يجوز** أن يعرف الولي ولايته؛ لأنها كرامة من الله للعبد، والكرامات من النعم التي تقتضي زيادة الشكر.

ويستدل هؤلاء بأن النبي سيدنا محمَّدًا صلى الله عليه وسلم قد أخبر أصحابه بأنهم من أهل الجنة، وشهد للعشرة بالجنة، وشهادة سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام توجب سكونًا إليها، وطمأنينة بها، وتصديقًا لها. ومع ذلك أخبرهم سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم وبشَّرهم.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

كرامات الأولياء ١

في أعلى قمة الولاية لله عزَّ وجلَّ تربع الأقطاب المحمديون الذين سبحت أرواحهم في محيط النور المحمدي، وجالت قلوبهم في حضرة الجمال القدسي، فاستمدت ذواتهم من نور الأنوار، ورشفت من رحيق الأسرار، وتحققت بكمالات الإرث المحمدي الذي نالت بفضله شرف الإمامة، وتربعت على عرش الكرامة، قلوبهم بذكره أحياها، ومن الأرجاس والأكدار طهرها وجلاها، أحيا بهم الدين، ونفع المريدين، وجلا بهم عن القلوب الصدأ، وأغاث بهم العباد، وأصلح بهم البلاد، هم الناطقون بالحق عن الحقيقة، والمرشدون إلى سلوك الطريقة، أولئك هم خواص الحق تعالى، الذين استخلصهم لنفسه، وأجلسهم على بساط أنسه، وقرّبهم إلى حضرة قدسه، وجعلهم شهود حضرته، وجنود مملكته، فافهم هذا أيها المسلم، وأصغِ إلى ما قال فيهم المعلم:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحُهم في الحُجْب نحو العلا

فما عرَّسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرَّجوا عن مس بؤسٍ ولا ضُرِّ

همومهمُ جوَّالةٌ بمعسكرٍ به أهلُ الله كالأنجم الزُّهر

فالولي هو من **تولى طاعة الله تعالى، فتولى الله أمره فلم يكله لغيره طرفة عين.**

الولي عبد ظاهر الصلاح، عارف بالله وصفاته بحسب الإمكان، مواظب على الطاعات، مجتنب للمعاصي، غير منهمك في الشهوات ولو كانت مباحة، وهو على قدم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، تظهر على يديه الكرامات لتدل على مكانته عند الله؛ كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص.

قبل أن أشرع في الحديث عن كرامات الأولياء يستوقفني قوله تعالى عن الولية الطاهرة السيدة مريم رضي الله عنها، التي قال فيها ربّ العزّة والجلال: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا**﴾ [آل عمران: ٣٧] قال المفسرون: وجد سيدنا زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء؛ ولذلك لما سألها ردَّت عليه فقالت: ﴿**هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران: ٣٧].

ويستوقفني أيضًا ما فعلت أم موسى بولدها وقد ألهمها الله تعالى أن تلقيه في اليم، وقصة ذي القرنين وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره، وقصة أصحاب الكهف رضي الله عنهم، وقصة آصف بن برخيا مع سيدنا سليمان حين أتى بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين.

كل هؤلاء ليسوا بأنبياء بل أولياء، وحديثهم في القرآن الكريم لا شك فيه ولا امتراء.

فإذا ضممنا إلى هذه الآيات ما ورد في السنة المطهرّة، كحديث جريج الراهب الذي كلَّم الطفل في المهد، وهو متفق عليه، وكذا حديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفرجت، وحديث ضيف الصديق أبي بكر المخرّج في «الصحيحين» أيضًا، وما فيه من بركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات، وإخبار الصدّيق أبي بكر رضي الله عنه عن حمل امرأته أنه أنثى، فكان ذلك كرامة عند ربه.

وما صح عن سيدنا الفاروق أنه قال: (يا ساريةُ الجبل) في حال خطبته يوم الجمعة، فبلغ صوته إلى سارية في الصين، فكان لسيدنا عمر رضي الله عنه **كرامتان** في ذلك:

إحداهما: ما كُشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو.

والثانية: بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة.

والحديثان المتفق على صحتهما في سيدينا سعد[1] وسعيد[2] رضي الله عنهما في إجابته دعوة كلّ منهما.

---

(١) سيِّدنا سعد بن أبي وقَّاص مالك، أحد العشرة المبشرين بالجنَّة، وآخرهم موتًا، وأحد السَّابقين إلى الإسلام، هاجر إلى المدينة قبل النَّبي صلى الله عليه وسلم، وشهد بدرًا والمشاهد كلَّها، وهو أوَّل من رمى بسهم في الإسلام في أوَّل حرب وقعت بين المشركين والمسلمين، وكان مقدَّم الجيوش في فتح العراق، وفتح الله على يديه أكثر فارس، (ت٦٥هـ)، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ارمِ سعد، فداك أبي وأمي**»، رأى سيِّدنا جبريل وميكائيل عن يمين النَّبي صلى الله عليه وسلم وشماله يقاتلان يوم أحد، ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**اللهم استجب لسعد إذا دعاك**»، فكان معروفًا بإجابة الدُّعاء، كذب عليه رَجل فدعا عليه: اللهم إن كان كاذبًا؛ فأعمِ بصره، وأطل عمره، وعرِّضه للفتن، فكان ما دعا عليه، كان يتعرَّض للجواري في السِّكك، ويقول: شيخ كبير مفتون، أصابتني دعوة سعد. (خ٧٥٥)، وسمع رَجلًا شتم عليًّا، فدعا عليه فما برح مكانه حتَّى جاء بعير شارد فخبطه بيديه ورِجليه حتى قتله.

(٢) من كبار الصَّحابة، من العشرة المبشرين بالجنة أسلم قبل دخول النَّبي صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وتزوج من أخت سيِّدنا عمر السيِّدة فاطمة، كان في القتال أمام النبي وفي الصلاة خلفه،

وحديث البخاري في سيدنا خبيب في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوانه.

وحديث البخاري في سيدينا أسيد بن حضير وعباد بن بشر اللذين خرجا من عند سيدنا رسول الله في ليلة مظلمة ومعهما قضيبان من الشجر أضاء لكل منهما الطريق.

وكذا سيدنا العلاء بن الحضرمي الذي كان في غزاة وبينه وبين الموضع قطعة من البحر، فدعا الله تعالى باسمه الأعظم فمشى هو وجيشه على الماء.

قصَّته مع أروى بنت أويس في «مسلم»، ادعت عليه أنَّه أخذ أرضًا لها ظلمًا، فخاصمته عند مروان بن الحكم، فقال: أنا كنت آخُذُ شيئًا بعد أن سمعت رسول الله يقول: «**مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ إلى سَبْعِ أَرَضِينَ**»؟! فتوقَّف مروان عن الحكم، فقال سعيد: اللهم إن كانت كاذبة؛ فأعمِ بصرها، واقتلها في أرضها، فما ماتت حتى عميت، وسارت في أرضها فسقطت في حفرة، فماتت، وفي رواية: فجُعِل قبرها في دارها، فلمَّا عميت قالت: أصابتني دعوة سعيد بن زيد، فبرَّأ الله سعيدًا من التُّهمة لما استجاب دعوته.

هؤلاء كلهم أولياء الله تعالى، وما حصل معهم من قبيل الممكنات، وهنا يقول إمام الحرمين الجويني في كتابه «الإرشاد»: "ما صار إليه أهل الحق: انخراق العادات في حق الأولياء".

والكرامات من جنس المعجزات؛ لأن كليهما دلالات على الصدق، فمن ادعى النبوة دلَّت المعجزة على صدقه وصحة دعواه، ومن أشار إلى الولاية دلَّت الكرامة على صدقه في حالته، فالفارق بينهما تحدي النبوة فقط.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

كرامات الأولياء بعد الانتقال عند أهل السنة ٢

ويترتب على إثبات كرامات الأولياء بعد الموت والانتقال مسائل فقهية أخرى:

***منها:** ما حكاه الإمام العلامة البجيرمي في كتاب «تحفة الحبيب على شرح الخطيب» المعروفة بـ«حاشية البجيرمي» (١/ ٤٣٣):

"وقع السؤال في الدرس عما لو قرأ الميت آية سجدة كرامة؛ فهل يسجد السامع له أو لا؟ قال: ويمكن الجواب بأن الظاهر الأول؛ لأن كرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم، فلا مانع أن يقرأ الميت قراءة حسنة يلتذ بها، فحينئذ يشرع لسامعه السجود وإن لم يكن الميت مكلفًا؛ إذ هي من المميز كذلك، فليس الميت كالساهي والجماد ونحوهما" اهـ

واعلم أن الدليل على وقوع الكرامة بعد الموت أن ذلك أمر ممكن، وكل ممكن جائز الوقوع، فالكرامة بعد الموت جائزة الوقوع؛ إذ لو لم نقل بجواز الوقوع للزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح، وهو محال.

وأيضا لو قلنا بعدم جواز الوقوع وهي مخلوقة لله تعالى ومقدورة له -إذ هي من جملة الممكنات، وقدرته تعالى متعلقة بجميع الممكنات بأسرها إيجادًا وإعدامًا على وفق إرادته تعالى- لزم تعجيز القدرة! تنزهت قدرته تعالى عن ذلك!!

فإن قلت: لا يلزم من جواز الوقوع الوقوع، فهل ثَمَّ دليلٌ على الوقوع؟ قلنا: نعم؛ وهو ما نقله الحافظ عبد العظيم المنذري في كتاب «الترغيب والترهيب» حيث قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (ضرب بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباء على قبر وهو لا يعلم أنه قبر؛ فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله **ضربت خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنه قبر؛ فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم**: «**هي المانعة وهي المنجية من عذاب القبر**» رواه الترمذي وقال: حديث غريب، ورواه الحاكم وابن عدي والبيهقي.

أقول: وهذا دليل على جواز وقوعها بتقريره صلى الله عليه وسلم لحديث الصحابي، فصار سكوته تقريرًا ودليلًا شرعيًّا، فتأمله!!

فالأحياء أحياء وإن ماتوا، وإنما ينتقلون من دار إلى دار.

قال الإمام أحمد الدردير في منظومته (الخريدة البهية):

والفعل في التأثير ليس إلَّا للواحد القهار جلَّ وعلا

وحينئذ لا فرق في إظهارها على يد أحد منهم بين كونه حيًّا وميتًا، فقد صرح شيخ الإسلام محب الدين أبو الوليد ابن الشحنة الحلبي بأن مِنَح الأولياء الإلهية لا تنقطع عنهم بعد الموت.

وقال البغوي في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾ [النازعات: ٥] قال عبدالرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة: جبريل وميكائيل وملك الموت وإسرافيل عليهم الصلاة والسلام.

فعليه: تصرف العبد بمعنى: إيجاد الله الأمر على يديه من غير أثر للعبد فيه.

وقال التاج السبكي بعد أن ذكر أن من أنواع الكرامة مقام التصريف: حُكي أن بعضهم كان يبيع المطر.

وتصرف الأولياء في حياتهم وبعد مماتهم إنما هو بإذن الله تعالى وإرادته، لا شريك له في ذلك خلقًا وإيجادًا، لكن أكرمهم الله تعالى به وأجراه على أيديهم وألسنتهم خرقًا للعادة، تارة بإلهام، وتارة بمنام، وتارة بدعائهم، وتارة بفعلهم واختيارهم، وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم.

تنبيه: يُوهم قول قاضي القضاة الأوشي في منظومته (بدء الأمالي):

كرامات الولي بدار دنيا أن اختصاص الكرامات بحال الحياة، وهو ممنوع؛ لأن البرزخ ينسحب عليه حكم الدنيا، ويؤكد ذلك ما ورد بإسناد صحيح إلى عكرمة مولى ابن عباس: أنه سئل عن يوم القيامة أهو من الدنيا أم من الآخرة؟ فأجاب: بأن نصفه الأول الذي يقع فيه الفصل والحساب من الدنيا، ونصفه الآخر الذي يقع فيه الانصراف إلى النار والجنة من الآخرة. انتهى[1].

فإذا كان يوم القيامة نصفه الأول من الدنيا فبِالأَولى أن يحكم على البرزخ بأنه من الدنيا حقيقة.

قال الجلال البخاري في (شرحه): قوله: «بدار دنيا» التقييد بدار دنيا لأن الاختلاف وقع فيها؛ لأن دار العقبى محل كرامة جميع المؤمنين.اهـ.

وفي القرآن الكريم الإشارة إلى ذلك: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [إبراهيم: ٢٧] وباتفاقٍ هو عالَم البرزخ.

وقال الشيخ يحيى المغربي: (بدار دنيا) وإنما هو ظرف متعلق بالكون؛ أي: لها وجود بدار دنيا، خلافًا للمعتزلة. فافهم.

---

(١) كذا في «المواهب اللدنية»، ونقله المناوي في أول «شرحه الكبير على الجامع الصغير».

فالمراد من قول الناظم (بدار الدنيا): ما قابل الآخرة؛ وهي ما بعد البعث من القبور، لا قبله.

ومن ثم نقل ابن القيم عن أبي يعلى: أن عذاب القبر من الدنيا؛ لانقطاعه قبل البعث بالفناء، ولا يعرف أمد ذلك، وأيده الجلال في (شرح الصدور) ويؤيده ما أخرجه هناد بن السري في «الزهد» عن مجاهد قال: للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم حتى يوم القيامة، فإذا صيح بأهل القبور يقول الكافر: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**﴾ [يس: ٥٢] فيقول المؤمن إلى جنبه: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس: ٥٢] فعلى هذا يؤخذ جواز وقوع كرامات الأولياء بعد موتهم من قوله: (بدار دنيا)؛ إذ لم يتعرض أحد من شراح النظم -مع كثرتهم- إلى التصريح بانقطاع الكرامات بعد الموت، بل قال شارحه السمهودي: ينبغي أن يكون ظهور الكرامات لهم بعد موتهم أولى من ظهورها حال حياتهم؛ لأن النفس باقية صافية من الأكدار والمحن وغيرها، وقد شوهد ذلك من كثير منهم بعد موته، وقد يدخل ذلك في كلام الناظم، فإن قوله: (بدار دنيا) صادق بحياته وبعد موته. انتهى.

وبهذا ظهر أن من احتج بهذا البيت على انقطاع الكرامات بالموت -حتى نسب إلى الإمام أبي حنيفة هذا القول- واهمٌ، وعن طريق أهل الهدى ضال؛ إذ لم يثبت في شيء من كتب أحد المذاهب الأربعة أصولًا وفروعًا القولُ بانقطاع الكرامات بالموت[1].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

(١) انظر: «السُّيوف الصقال، في رقبة من ينكر كرامات الأولياء بعد الانتقال» للإمام عبد الباقي بن عبد الرَّحمن المقدسي الخزرجي الحنفي.

الدرس السادس والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

كرامات الأولياء بعد الانتقال عند أهل السنة ٣

واعلموا أن كلام الأموات لا يسمعه إلا من تحقق بكتمان الأسرار، وقد ورد أن البهائم تسمع صوت الميت في قبره، وثبت في صحيح الحديث: **أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حادت به بغلته وكادت تلقيه لمَّا مر بمن يعذب في قبره**[1].

وإليك الدليل على أن مثال النبي والولي طليق في الملكوت حيٌّ في كل مكان:

١- في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أنس: **أن النبي صلى الله عليه وسلم ليلة أُسري به مر بموسى عليه السلام وهو يصلي في قبره،**

وكذا أخرج أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بقبر موسى عليه السلام وهو قائم يصلي فيه.

٢- وقد صلى سيدنا موسى مع إخوانه الأنبياء خلف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى الذي أسري بنبينا إليه.

---

(١) كما نقل ابن القيم في كتاب «الروح» (ص: ٦٦).

٣- وقد رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام في السماء عندما عُرج به إليها.

فتنبه كيف أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كان قائمًا يصلي في قبره، ثم صلّى خلف النبي صلى الله عليه وسلم في المسجد الأقصى، ثم رآه النبي صلى الله عليه وسلم في السماء عندما عُرج به.

ونختم بما نقله الإمام الباجوري في حاشيته على «جوهرة التوحيد» قائلًا:

(وقال الشعرانيُّ: ذكر لي بعض المشايخ أن الله تعالى يوكل بقبر الولي ملكًا يقضي الحوائج، وتارة يخرج الولي من قبره ويقضيها بنفسه).

قضيب البان الموصلي كان في بعض أسفاره، فأدركه الجوع والعطش، فوقع في باله قول شيخه سيِّدنا عقيل: إذا كنتم في سفر؛ فتوسَّلوا إلى الله بي؛ تجدوني، فتوسل إلى الله، فإذا هو بإنسان على صخرة يقول له: تعال، فسار نحوه، فإذا هو الشَّيخ عقيل، ومعه طعام وماء، فقال: لا بأس عليك، كل واشرب باسم الله.

وقال لسيِّدنا عَديِّ بن مسافر: إذا كان لك صاحب ولي لله تعالى أو شيخ، ووقفت في أمر مهم؛ فاسأل الله به؛ فإنه يستجاب لك، ولا تعتقد أن ذلك في حياتي فقط، بل في حياتي وبعد مماتي، ولكن بشرط أن تكون مظلومًا لا ظالمًا.

وسيِّدنا الجيلاني له المقولة نفسها.

وكذلك سيِّدنا أحمد البدوي له المقولة نفسها.

قال الإمام الشعراني في «طبقاته الوسطى»: إنَّ سيدنا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وأرضاه كان يقول: أنا لكل من عَثَرَ مركوبه من جميع أصحابي ومريدي ومحبِّي إلى يوم القيامة آخذ بيده كلَّما عثر، حيًّا وميتًا، فإنَّ فرسي مسرج، ورمحي منصوب، وسيفي مشهور، وقوسي موتور، وحفظ مريديَّ، وهو غافل.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

هل يعلم الأولياء الغيب؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال علينا أن نعرف أن العلم علمان:

١- علم تفرّد الله تعالى به.

٢- وعلم أعلمه لأنبيائه ورسله وأوليائه وملائكته.

إذا علمنا هذا عرفنا أن الأنبياء ومن على قدمهم لا يطلق عليهم أنهم يعلمون الغيب؛ إذ لا صفة لهم يقتدرون بها على الاستقلال بعلم الغيب، **هذا أولًا**.

وثانيًا: هم ما عَلِمُوا وإنما عُلّموا، وما علموا غيبًا مطلقًا، ولكن علموا غيبًا شاركهم فيه الملائكة الكرام.

وثالثًا: على الأخ المعترض على الصوفية والأولياء أن يعلم أن إعلام الله تعالى للأنبياء والأولياء ببعض الغيوب أمر ممكن لا يستلزم محالًا بوجه، فإنكار وقوعه عناد، ومن البداهة أنه لا يؤدي إلى مشاركتهم له تعالى فيما تفرّد به من العلم الذي تمدّح به واتصف جلَّ جلاله، وهذا هو بالضبط معنى الآية القرآنية على موجات

سورة النحل (٥٦): ﴿**قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ**﴾ [النمل: ٦٥].

أتعرفون ماذا قال الإمام النووي رضي الله عنه في فتاويه في تفسير هذه الآية؟ قال: "معناها: لا يعلم ذلك استقلالًا وعلمَ إحاطةٍ بكلّ المعلومات إلا الله، **وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله لهم عُلمت**". هل لاحظتم مدى عظمة هذا الكلام؟!

ولذلك يقول الإمام النبهاني في كتابه العظيم «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق»[1]

"أما علم الغيب فهو مختصّ بالله تعالى بالأصالة، وقد يُطلعُ جل جلاله على غيبه من يشاء من عباده؛ كما قال: ﴿**عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا**﴾ [الجن: ٢٦].

وهذا الإمام القرطبي رضي الله عنه يقول: معنى هذه الآية: ﴿**فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ**﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فإنه يظهره على ما يشاء من غيبه؛ لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات، ومنها الإخبار عن بعض المغيبات؛ كما ورد في التنزيل: ﴿**وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ**﴾ [آل عمران: ٤٩].

---

(١) «شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق» (ص ٢٧٩).

ثم يبين لنا الإمام ابن حجر الهيتمي في «فتاويه»[1]: أن علم هؤلاء القوم -يعني الصوفية- لا يحصل بمحبة الدنيا، ولا ينكشف إلا بمجانبة الهوى، ولا يُدَرَّس إلا في مدرسة التقوى، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

---

(١) «فتاوى ابن حجر» (ص٣١٠).

الدرس الثامن والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

موقف أهل السنة والجماعة من التصوف

وأقوال أكابر علمائهم

عدت إليكم في الحديث عن عظمة علم التصوف ومدى أهميته للعالم الإسلامي اليوم في الحملة الشرسة التي يعانيها المسلمون من أدعياء الإسلام والإسلام منهم بريء[1].

---

(١) الصَّحوة الصُّوفيَّة اليوم آخذة بالتَّمدد والانتشار، وهدف مريديها العودة بالإسلام إلى صورته الأولى، ففي ظلِّ هذا التَّشدد يبحث الكثير من النَّاس عن ملجأ يقيهم طوفان العنف هذا، ويعيدهم إلى أسس دينهم الَّذي قام على الألفة والتَّسامح والمحبة، وخصوصًا في شمال إفريقية التي تمتد من مصر إلى السنغال وموريتانية والنيجر ومالي، وحتى في السَّعودية وبلاد الشام، فالصُّوفيَّة أصبحت هي الحل اليوم..

وأنا أذكّركم بأقوال أئمة الدين المعتدِّ بهم في فضل هذا العلم لسدِّ أفواه المعترضين على التصوف.

فقد تواترت أقوال العلماء في قبول هذه الطائفة وحالهم الحَسَن مع الله تعالى.. ومن هؤلاء اتفاقًا دون ترتيب:

■**الإمام النووي** (توفي سنة ٦٧٦ هـ): صاحب «رياض الصالحين» و«شرح صحيح مسلم» وكتب الفقه العظيمة، قال رحمه الله تعالى في رسالته: "مقاصد الإمام النووي في التوحيد والعبادة وأصول التصوف[١]":

(أصول طريق التصوف خمسة:

١-تقوى الله في السر والعلانية[٢].

---

(١) نقلها عنه سيِّدنا أبو العباس أحمد بن أحمد زَرُّوق الفاسي الشَّاذلي لَمَّا أراد أن يتكلَّم على التَّصوف، بينه وبين الإمام الشَّاذلي سبعة رجال فقط، وهو من علماء القرن التَّاسع (ت٨٩٩هـ)، وله كتب كثيرة منها: «قواعد التصوف» كتبه مرتان، وثمانية عشر شرحًا للحكم العطائيَّة ،.

(٢) التَّقوى أمر مهم جدًّا ، وكذا الاتحاد بين الظاهر والباطن، سيِّدنا عمر ابن الوردي له قصيدة مطلعها: (اعتزل ذكر الأغاني والغزل) يقول فيها:

٢-اتباع السُّنَّة في الأقوال والأفعال[١].

٣-الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار[٢].

٤-الرضا عن الله في القليل والكثير، فلا يكره ما يجري به قضاؤه[٣].

واتَّقِ الله فتقوى الله ما جاورت قلب امرئ إلاَّ وصل

ليس من يقطع طُرْقًا بطلًا إنَّما من يتَّقي الله البطل

(١) الاقتداء والتَّأسي بالنَّبيِّ في الاعتقادات والأقوال والأفعال والتُّروك، بأن تعمل مثل عمله على الوجه الذي عمله من إيجاب أو ندب أو إباحة، فتعتقد اعتقاد النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتمتثل أمره كما قال: «**صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي**»، و«**خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ**»، وتفعل مثل فعله؛ لأنَّه لا تأسي مع اختلاف صورة الفعل، وتترك ما تركه: «**وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوه**».

(٢) لأنَّ تعريف التَّصوُّف: تجريد القلب لله تعالى، واحتقار ما سواه (كما ذكره السُّيوطي)، وأهل الشَّام يقولون: لا تتدخل فيما لا يعنيك، من تدخل فيما لا يعنيه؛ لقي ما لا يرضيه.

(٣) أحيانًا تكون أعمال القلوب أعظم من أعمال الجوارح؛ مثل: (محبَّة الله، والتَّوكل عليه، والإنابة إليه، والرجاء منه، وإخلاص الدِّين، والخشية والإخبات له سبحانه) وأعمال العبودية لله تنقسم قسمين: على القلب والجوارح، فعلى كلٍّ منهما عبوديَّة تخصُّه؛ منها ما هو واجب أو حرام، ومنها ما هو مستحب أو مكروه.

٥-الرجوع إلى الله في السرَّاء والضرَّاء)[1].

اشكر الله، واشكُ لله، وافرح بالله، واحزن لله؛ تكن مؤمنًا، وتعِش بسلام، وإلاَّ فهذه المصائب التي تحدث في بلادنا تذهب العقول، وتمرض القلوب، يظنُّون أنَّ الله قد تخلَّى عنهم، نَعَم؛ النصر قد يتأخر لحكمةٍ من الله، ولكنه لا يتخلف عن المؤمنين أبدًا، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧].

■**ومنهم سيدنا الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى (توفي سنة ٥٠٥ هـ):**

أمَّا أعمال القلوب؛ فكلُّها واجبة على العبد، والرِّضا أحد تلك الأعمال القلبيَّة، فالرِّضا: هو طيب النَّفْس بما يصيب العبد، وعند أهل التَّصوُّف: الرِّضا: سرور القلب بمُرِّ القضاء، والرِّضا: أن تفعل ما أُمِرت به، وتترك ما نهاك عنه: ﴿**وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ [التوبة: ٦٢]، وهذا الرِّضا واجب، وأيضًا الرِّضا بالمصائب كالفقر والمرض والذُّلِّ، والواجب فيه الصَّبر، وفي الحديث: «**إن استطعت أن تعمل بالرِّضا مع اليقين؛ فافعل، فإن لم تستطع؛ فإنَّ في الصَّبر على ما تكره خيرًا كثيرًا**» أخرجه الإمام أحمد، وحديث: «**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمَّد رسولًا**» رواه مسلم.

(١) إزالة الوحشة بالأنس بالله، وإزالة الحزن بالسرور بمعرفة الله تعالى.

يتحدث في كتابه "المنقذ من الضلال" عن الصوفية وعن سلوكهم وطريقتهم الموصلة إلى الله تعالى، فيقول: (ولقد علمتُ يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسنُ السيرة، وطريقتَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء؛ ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه؛ لم يجدوا إليه سبيلًا؛ فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم؛ مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به).

ثم يقول ردًّا على من أنكر على الصوفية وتهجم عليهم: (وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقةٍ طهارتها- وهي أول شروطها- تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها -الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة- استغراقُ القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟؟).

ويقول أيضًا بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته: (الدخول مع الصوفية فرض عين، لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[1].

■ومنهم سيدنا الإمام فخر الدين الرازي (توفي سنة ٦٠٦ هـ):

---

(١) الإمام الغزالي قضى شطر عمره الأكبر في العِلْم، ثمَّ في آخر عمره لم يجد قلبه، فخلَّى بينه وبين نفسه، ورآه القاضي أبو بكر ابن العربي في البريَّة، وبيده عكازة، وعليه مرقعة، وعلى عاتقه ركوة، وكان قد رآه ببغداد يحضر درسه نحو ٤٠٠ عمامة من أكابرالنَّاس وأفاضلهم، يأخذون عنه العِلْم، فدنا منه وسلَّم عليه، وقال: يا إمام! أليس تدريس العِلْم ببغداد خير من هذا؟!، قال: فنظر إلي شزرًا، ثمَّ قال:

لَّما طلع بدر السَّعادة في فلك الإرادة ... وجنحتْ شمس الوصول في مغار بالأصول

تركتُ هوى ليلى وسُعدى بمعزل ... وعدتُ إلى تصحيح أوَّل منزل

ونادت بيَ الأشواق مهلًا، فهذه ... منازلُ من تهوى رويدك، فانزل

غزلت لهم غزلًا دقيقًا فلم أجد ... لغزليَ نسَّاجًا فكسَّرت مغزلي

الغزالي وجد أنَّه فقد قلبه خلال المعارك الكلاميَّة والجدال مع أهل عصره، فلجأ إلى الصَّمت وإلى تكسير آلات العِلْم والرُّجوع إلى أصل الإسلام؛ وهو عمارة القلب بالله تعالى، وصوَّر الانسحاب القسري من القضايا بصورة تكسير المغزل لَّما تغيرت البلاد ومن عليها.

العلامة الكبير والمفسر الشهير في كتابه «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين»: "الباب الثامن في أحوال الصوفية" يقول:

اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية، وذلك خطأ؛ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن.

وقال أيضًا: (والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون ألا يخلو سرُّهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عزَّ وجلَّ، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين[1].

■ ومنهم **عالم معاصر من أهل المغرب من أسرة متأصلة بالتَّصوُّف هو**: سيدنا أبو الفضل عبد الله الصِّدِّيق الغُمَاري (ت١٩٩٣) فقيه، محدث، حسني النَّسب، له (٥٢) مؤلفًا؛ إذ يقول:

---

(١) هذه شهادة ثلاثة من عمالقة الإسلام، يشهدون لكم أنَّكم على خير، فلا تصدِّقوا الوهَّابيَّة، فهم ممَّن أعمى الله قلوبهم.

إن التصوف كبيرٌ قدرُه، جليلٌ خَطَرُه، عظيمٌ وَقْعُه، عميقٌ نفعه، أنوارُه لامعة، وأثمارُه يانعة، واديه مَريعٌ خَصيب، وناديه يندو لقاصديه من كل خير بنصيب، يزكي النفس من الدنس، ويطهِّر الأنفاس من الأرجاس، ويرقِّي الأرواح إلى مراقي الفلاح، ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن، وهو إلى جانب هذا ركنٌ من أركان الدين، وجزء متمم لمقامات اليقين[1].

خلاصته: تسليم الأمور كلِّها لله، والالتجاءُ في كلِّ الشؤون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمالٍ في واجبٍ ولا مقاربة المحظور، كثرت أقوال العلماء في تعريفه[2]، واختلفت أنظارهم في تحديده وتوصيفه، وذلك دليل على شرف اسمه

---

(١) وهو مقام الإحسان؛ الرُّكن الثَّالث للدِّين.

(٢) وكل تعريف يرجع إلى جانب رئيسي في التَّصوف، حتَّى جمعت التَّعاريف فبلغت ٢٠٠٠ تعريفًا كلها ترجع لصدق التَّوجه إلى الله.

ومسمَّاه، ينبئ عن سمو غايته ومرماه.. وإنما عبَّر كل قائل بحسب مدركه ومشربه[1]، وعلى نحو اختلافهم في التصوف اختلفوا في معنى الصوفي واشتقاقه.

ثم إنَّ التصوف مبني على الكتاب والسنَّة، لا يخرج عنهما قيد أنملة.

والحاصل: أنهم أهل الله وخاصته، الذين تُرتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنَّا بهم.

ومن أوصاف هذه الطائفة: الرأفة[2]، والرحمة[3]، والعفو[1]، والصفح، .....

---

(١) ومن أجمل التَّعاريف تعريف لسيِّدنا أبي الحسن الشَّاذلي: التَّصوف تدريب النَّفْس على العبوديَّة، وردُّها لأحكام الرُّبوبيَّة؛ يعني: كيفية السُّلوك إلى حضرة مَلِك الملوك.

(٢) أشدُّ من الرَّحمة، تعطف شديد يقتضي الإحسان والمغفرة، فهي مبالغة في الرَّحمة، وهي دفع المكروه، وإزالة الضَّرر؛ كقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ**﴾ [النور: ٢].

(٣) الرَّحمة: الإفضال والإنعام، وسمَّى الله تعالى المطر رحمة: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ**﴾ [الأعراف: ٥٧]، ويكفي من فضلها أنَّ الله وصف بها نفسه بقوله: ﴿**وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ**﴾ [الكهف: ٥٨] والرَّحمة مشاركة النَّاس آلامهم وعواطفهم كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم:

وعدم المؤاخذة[٢].

«**إِنَّما أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ**»، وقال للأقرع بن حابس التَّميمي: «**أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَن نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِن قَلبِكَ؟!**»، وقال: «**مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ**»، ومرَّة أضجع رَجل شاة وهو يحدُّ شفرته، فقال له النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أتريد أن تذبحها ذبحتين؟! هَلاَّ حَدَدْتَ شَفْرَتك قبل أن تُضْجِعَها**»، وفي أخرى: وجدت امرأة طفلًا يبكي في السَّبي، فأخذته، وراحت ترضعه، فقال سيِّدنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «**أَتَرَوْنَ هذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟!، قلْنَا: لاَ، فَقَالَ: «للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِهَا**» كما في «الصحيحين».

(١) العفو: التَّجاوز عن الذَّنب وترك العقاب عليه، والعفوُّ أبلغ من الغفور؛ لأنَّ الغفران ينبئ عن السَّتر، والعفو ينبئ عن المحو، والمحو أبلغ من السَّتر، اللهم إنَّك عفو تحب العفو فاعف عنا، فالمطلوب منك أن تعفو عن زلاَّت الآخرين وهفواتهم؛ لأنَّها من الصِّفات الإلهية، وعكسها -أي: الانتقام- من الصِّفات الحيوانيَّة؛ لذا كلُّ الأنبياء والأولياء يتَّصفون بالعفو...﴿**وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ**﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿**فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ**﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿**وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ**﴾ [النحل: ١٢٦]، لكنَّ هذا في غير ما وصل إلى الحاكم، فليس له العفو، بل يقيم الحدود؛ لأنَّ العفو عن المجرمين سبب لتجرئهم على الشَّريعة؛ لذا عدم التَّساهل مع المجرم هو الإسلام.

(٢) الصَّفح من أخلاق العظماء، وهو ترك المؤاخذة: ﴿**فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ**﴾ [الحجر: ٨٥]، الذي لا عتاب معه، والصفح أبلغ من العفو: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [البقرة: ١٠٩]،

ويظهر تاريخ التصوف في فتوى للإمام الحافظ السيد محمد صديق الغُماري رحمه الله[1] (١٢٩٥هـ) من بلدة غمارة في المغرب، فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هو بوحيٍ سماوي؟

فأجاب: أما أول من أسس الطريقة فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي؛ إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد

﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣] ولقد وصفت السَّيدة عائشة النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لا يجزي بالسَّيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح... وتذكَّروا قوله صلَّى الله عليه وسلَّم لقريش يوم فتح مكة: «**ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «**اذهبوا فأنتم الطلاقاء**»، فلا تظنوا أن العفو والتجاوز ذلة وضعف، بل هو قمة الشَّجاعة، وفيه غلبة الهوى لا سيما إذا كان العفو عند المقدرة، سيدنا الحسن بن علي يقول: لو أن رجلًا شتمني في أذني هذه واعتذر في أذني الأخرى؛ لقبلت عذره.

(١) منشئ الطَّريقة الصِّديقيَّة الشَّاذليَّة، ولده المحدِّث عبد الله الغماري محدِّث الدِّيار المغربيَّة، سمَّاه والده محمَّدًا المنصور، فكان لهذه التسمية أثر في حياته، فقد عاش منصورًا على مناوئيه، من شيوخه السَّيد محمَّد بن جعفر الكتَّاني في فاس، نشر الطَّريقة في طنجة، ودرَّس عددًا من العلوم، كانت دروسه روضة من رياض العِلْم، حتَّى قيل: كان أعلم أهل وقته، يفتي على المذاهب الأربعة، وجهر بالبسملة، ووضع يديه على صدره في الصَّلاة، وهو من أواخر الشُّيوخ المربِّين.

أركان الدين الثلاثة، التي جعلها النبي صلى الله عليه وسلم بعدما بيَّنها واحدًا واحدًا دينًا بقوله: «**فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم**»، وهوالإسلام والإيمان والإحسان.

فالإسلام طاعة وعبادة، انقياد بالجوارح.

والإيمان نور وعقيدة، قلبي.

والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة، أن تراقب الله في تصرُّفاتك، وأن تشاهده عند كلِّ نعمة أنعمها عليك:

وما شربت لذيذ الماء من ظمأ إلاَّ وجدت خيالًا منك في الكأس

أي: علمت أنَّ هذه النِّعمة منك، وهذا معنى قولك بعد الطَّعام والشَّراب: الحمد لله الذي أطعمني وأشبعني وسقاني فأرواني بلا حول منِّي ولا قوَّة... وعند ارتدائك للثَّوب: الحمد لله الذي كساني هذا الثَّوب ورزقنيه بلا حول منِّي ولا قوَّة... وعند نظرك في المرآة: الحمد لله الذي حسَّن خَلقي وخُلقي، وزان مني ما شان من غيري... وعند ركوبك: سبحان الذي سخَّر لنا هذا...

ينبغي عليك أن تحمد الله عند كلِّ نعمة، وتعترف له سبحانه بها... تشاهد مبتلى فتقول: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاه به... ومن هنا مشروعيَّة سجدة الشُّكر، وإذا نعمة هجمت عليك لم تكن تتوقعها؛ فتسجد لله شكرًا تعترف أنَّها من الله (مشاهدة).

وأول من تسمى بالصوفي في أهل السنة أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة ١٥٠هجرية وكان من النساك، ويجيد الكلام، وينطق الشعر، كما وصفه الحفاظ.

■ومنهم **الإمام العز بن عبد السلام** (توفي سنة ٦٦٠ هـ)[١]، الملقب بسلطان العلماء، أخذ التصوف عن سيدنا شهاب الدين عمر السهروردي، وسلك على يد الإمام العَلَم سيدنا الشيخ أبي الحسن الشاذلي:

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله تعالى: (قعد القوم من الصوفية على قواعد الشريعة التي لا تنهدم دنيا وأخرى[٢]، وقعد غيرهم على الرسوم[١]، مما يدلك

---

(١) واسمه عبد العزيز بن عبد السَّلام السُّلمي، ولد سنة ٥٧٧هـ في القاهرة، مفتي الشَّام، قاضي القضاة في مصر، فقيه، ومفسِّر، ومحدِّث، لقبه سلطان العلماء، وبائع الملوك، وشيخ الإسلام، شخصيَّة بلغت رتبة الاجتهاد، وانتهت إليه رئاسة المذهب الشَّافعي، حرَّض النَّاس على قتال التَّتار والصَّليبيِّين، وشارك في الجهاد بنفْسه.

(٢) أي: عملوا بالشَّريعة ونفَّذوها، الصُّوفي: رَجل عمل بعلمه، فأورثه الله عِلْم ما لم يعلم.

على ذلك ما يقع على يد القوم من الكرامات وخوارق العادات، فإنه فرع عن قربان الحق لهم، ورضاه عنهم، ولو كان العلم من غير عملٍ يُرضي الحق تعالى كلَّ الرضا؛ لأجرى الكرامات على أيدي أصحابهم ولو لم يعملوا بعلمهم، هيهات هيهات!!)[٢].

المصدر: "نور التحقيق" للشيخ حامد صقر.

■ومنهم العلامة **الشيخ محمد أمين الكردي** (١٩٠٧-١٩٨٦م)[٣] أصله من إربل في العراق[٤]، ووالده اسمه أيضًا الشَّيخ أمين الكردي، يقول:

ينبغي لكل شارع في كل فن أن يتصوره قبل الشروع فيه[١]؛ ليكون على بصيرة فيه، ولا يحصل التصور إلا بمعرفة **المبادئ العشرة**[٢] المذكورة[٣].

---

(١) الألفاظ دون الغوص في معانيها.

(٢) المصدر: "نور التحقيق" للشيخ حامد صقر.

(٣) الولي، الشَّافعي، الحسني، النقشبندي من علماء القرن الخامس عشر الهجري بمصر، إمام فقيه صوفي كبير من تلاميذ الأزهر، وكان من حبِّه لشيخه العزامي إذا اشترى نسخة من كتاب؛ يشتري نسختين له ولشيخه، اشتهر بالفقه والعقائد والتَّصوُّف، وكان شديد التَّمسك بالسُّنَّة.

(٤) كتابه «تنوير القلوب في معاملة علاَّم الغيوب»، مثل الإمام الغزالي له «مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب»، وربما هو ليس له؛ لأنَّ فيه ترجمة لرَجل ولد بعد وفاة الغزالي.

١- **فحدّ التصوف**: هو علم يُعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى الله تعالى، والفرار إليه..

٢- **وموضوعه**: أفعال القلب والحواس من حيث التزكية والتصفية[٤].

٣- **وثمرته**: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب، ذوقًا ووجدانًا، والنجاة في الآخرة، والفوز برضا الله تعالى، ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالًا عجيبة، ويُعاينُ ما عميت عنه بصيرة غيره.

---

(١) الحكم على الشيء فرع عن تصوره...

(٢) كلُّ عِلْم له عشرة مبادئ تعرف به، أخذًا من قول بعضهم:

إنَّ مَبَادِي كُلِّ عِلْمٍ عَشَرَة الحَدُّ وَالمَوْضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَة
وَالِاسْمُ الاسْتِمْدَادُ حُكْمِ الشَّارِع وفضْله ونسبةٌ والواضع

(٣) تعالوا نأخذ عنه درسًا بالتَّصوُّف.

(٤) سيِّدنا أبو سعيد الخدري يقول: كان رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم يفرغنا ويملؤنا... يفرغنا من رذائل الجاهلية ويملؤنا بأخلاق الإسلام.

٤- **وفضله**: أنه أشرف العلوم؛ لتعلقه بمعرفة الله تعالى وحبه، وهي أفضل على الإطلاق، ولأنَّ الله وصف نبيَّه بأعظم شيء؛ وهو الأخلاق: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم: ٤].

٥- **ونسبته إلى غيره من العلوم**: أنه أصل لها[١]، وشرط فيها؛ إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى الله، فنسبته لها كالروح للجسد.

٦- **وواضعه**: الله تبارك تعالى، أوحاه إلى رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله[٢]؛ فإنه روح الشرائع والأديان المنزلة كلها.

---

(١) يتفرَّع عن المراقبة والمشاهدة الإخلاص في العمل، والإخلاص سر من أسرار التَّصوُّف.

(٢) ﴿**وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ**﴾ [الإسراء: ٣٤]، ﴿**وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا**﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿**وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا**﴾ [الإسراء: ٢٦]، ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٢]، ﴿**وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا**﴾ [الحجرات: ١٢]، ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، ﴿**لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ**﴾ [الحجرات: ١١]، ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

٧- **واسمه**: علم التصوف، مأخوذ من الصفاء، والصوفي: مَن صفا قلبُه من الكدر، وامتلأ من العِبَر، واستوى عنده الذهبُ والمَدَر[1].

٨- **واستمداده**: من الكتاب والسنة والآثار الثابتة عن خواص الأمّة.

٩- **وحكم الشارع فيه**: الوجوب العيني؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض قلبي إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) الذي حيَّر الوهَّابية أنَّ لفظة التَّصوف لم تكن في عهد النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم... طيب أريد أن أسأل: مصطلح عِلْم العقيدة هل كان زمنه؟ مصطلح عِلْم الأصول هل كان زمنه؟ مصطلح عِلْم التَّجويد هل كان زمنه؟ علم الجرح والتَّعديل، عِلْم المصطلح؟، لا يكفي أن تقول: إنَّ التَّصوف لم يكن زمنه صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى تنقد المسمَّى من أين جاء؟ من أهل الصُّفَّة، أم من المصافاة، أم من لبس الصُّوف؟ لا غبار على الاسم، ولا غبار على المسمَّى.

مسمى التَّصوُّف ثابت من عهد النَّبي صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما الاسم هو الحادث، ألم يكن الصَّحابة على أخلاق عالية، وتزكية، وتربية على الخير؟ نعم؛ حدث الاسم بعد مئة عام كما حدثت مصطلحات العلوم: عِلْم القراءات، عِلْم الفرائض...

التَّصوف له عدَّة مرادفات؛ مرادفه الأخلاق، أو التَّربية، أو السير إلى الله، أو السُّلوك...، والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**»، إذن مسمى التَّصوف كان في عهد النُّبوَّة.

١٠- **ومسائله**: قضاياه الباحثة عن صفات القلوب، ويتبع ذلك شرح الكلمات التي تُتَداول بين القوم (كالزهد والورع والمحبة والفناء والبقاء).

■ومنهم **العلامة الشريف الجرجاني** علي بن محمَّد بن علي الشَّريف الحسني (٧٤٠-٨١٦هـ)، (١٣٣٩-١٤١٣م) في (التعريفات)[١]:

التصوف مذهب كله جد، فلا يخلطونه بشيء من الهزل، وهو تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد صفات البشرية، ومجانبة الدعاوى النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بعلوم الحقيقة، واستعمال ما هو أولى على السرمدية[٢]، والنصح لجميع الأمة[٣]، .....

---

(١) معجم يتضمَّن تحديد معاني المصطلحات المستخدمة في العلوم، والفلسفة، والمنطق، واللُّغة، والفنون، والفقه في عصره، وهو من أوائل المعاجم التي لها ترتيب هجائي، أشاد به المستشرقون كافة، والجرجاني فلكي، عالم حياة، فقيه، فيلسوف، لغوي.

(٢) دوام الزَّمان من ليل أو نهار يعني: الدَّائم: ﴿**أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا**﴾ [القصص: ٧٢] دائمًا في حياتك قدَّم الأَولى على غيره.

(٣) عليك أن تقول كلمة الحقِّ سمعت أو لم تسمع: هذا حلال وهذا حرام... أو ألاَّ تسكت عن الخطأ وخصوصًا إذا لم يكن أحد غيرك أمام المخطئ؛ فيصبح الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبًا عينيًّا عليك.

والوفاء لله تعالى على الحقيقة[1]، واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشريعة.

---

(١) الوفاء والولاء لله تعالى أن تحبَّ ما يحبُّه الله، وتكره ما يكرهه، ومن خصائص المجتمع المسلم أنَّه مجتمع يقوم على العقيدة: ﴿**لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ**﴾ [المجادلة: ٢٢] فلا تخضع لكافر، ولا يكن ولاؤك إلاَّ لله ولرسوله وللمؤمنين، يجب أن توالي المسلم وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك.

اللِّص المسلم الذي يسرق تقطع يده لكنه يبقى أخانا، والمسلم شارب الخمر الذي يشرب الخمر يجلد لكنه يبقى أخانا، فيجتمع في الشَّخص الواحد موجبات الإكرام والإهانة...تحبُّه من وجه، وتبغضه من وجه، هو مسلم خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

هناك صحابي يدعى عبد الله بن حمار كان يشرب الخمر، فأُتي به إلى رسول الله، فلعنه رَجل وقال: ما أكثر ما يؤتى به! فقال سيِّدنا النَّبي صلى الله عليه وسلم: «**لا تلعنه فإنَّه يحب الله ورسوله**»، مع أنَّه «**لعن الله شارب الخمر وبائعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه**»، هذا وفاء لله... من كان مؤمنًا؛ وجبت موالاته من أيِّ صنف كان، ومن كان كافرًا؛ وجبت معاداته من أيِّ صنف كان: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، فجعلهم إخوة مع الاقتتال والبغي... الولاء القلبي لأهل الإيمان هو من الوفاء لله تعالى.

■ومنهم **الإمام الشاطبي**:

إبراهيم بن موسى الغرناطي، من علماء الأندلس، أصولي مفسر فقيه محدث لغوي ت سنة ٧٩٠ هجرية:

وصف الإمام الشاطبي الصوفية في كتابه «الاعتصام»[١] بأوصاف حميدة، فقال:

"الصوفية الذين نسبت إليهم الطريقة مجمعون على تعظيم الشريعة، مقيمون على متابعة السنة، غير مخلين بشيء من آدابها، أبعدُ الناس عن البدع وأهلها؛ ولذلك لا نجد منهم من ينسب إلى فرقة من الفرق الضالة، ولا من يميل إلى خلاف السنة.

وأكثر من ذكر منهم علماء وفقهاء ومحدثون، وممن يؤخذ عنه الدين أصولًا وفروعًا[٢]، ومن لم يكن كذلك؛ فلا بد من أن يكون فقيهًا في دينه بمقدار كفايته".

---

(١) «الاعتصام في أهل البدع والضلالات» يعدُّ هذا الكتاب أحسن ما أُلِّف في التَّحذير من البدع وبيان أحكامها، فلا نكاد نجد كتابًا تناول البدعة وأحكامها كما تناول هذا الكتاب، تميز بدقَّة تعريف البدعة، وسعة جمعه للأدلَّة في الحثِّ على السُّنَّة، والنَّهي عن البدعة، وحسن ترتيب المؤلف لموضوعات الكتاب، وتقسيمه على أبواب وفصول، وسعة البحث وطول النَّفَس في تحرير المسائل، وقوة المؤلف العِلْمية وعلومه...

(٢) من الذي يعترض على مثل سيِّدنا سعيد بن المسيَّب، والحسن البصري، وعمر بن عبد العزيز، وسيِّدنا مالك، والأوزاعي، وإبراهيم بن أدهم، وسفيان الثَّوري، والفضيل بن عياض، ومعروف

■ ومنهم **الدكتور أبو الوفا التفتازاني (١٩٣٠-١٩٩٤م)**[١]:

في كتابه (مدخل إلى التصوف الإسلامي) إذ يقول:

ليس التصوف هروبًا من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة[٢]، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

الكرخي، والإمام الشَّافعي، وابن حنبل، وبشر الحافي، وابن المبارك، ومن لا يحصى كثرة ؟؟!! ومن المتأخرين مثل الإمام الجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي طالب المكِّي، وأبي مدين الغوث، وسيِّدنا عدي بن مسافر، والشَّيخ رسلان، والشَّيخ عبد الله اليونيني، ومن كان أمثالهم في الحجاز، والشَّام، والعراق، ومصر، والمغرب، وغيرهم.

(١) فيلسوف مصري، وشيخ مشايخ الطُّرق الصُّوفية في مصر في الفترة من (١٩٨٣-١٩٩٤)، جمع بين التَّصوُّف عِلْمًا وطريقًا، له عدَّة مؤلفات بلغت ١١ مؤلفًا، كان عميد كلية التَّربية في جامعة القاهرة (١٩٧٨)، ونائب رئيس جامعة القاهرة، نال أوسِمةً عدَّة.

(٢) الصُّوفي يسعى إلى الإعلاء من شأن القيم الرُّوحية والإنسانية جاعلًا المادة وسيلة يجب تجاوزها دون الوقوف عندها، يأخذ منها كفايته، ولا يخضع لعبودية حبِّ المال والجاه، وبهذا يتحرَّر تمامًا من شهواته وأهوائه.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام، فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار؛ ليصحح أخطاءها ويملأها بالفضائل، ويجعل نظرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه فيشقى شقاء لا حد له...، والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تمامًا من شهواته وأهوائه بإرادة حرة[1].

■ ومنهم **المؤرخ ابن خلدون**[2] (توفي سنة ٨٠٨ هـ في مصر):

---

(١) يعني: الصُّوفي ولو كان غنيًّا لا تدخل الدُّنيا قلبه، سيِّدنا الإمام الشَّاذلي هو صفوة الصَّفوة الصُّوفيَّة، كانت له مزارع، وحصاد، ودراس، وثيران، وكان يتاجر، ويلبس الفاخر من الثِّياب، كان من دعائه: اللهم اجعل الدُّنيا في أيدينا ولا تجعلها في قلوبنا، وسيِّدنا الإمام الجيلاني كان يقول: ليس الشَّأن في خشونة ثيابك ومأكولك، الشَّأن في زهد قلبك.

(٢) ولد في تونس (٧٣٢هـ) لأسرة عربية، وهو مؤسس عِلْم الاجتماع، وأنشأ فلسفة التَّاريخ ووضع أسسها، سافر إلى شمال إفريقية، واستقر في القاهرة، كان أستاذ الفقه المالكي في عصره، ثمَّ قاضيًا، ثمَّ انتقل إلى دمشق، ثمَّ عاد إلى القاهرة قاضيًا، ثمَّ سفيرًا للمصالحات الدُّوليَّة، وله عدد قليل من المؤلفات، وترجم لنفْسه ورحلاته.

قال رحمه الله تعالى في كلامه عن علم التصوف: (هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة[1]، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة. وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا؛ اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية[2])[3].

■ ومنهم **الشيخ محمد أبو زهرة**: (١٨٩٨-١٩٧٤م) محمَّد بن أحمد بن مصطفى[4] إذ يقول: نحن في عصرنا هذا أشدُّ الناس حاجةً إلى متصوف بنظام التصوف

---

(١) شأن كلِّ العلوم: عِلم الفرائض، وعِلم الأصول، وعِلم التَّجويد....

(٢) فمسمَّى الصوفيَّة كان موجودًا، ولكن لم يكن يُدعى التَّصوف، كما تقدم.

(٣) «مقدمة ابن خلدون».

(٤) عالِم مصري مشارك في عدد من العلوم (فقه-تفسير-سيرة- تراجم) له «زهرة التَّفاسير» إلى سورة النَّمل، و«تاريخ المذاهب الإسلاميَّة»، «المعجزة الكبرى في القرآن»، تأثَّر بالإمام زاهد الكوثري، وترجم لأئمة الإسلام، له ٣٣ مؤلفًا، وختم حياته بكتابه «خاتم النَّبيين»، ومن أهم مواقفه وأقواله:

الحقيقي؛ وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء، وسيطرت على قلبه الشهوات.. وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت خُطَبُ الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتَّاب لا تجدي، ومواعظ الوعَّاظ لا تجدي، وحِكَم العلماء لا تجدي، وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئًا.

إذن لا بد لنا من طريق آخر للإصلاح؛ هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب، وهذا الاستيلاء يكون بطريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل قرية وفي كل حي من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجالٌ يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه[1].

■ومنهم **سيدنا الإمام أبو حنيفة** رضي الله عنه (ت١٥٠هـ)[2]:

أنَّه لا يجوز أن يعتمد على العقل في إثبات حكم شرعي، وأنَّ المعوَّل عليه في إثبات الأحكام الشَّرعيَّة هو النَّصوص النقلية والعقل معين لها.

(١) شهادة خبير بعد عمر طويل في الدَّعوة إلى الله، لولا المربِّي ما عرفت ربِّي.

(٢) جمهور الأئمة وأكابر الملَّة مطبقون على أنَّ التَّصوُّف هو زبدة الدِّين، والغاية القصوى في سنن الموحدين.

نقل الفقيه الحنفي صاحب «الدر المختار»[1]: أنَّ أبا علي الدقاق[2] رحمه الله تعالى قال:

(أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي[3]، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي[4]، وهو من السري السقطي[5]، وهو من معروف الكرخي[6]، وهو من داود الطائي[7]، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة رضي الله عنه، وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله)[1].

---

(١) «الدُّر المختار شرح متن تنوير الأبصار وجامع البحار» للحصكفي محمَّد بن علي المعروف بعلاء الدِّين (ت١٠٨٨هـ)، المتن في الفقه الحنفي فيه مسائل غير معتمدة، ولكنَّ الشَّرح قوَّاه، ثم جاء ابن عابدين ووضع عليه حاشيته.

(٢) النَّيسابوري (ت٤٠٦هـ)، كان لسان عصره في التَّصوف وعلوم الشَّريعة، شيخ الإمام القشيري.

(٣) إبراهيم بن حمويه.

(٤) الشَّيخ، الزَّاهد، أبو بكر الشِّبلي (٢٤٧-٣٣٤هـ)، تاج الصُّوفية.

(٥) (ت٢٥٣هـ)، أحد كبار مشايخ التَّصوف، ترجمته في هذا الكتاب.

(٦) (ت٢٠٠هـ)، الدُّعاء عند قبره مستجاب، ورده اليومي (وا غوثاه يا ألله) عشرة آلاف مرة.

(٧) ولد بعد المئة هجرية، من كبار أئمة الفقه والرَّأي، (ت١٦٥هـ).

ثم قال صاحب «الدر» معلقًا: (فيا عجبًا لك يا أخي! ألم يكن لك أسوة حسنة في هؤلاء السادات الكبار؟ أكانوا متهمين في هذا الإقرار والافتخار، وهم أئمة هذه الطريقة وأرباب الشريعة والطريقة؟ ومن بعدهم في هذا الأمر فلهم تبع، وكل من خالف ما اعتمدوه مردود مبتدع).

ولعلك تعجب عندما تسمع أن الإمام الكبير أبا حنيفة النعمان رحمه الله تعالى يعطي الطريقة لأمثال هؤلاء الأكابر من الأولياء والصالحين من الصوفية.

يقول سيدنا ابن عابدين رحمه الله تعالى في «حاشيته»[٢] متحدثًا عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، تعليقا على كلام صاحب «الدر» الآنف الذكر: (هو فارس هذا

---

(١) «سلسلة التَّصوف» ترجع إلى الإمام أبو حنيفة، وقد سئل عما يفعله الصوفية في الحضرة وما يتظاهرون به أهم صادقون في ذلك؟ فأجاب: إن لله رِجالًا يدخلون الجنَّة بدفوفهم، وما قال هذا إلا سدًّا لذريعة الاعتراض على التَّصوف.

(٢) «ردُّ المحتار على الدُّر المختار» لمحمَّد أمين عابدين، إمام الحنفية في الشَّام (١٧٤٨-١٨٣٦م)، وخاتمة المحقِّقين في الفقه الحنفي، يصل نسبه للإمام الحسين بن علي، ولد بحي القنوات، حفظ القرآن والقراءات، وكان شافعيًّا، ثم ألزمه شيخه شاكر العقاد بالتَّحول إلى المذهب الحنفي ليقرأ عليه المعقولات، وأخذ الطَّريقة القادريَّة والتَّصوُّف عن شيخه ابن نُجيم، ونال الإجازات من شيوخه، وقرأ الفقه الحنفي على شيخه العقَّاد مع الشَّيخ سعيد الحلبي، وتوفي شيخه العقَّاد فأتمَّ

الميدان، فإن مبنى علم الحقيقة على العلم والعمل وتصفية النفس، وقد وصفه بذلك عامة السلف، فقال أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى في حقه: إنه كان من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحد، ولقد ضُرِبَ بالسياط لِيَلِيَ القضاء، فلم يفعل.

وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: ليس أحد أحق من أن يقتدى به من أبي حنيفة؛ لأنه كان إمامًا تقيًّا نقيًّا ورعًا عالمًا فقيهًا، كشف العلم كشفًا لم يكشفه أحد، ببصر وفهم وفطنة وتقى.

وقال الثوري لمن قال له: جئت من عند أبي حنيفة: لقد جئت من عند أعبد أهل الأرض) قال فيه الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة.

■ومنهم **سيدنا الإمام مالك** رضي الله عنه (ت ١٧٩ هـ):

قراءة السُّور على شيخه سعيد الحلبي أكبر طلاب الحلقة، وكان في حياة الحلبي قد شرح «الدر المختار»، ثمَّ اتصل ابن عابدين بالشَّيخ خالد النَّقشبندي، فلقَّنه الطَّريقة وأجازه، وتولَّى أمانة الفتوى، له سبعة مؤلفات، ومجموعة رسائل ومخطوطات.

يقول رحمه الله تعالى: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمع بينهما فقد تحقق[1])[2].

■ومنهم **مولانا الإمام الشافعي** رضي الله عنه (ت ٢٠٤ هـ):

قال رحمه الله تعالى: (صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين -وفي رواية: سوى ثلاث كلمات- قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك. وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. وقولهم: العدم عصمة)[3].

وقال الإمام الشافعي أيضًا: (حُبِّب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف)[4].

---

(١) هذه الصَّراحة من الإمام كافية في أن إعظامه لمذهب التَّصوُّف من دون الفقه باطل، فهو كان جامعًا بين التَّصوف والفقه، ستقولون: لماذا لم يظهر منه التَّصوف كغيره في عصره (كالحارث المحاسبي)؟، أقول: عذره: هو تفرغه وقيامه بما دعت إليه الضَّرورة من لزوم حفظ القواعد الفقهيَّة وضبط النُّقول الشَّرعيَّة.

(٢) حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي، وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي قاري، والتتائي في شرحه على مقدِّمة ابن رشد، الزَّرُّوق في قواعد التَّصوف القاعدة الرَّابعة.

(٣) «تأييد الحقيقة العلية» للإمام جلال الدين السيوطي.

(٤) «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس» للإمام العجلوني.

■ومنهم **سيدنا الإمام أحمد ابن حنبل** رضي الله عنه (ت ٢٤١ هـ)[1]:

كان الإمام رحمه الله تعالى قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله تعالى: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالسة هؤلاء الذين سمَّوا أنفسهم صوفية[2]، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلًا بأحكام دينه).

---

(١) كان الإمام الشافعي والإمام أحمد يتردَّدان على مجالس ذكر الصُّوفيَّة -كما جاء في كتاب «جامع مجالس الصُّوفيَّة»- فقيل لهما: ما لكما تتردَّدان إلى مثل هؤلاء؟، فقالا لهم: إنَّ هؤلاء عندهم رأس الأمر كلِّه؛ وهو تقوى الله ومحبته.

الإمام الشِّعراني يقول: كفى مدحًا إذعانُ الإمام الشَّافعي لشيبان الرَّاعي، وكذا الإمام أحمد، لكنَّها قصة مختلقة غير ثابتة تاريخيًّا، ففي «الوافي بالوفيات» (١٦/ ١١٨) يقول: شيبان الرَّاعي توفي ١٧٠هـ وابن حنبل ولد عام ١٦٤، فهل يعقل أنَّها حدثت وعمر ابن حنبل ست سنوات؟! أحببت ذكر ذلك حتَّى لا تغترُّوا بمن يرويها.

(٢) دخل على أيدي الصُّوفية كثير من النَّاس في الإسلام، وتاب على أيديهم أعداد لا تحصى من العصاة، وخلَّفوا وراءهم ثروة من المعارف والتَّجارب الرُّوحيَّة التي لا ينكرها إلاَّ مكابر أو متعصب عليهم، التَّصوف لا يذم في حدِّ ذاته، بل هو مطلوب لكلِّ مسلم إذا أريد به الاهتمام بالرُّوح اهتمامًا لا يطغى ولا يضر بالجسد، وأقول لكم: علينا أن نزن أعمال التَّصوُّف بميزان الكتاب والسُّنَّة، فما وافقهما قبلناه، وما خالفهما تركناه. التصوف: القيامُ بغايةٍ مِن الإخلاص، وصفاء النِّيَّة، وطهارة القلب، وهو في الحقيقة: حبُّ الله ورسوله الصَّادق، وألاَّ ينحرف المسلم قيد شعرةٍ عن اتِّباع أحكام الله

فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي، وعرف أحوال القوم؛ أصبح يقول لولده: (يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة[1])[2].

ورسوله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال الجيلانيُّ: كلُّ حقيقةٍ لا تشهد لها الشَّريعة فهي زندقة «الفتح الرَّبانيُّ» (ص ١٧٩).

(١) وبالجملة إنَّ إذعان أئمة الاجتهاد لرجال التَّصوُّف كان مشتهرًا في ذلك العصر، وعلى الأخصِّ منهم الإمام الشَّافعي رحمه الله.

الشَّيخ المختار الكنتي في كتابه «جذوة الأنوار» يذكر أنَّ الإمام الشَّافعي كان كثير الالتجاء للأولياء متفانيًا في حبِّهم، وكان يقول: هم أصلي وفصلي، وإليهم يحنُّ قلبي، فرماه بعض المعتزلة بالرَّفض فقال:

قالوا: ترفَّضت غير شكٍ ما لرفض دِيني ولا اعتقادي

لكن توليت غير شك خير إمام وخير هادي

إن كان حبُّ الوليِّ رفضًا فإنَّني أَرْفَضُ العبادي

ومن المعلوم أنَّ أئمة الصُّوفيَّة معظمهم من آل البيت؛ كالإمام الرِّفاعي، والجيلاني، والدُّسوقي، والشَّاذلي، وآل باعلوي في اليمن، وقديمًا الإمام جعفر الصَّادق، والإمام الجنيد.

(٢) «تنوير القلوب» للعلامة الشيخ أمين الكردي.

■ومنهم **العلامة محمد السفاريني الحنبلي** رحمه الله تعالى، من نابلس (١١١٤هـ - ١١٨٨هـ) عاش ٧٤ سنة =٢٦ ستة وعشرين مؤلفًا، حكى عن إبراهيم بن عبد الله القلانسي رحمه الله تعالى: أن الإمام أحمد رحمه الله تعالى قال عن الصوفية: (لا أعلم قومًا أفضل منهم. قيل: إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحوا مع الله ساعة...) الاستماع المباح هو ما ليس معه آلة موسيقية، أو اختلاط، أو تخنُّث في الحركة؛ أي: ضمن الضَّوابط الشَّرعية[1].

■ومنهم **الإمام الشيخ تاج الدين عبد الوهَّاب بن علي السبكي (٧٢٧-٧٧١ هـ)** =٤٤سنة رحمه الله تعالى: أصله من مصر، نسبه إلى سبك الصيد في مصر، انتقل إلى دمشق مع والده صغيرًا، ودرس على والده تقي الدِّين، أفتى وعمره ١٨ سنة، وهو من فقهاء الشَّافعية، وكان قاضي القضاة في دمشق، وتوفي بدمشق شهيدًا بالطاعون، مؤلفاته: من أهمها «طبقات الشَّافعية الكبرى والوسطى والصُّغرى»، و«جمع الجوامع في الأصول» من شيوخه الإمام الذَّهبي.

---

(١) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب».

قال في كتابه "معيد النعم ومبيد النقم" تحت عنوان (الصوفية):

(حيَّاهم الله وبيَّاهم[1]،وجمعنا في الجنة نحن وإياهم. وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعبًا ناشئًا عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها، بحيث قال الشيخ أبو محمد الجويني[2]: لا يصح الوقف عليهم؛ لأنه لا حد لهم[3]. والصحيح صحته، وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة... ثم تحدث عن تعاريف

---

(١) أي: أضحكهم الله وبوأهم منزلًا في الجنَّة.

(٢) إمام الحرمين، (٤١٩-٤٧٨)، أبو المعالي، عبد الملك بن عبد الله، إمام الأئمة، وأعجوبة الزمان، وجوين من قرى نيسابور في خراسان، جاور بمكة والمدينة أربع سنين يدرِّس ويعلِّم ويفتي، فلقِّب بإمام الحرمين، والده محدث فقيه وعمه شيخ الحجاز، له تآليف منها: شرح كتاب «الرِّسالة» للشَّافعي، وهو صوفي له كتاب «السَّلوة في علوم الصُّوفية»، وحين وفاته كسروا منبره ومحابرهم وأقلامهم، وأغلقت الأسواق وأقاموا سَنة كاملة على ذلك، وكان يحضر درسه ٤٠٠ عمامة، والسَّبب في وصوله إلى هذا الحدِّ بالعِلْم أنَّ والده كان لا يطعمه إلاَّ حلال.

(٣) غير معروفين.

التصوف إلى أن قال: والحاصل أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنَّا بهم)[1].

■ومنهم القاضي **شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المصري** (٨٢٣-٩٢٦هـ)، زكريا بن محمَّد بن أحمد بن زكريا، ملك العلماء الأعلام، وسلطان الفقهاء والأصوليين، مجدِّد القرن التَّاسع الهجري، تلميذ ابن حجر العسقلاني، والعزّ بن عبد السَّلام، ويعدُّ شيخ شيوخ القرن العاشر، له أكثر من ١٥٠ شيخًا، كان مضرب المثل بحسن الخُلق، شارك في كلِّ العلوم، لم ترَ عيناك مثله، له كتاب «شرح البهجة» في الفقه الشَّافعي وله رسالة في التَّعريف بمصطلحات الصُّوفيَّة، وشرح البخاري ومسلم، بلغ مئة سَنة وعمِي آخر عمره، ودفن بالقرب من الإمام الشَّافعي.

قال عن التصوف: (هو علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية).

---

(١) ومن منَّا لايطلب الرَّحمة بسيِّدنا الجيلاني، والرِّفاعي، والبدوي، والشَّاذلي، والدُّسوقي، والمنبجي، وسيِّدنا الهاشمي وشيوخه، وسيِّدنا الشَّاغوري، والتُّركماني، واللُّحفي؟! حشرنا الله تحت رايتهم ورضي عنا وعنهم.

■ومنهم الإمام أبو عبد الله **الحارث بن أسد المُحَاسِبي** (توفي سنة ٢٤٣هـ): أحد الأوتاد، وأحد عظماء التَّاريخ في التَّصوُّف، الجامع بين علوم الظَّاهر والباطن، سمِّي بالمحاسبي؛ لأنَّه كان يحاسب نفْسه، وهو شيخ الإمام الجنيد.

قال عنه الذَّهبي: الزَّاهد، العارف، شيخ الصُّوفيَّة[1]، له كتب كثيرة في الزُّهد.

وقال الشَّاطبي: المحاسبي من كبار الصُّوفية المقتدى بهم[2].

وقال القشيري: (الحارث عديم النَّظير في زمانه؛ عِلْمًا وورعًا ومعاملة وحالًا، بصري، مات ببغداد (٢٤٣هـ)، كان له حصًى يعدُّها ويحسبها حالة الذِّكر، ردَّ على الفِرق الضَّالة، كان له كرامة: إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عِرْق، فكان يمتنع منه، من كتبه: «الرِّعاية لحقوق الله» و«رسالة المترشدين في التَّصوُّف والتَّفكر والاعتبار»).

واقتبسنا من كتابه "كتاب الوصايا" -وهو من أمهات الكتب- قوله رحمه الله تعالى متحدِّثًا عن جهاده المرير للوصول إلى الحق حتى اهتدى إلى التصوف ورجاله:

---

(١) «السير» (١٢/ ١١٠).

(٢) «الاعتصام» (٢٨٤).

(... فقيض لي الرؤوف بعباده قومًا وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا[1]، ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى...، فأصبحت راغبًا في مذهبهم، مقتبسًا من فوائدهم، قابلًا لآدابهم، محبًّا لطاعتهم، لا أعدل بهم شيئًا، ولا أوثر عليهم أحدًا[2]، ففتح الله لي علمًا اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن أقرَّ به أو انتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرَّيْن متراكمًا على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجبًا عليَّ، فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلَّبْت فيه بأحوالي، وسألت الله عز وجل أن يوزِعَني شكرَ ما أنعم به

---

(١) يا إخوة! نحن نقرأ هذه الصِّفات لنحاول الاتصاف بها، وليس للمعرفة، وتضييع الوقت، العِلْم يتبعه العمل، الصُّوفي: مسلم عمل بما عَلِم، فأورثه الله عِلْم ما لم يعلم.

(٢) هذا ما يجب علينا الانتباه له، أنتم مع قوم إذا جالستموهم لا تتركوهم لأخطائهم، كلٌّ منَّا يخطئ ويصيب، خذوا عنَّا الصَّحيح، ودعوا لنا غير ذلك، وادعوا لنا بالصلاح، ماذا كافأ الله المحاسبي على التزام الصُّوفية؟.

عليَّ، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرَّفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبدًا).

■ومنهم **الإمام عبد القاهر الجرجاني البغدادي** (توفي٤٧١هـ) في إيران، نحوي متكلم، بل حجة المتكلمين[١]، صاحب «إعجاز القرآن»، من أئمة الشَّافعية.

قال رحمه الله تعالى في كتابه "الفَرْق بين الفِرَق"[٢]: (الفصل الأول من فصول هذا الباب في بيان أصناف أهل السنة والجماعة: اعلموا أسعدكم الله أن أهل السنة والجماعة ثمانية أصناف من الناس[٣]: .... والصنف السادس منهم: الزهاد الصوفية

---

(١) أحد مؤسسي عِلْم البلاغة، له «دلائل الإعجاز» و«أسرار البلاغة»، وهو أحد علماء الكلام في مذهب الأشاعرة، له أكثر من خمسين مؤلفًا، من أهمها: «الفَرْق بين الفِرَق» و«أصول الدِّين».

(٢) يشرح حديث: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**» رواه أبو داود، ورواية ابن ماجه: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاَثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ مَنْ هُمْ؟ قَالَ «**الْجَمَاعَةُ**». (٣٩٨٢)، وقسم الفِرق إلى خمسة أقسام: ١-شيعة، ٢-خوارج، ٣-مرجئة، ٤-قدرية، ٥-معتزلة وما تفرق عنها.

(٣) ١-: الأشاعرة والماتريديَّة، ٢-الفقهاء وأهل الحديث، ٣-أهل اللُّغة، ٤-أهل الثُّغور المجاهدون، ٥-العوام الذين يقلِّدون الأشاعرة والماتريديَّة، ٦-الزُّهاد الصُّوفية، ٧-علماء القراءات والتَّفسير،

الذين أبصروا فأقصروا [أقصروا عن الكلام في الضَّلالة]، واختبروا فاعتبروا [رأوا ضلال غيرهم فابتعدوا عنه]، ورضُوا بالمقدور [لم يعترضوا على القدر]، وقنعوا بالميسور، وعلموا أن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك مسؤول عن الخير والشر، ومحاسب على مثاقيل الذر، فأعدوا خير الإعداد ليوم المعاد، وجرى كلامهم في طريقي العبارة والإشارة على سمت أهل الحديث، دون من يشتري لهو الحديث، لا يعملون الخير رياء، ولا يتركونه حياء، دينهم التوحيد ونفي التشبيه ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى: ١١]، ومذهبهم التفويض [في آيات الصِّفات] إلى الله تعالى، والتوكل عليه والتسليم لأمره، والقناعة بما رزقوا، والإعراض عن الاعتراض عليه، ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الحديد: ٢١][1].

■ومنهم **الإمام أبو القاسم القشيري**، عبد الكريم بن هوازن، (٣٧٦ - ٤٦٥هـ) عاش عامًا ٨٩، وهو من نيسابور، تلميذ عبد القاهر البغدادي إمام الصوفية، فقيه، مفسر، محدِّث، أصولي، أديب، شاعر.

٨-أهل السِّير والسُّنن ومصطلح الحديث، واشترط ألاَّ يكونوا متَّبعين لأهل الأهواء والملل الفاسدة.

(١) هذا الكلام قديم من القرن الخامس، أنتم على خير وصلاح، إيَّاكم أن تبدِّلوا وتغيِّروا.

حضر عند أبي علي الدَّقاق (ت٤٠٦هـ) واشترط عليه ليقبله أن يدرس الشَّريعة، ويتقن من علومها، فدرس الأصول والشَّريعة عند ابن فورك (ت٤٠٦هـ)، ثم إمام وقته أبي إسحاق الإسفراييني (ت٤١٨هـ)، وكان صاحب الإمام الجويني والبيهقي، خلَف أبا علي الدقاق على التَّصوف بعد أن تزوَّج ابنته.

من كتبه «لطائف الإشارات في التفسير الإشاري»، وكتب في التَّصوُّف: «القلوب الكبير»، «ترتيب السلوك» وأهم كتبه «الرسالة القشيرية».

قال رحمه الله تعالى في مقدمة رسالته المشهورة "الرسالة القشيرية" متحدثًا عن حقيقة الصوفية[1]: (جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضَّلهم على الكافَّة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق[2]، والدائرون في عموم

---

(١) وأنَّ عقيدتهم هي عقيدة توحيد الله وتنزيهه عن مشابهة الخَلْق، وبعد أن صنَّف التَّفسير الكبير المسمى «التَّيسير في عِلْم التَّفسير» ألَّف كتابه «لطائف الإشارات في التَّفسير الإشاري».

(٢) حديث: «**الأبدال يسقى بهم الغيث، وينصر بهم على الأعداء، ويصرف عن أهل الشَّام بهم العذاب**»، رواه أحمد، رجاله رجال الصَّحيح.

أحوالهم مع الحق بالحق[1]، صفَّاهم من كدورات البشرية [الأخلاق التي تحملها عظيمة]، ورقَّاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف[2]، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتَّكلوا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال[3]، علمًا بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يَحْكُمُ عليه خَلْق، ولا يتوجَّهُ عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداءُ فضل، وعذابه حُكْمٌ بعدل، وأمره قضاءُ فصل). هذه شهادة إمام عصره فيكم، إيَّاكم أن تنحرفوا، فتزول عنكم هذه الشَّهادة القيِّمة.

---

(١) ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨]، اعرف قدرك من أنت بانتسابك إلى الصُّوفيَّة، هذا كلام إمامهم وشيخهم.

(٢) الصُّوفي لا تسقط عنه الصَّلاة ولو صار أكبر الأولياء، قال الجيلاني: ترك العبادات المفروضة زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال. «الفتح الرَّباني» للجيلاني (ص١٢٩).

(٣) الصُّوفيَّة يخفون كراماتهم كما تُخفي الحرَّة وجهها.

ويقول أيضًا في "الرسالة القشيرية": (اعلموا رحمكم الله أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتسمّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علمٍ سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا أفضلية فوقها، فقد قيل: "الصحابة" ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة "التابعين" ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم: "أتباع التابعين" ثم اختلفت وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدةُ عنايةٍ بأمر الدين: "الزهاد والعباد" ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعَوا بأن منهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنَّة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم "التصوف" [الصُّوفيَّة] واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المئتين للهجرة).

■ومنهم **الإمام سيدنا الإمام جلال الدين السيوطي** (ت٩١١هـ) مجتهد القرن العاشر الهجري، قال: (إنَّ التصوف في نفسه علم شريف، وإن مداره على اتباع السنة وترك البدع، والتبرُّؤ من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها، والتسليمِ لله، والرضا به وبقضائه، وطلبِ محبته، واحتقارِ ما سواه.. وعلمتُ أيضًا أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فتوجَّه أهلُ العلم للتمييز بين

الصنفين ليُعلمَ أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملتُ الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية، فلم أرَ صوفيًا محقِّقًا يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاةُ الذين ادَّعَوْا أنهم صوفية وليسوا منهم).

■ومنهم **الإمام سيدنا ابن عابدين** (ت١٢٥٢) المحرر للمذهب الحنفي، محمَّد أمين بن عمر، شيخه الشَّيخ خالد النقشبندي، كان أمين الفتوى في عصره، وقد تحدَّثَ عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قِبل أشخاص تزيَّوْا بزِي العلم، وانتحلوا اسم الصوفية، ثم استدرك الكلام على الصوفية الصادقين حتى لا يُظن أنه يتكلم عليهم عامة فقال: (ولا كلام لنا مع الصُّدَّقِ من ساداتنا الصوفية، المبرَّئين عن كل خصلة رديَّة، فقد سُئل إمامُ الطائفتين الجنيد: إن أقوامًا يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع الله يفرحون، فإنهم قوم قطَّعت الطريقُ أكبادَهم، ومزَّق النصَبُ فؤادَهم، وضاقوا ذرعًا، فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواةً لحالهم، ولو ذُقْتَ مذاقهم عذرتهم في صياحهم).

* * *

وحتى لا يعترض الوهابية أنقل لهم قول إمامهم الأول **ابن تيمية** غفر الله له، قال عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة: (فأما المستقيمون من السالكين -كجمهور مشايخ السلف؛ مثل: الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين، ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني، والشيخ حماد [شيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني مدفون خلف قبر سيدنا بلال بدمشق] والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين- فهم لا يسوغون للسالك -ولو طار في الهواء أو مشى على الماء- أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم).

هذا وقد كانَ العلماءُ بلْ أكابرُهم إذا استَحسنوا صنعَ عالمٍ أو راوٍ أو حافظٍ للقراءاتِ أو مؤلِّفٍ...أو زاهدٍ يقولون: إنَّه صوفي..

وانظرْ إلى «شرحِ صحيحِ مسلمٍ» تجدْ أنَّ الإمامَ النوويَّ إذا أرادَ أنْ يَمدحَ أحدَ شيوخِ السُّنةِ يلقِّبُه بالصُّوفي.

وكذا ابنُ الجوزي في «صَفْوةِ الصَّفْوةِ» في القرونِ الأولى يقول: الصُّوفي.

وكذا الحافظُ الذهبيُّ في «سيرِ أعلامِ النبلاءِ» عندما يعظِّمُ اسْمَ أحدِ المترجَمين يجعلُ كلمةَ (صوفي) مِدْحَةً له.

وقد ترجمَ الإمامُ ابنُ حَجَرٍ شارحُ «البخاري» ترجمةً للإمام الجيلاني عليه رضوانُ اللهِ، ناهيكَ عنْ أنَّ جميعَ شُرَّاحِ «البُخاري» مِنْ أصحابِ الصِّلةِ بالتصوف.

وأمَّا ابنُ تيميةَ الذي يعتنقُ المعارضونَ للتصوفِ آراءَهُ المخالفةَ للمذاهبِ الأربعةِ؛ فقدْ ألَّفَ كتابًا سمَّاهُ (الصوفيةُ والفُقراءُ) وأفرد مجلَّدَيْن مِنَ «الفتاوى» للحديثِ عنِ الصوفيةِ، وذَكرَ أنَّ لهُ سندًا في الروايةِ عنِ القُطْبِ سيدي عبدِ القادرِ الجَيلاني، وإذا ذكَره يقولُ: (قَدَّسَ اللهُ سرَّه).

وأمَّا تلميذُه وناقلُ أقوالِه والمُنتصرُ لهُ وأمينُه على فِكرهِ ابن قيِّم الجوزيَّة؛ فقدْ ألَّف كتابَ «مدارجِ السَّالكينَ في شرحِ منازلِ السَّائرين.»

وأمَّا أئمةُ القراءاتِ فإنَّ مرجعَهم مع صوفيتهم هو أئمةُ التصوفِ، وكلُّهم يتَّحدونَ عند مولانا الإمامِ شيخِ الإسلامِ سيدنا الشيخِ زكريا الأنصاري شارحِ «الرِّسالةِ القشيريةِ» التي تُعدُّ بحقٍّ دستورَ أئمَّة التصوف.

فلتسْكتِ الألسنُ التي تَطْعنُ على رجالاتِ التصوف؛ لتَنالَ مِنْ رجالاتِ الإسلامِ، ولْتستغفرْ مِنْ ذنبِها، فلَقدْ بدَّعتِ الناسَ وكفَّرتْهم بغيرِ حقٍ، «ومَنْ كفَّرَ مسلِمًا فقد كَفَر» صدَقَ سيِّدنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسَلَّم.

مع كلِّ ما تقدَّم نجد الحاقدين على التَّصوف إذا سمعوا بشيء من أخلاق القوم؛ قالوا: هذا صوفي لا شرعي، فيتوهَّم السَّامع أنَّ التَّصوف أمر خارج عن أصل الشَّريعة، والحال أنَّه لُبُّ الشَّريعة كما سمعتم، وإنَّ من يطالع كتب القوم السَّليمة من الدَّس –مثل: كتاب «الحلية» لأبي نُعيم، و«الرِّسالة القشيريَّة»، وكتاب «التَّعرف لمذهب أهل التَّصوف» للكلاباذي، و«اللُّمع» للطُّوسي، و«الإحياء» للغزالي، و«طبقات الصُّوفيَّة» للسُّلمي، و«الرِّعاية لحقوق الله» للمحاسبي، و«الوصايا» للشَّيخ محيي الدِّين بن عربي وغيرها من كتب الصَّوفيَّة- لا يجد خُلُقًا ممَّا يخالف الشَّريعة أبدًا؛ لكثرة محاسبة الصُّوفية لأنفسهم وأخذهم بالعزائم، فإنَّ حقيقة طريق القوم عِلْم وعمل، سُداها ولُحمتها، شريعة وحقيقة، خذوها عنِّي: لا نصيب لأيِّ صوفي دون التَّمسك بالشَّريعة، من لا يؤتمن على آداب الشَّريعة لا يؤخذ منه شيء...

الشَّريعة أوَّلًا، ثمَّ يتبعها الحقيقة... لا تُخدَعوا باللِّحى والمسابح والجبب والعمائم، انظروه عند الأمر والنهي، انتبهوا من الأدعياء؛ لأنَّهم منحرفون[1] وطريقنا استقامة.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

(١) (فيصل بقلة-إمام جامع كيوان).

الدرس التاسع والعشرون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

وحدة الوجود والحلول والاتحاد

هذا بحث مهم جدًّا يحتاج إلى صفاء الذهن؛ لذا أرجو عدم الانشغال بشيء عند قراءته ولو شربة ماء..

إِن من أهم ما ينتقد به المعارضون للصوفية اتهامهم بأنهم يقولون بالحلول والاتحاد.

(بمعنى: أن الله قد حلَّ في جميع أجزاء الكون؛ في البحار والجبال والصخور والأشجار والإِنسان والحيوان، أو بمعنى: أن المخلوق هو عين الله تعالى) تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا.

ويرى الصوفية أنه لا شك **أن هذا القول كفر صريح** يخالف عقائد الأمة الإسلامية.

فالصوفية ينفون هذه التهمة عن أنفسهم جملةً وتفصيلًا، ويحذرون من أن يرميهم أحد بهذه العقيدة الكفرية جزافًا دون تمحيص أو تثبت، ومن غير أن يفهم مرادهم ويطلع على عقائدهم الحق التي ذكروها صريحة واضحة في أُمهات كتبهم؛

كـ«الفتوحات المكية» للشيخ الأكبر سيدنا محيي الدين بن عربي، و«إِحياء علوم الدين» للإمام أبي حامد الغزالي، و«الرسالة القشيرية» للإمام أبي القاسم القشيري الشافعي، و«المثنوي» لجلال الدين الرومي وغيرها.

ومن أقوالهم في صريح رفضهم لعقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد:

يقول الإمام الشعراني: ولعمري إِذا كان عُبَّاد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله؛ بل قالوا: ما نعبدهم إِلا ليقربونا إِلى الله زلفى؛ فكيف يُظَن بأولياء الله أنهم يدَّعون الاتحاد بالحق على حدٍّ ما تتعقله العقول الضعيفة؟! هذا كالمحال في حقهم؛ إِذ ما مِن وليٍّ إِلا وهو يعلم أن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، وأنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق؛ لأن الله بكل شيء محيط.

وقال **سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي** في «عقيدته الوسطى»: اعلم أن الله واحد بالإِجماع، ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء، أو يحل هو في شيء، أو يتحد في شيء.

وقال في «باب الأسرار»: لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله، ولو بلغ أقصى درجات القرب، وحاشا العارف من هذا القول حاشاه!! إِنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل.

وقال في «باب الأسرار» أيضًا: من قال بالحلول فهو معلول، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد؛ كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول.

وقال عمر اليافي:

جل عن حلول وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

وقال أيضًا في الباب الثاني والتسعين بعد المئتين: من أعظم دليل على نفي الحلول والاتحاد الذي يتوهمه بعضهم: أن تعلم عقلًا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شيء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر محلًّا لها، فكذلك العبد ليس فيه من خالقه شيء ولا حل فيه.

وقال صاحب كتاب «نهج الرشاد في الرد على أهل الوحدة والحلول والاتحاد»: حدثني الشيخ كمال الدين المراغي قال: اجتمعتُ بالشيخ أبي العباس المرسي -تلميذ الشيخ الكبير أبي الحسن الشاذلي- وفاوضْته في هؤلاء الاتحادية، فوجدته شديد الإنكار عليهم والنهي عن طريقهم، وقال: أتكون الصنعة هي عين الصانع؟!.

وقال سيدنا أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ): وأما القسم الرابع -وهو الاتحاد- فذلك أيضًا أظهرُ بطلانًا؛ لأن قول القائل: إن العبد صار هو الرب كلام متناقض في

نفسه، بل ينبغي أن ينزه الرب سبحانه وتعالى عن أن يجري اللسان في حقه بأمثال هذه المحالات... فالاتحاد بين شيئين مطلقًا محال... فأصل الاتحاد إذًا باطل... وأما القسم الخامس -وهو الحلول- فذلك يتصور أن يقال: إن الرب تبارك وتعالى حل في العبد أو العبد حل في الرب، تعالى رب الأرباب عن قول الظالمين!!

فما تأويلهم لأقوال أوهمت وحدة الوجود أو الحلول أو الاتحاد؟؟

أما ما ورد من كلام الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهره الحلول والاتحاد؛ فيقال فيه: إنه **إما مدسوس عليهم**؛ بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة. وإِما أنهم لم يقصدوا به القول بهذه الفكرة الخبيثة والنحلة الدخيلة، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ، ورموهم بالزندقة والكفر، وأما الراسخون في العلم والمدققون المنصفون من العلماء؛ فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وأدركوا تأويله بما يناسب ما عرف عن الصوفية من إِيمان وتقوى.

قال **سيدنا الإمام جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)** في «الحاوي»: واعلم أنه وقع في عبارة بعض المحققين لفظ «الاتحاد»، إِشارة منهم إِلى حقيقة التوحيد، فإِن الاتحاد عندهم هو المبالغة في التوحيد. والتوحيد معرفة الواحد والأحد، فاشتبه ذلك

على من لا يفهم إِشاراتِهم، فحملوه على غير محمله؛ فغلطوا وهلكوا بذلك.. إِلى أن قال: فإِذن أصل الاتحاد باطل محال، مردود شرعًا وعقلًا وعرفًا بإِجماع الأنبياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين، وليس هذا مذهب الصوفية، وإِنما قاله طائفة غلاة؛ لقلة علمهم وسوء حظهم من الله، فشابهوا بهذا القولِ النصارى الذين قالوا في عيسى: اتَّحَد ناسوتُهُ بلاهوتِهِ.

وأما مَنْ حفظه الله تعالى بالعناية؛ فإِنهم لم يعتقدوا اتحادًا ولا حلولًا، وإِن وقع منهم لفظ الاتحاد؛ فإِنما يريدون به محو أنفسهم، وإِثبات الحق سبحانه. وقال: وقد يُذْكَر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة، وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة، وفناء الشك وبقاء اليقين، وفناء الغفلة وبقاء الذكر. وقال: وأما قول أبي يزيد البسطامي: (سبحاني، ما أعظم شأني!) فهو في معرض الحكاية عن الله، وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية، ولا يُظَنُّ بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد؛ لأن ذلك غير مظنون بعاقل، فضلًا عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات.

ولا يُظَنُّ بالعقلاء المتميزين مِن أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلطُ بالحلول والاتحاد؛ كما غلط النصارى في ظنهم

ذلك في حق عيسى. وإنما حدث ذلك في الإسلام من واقعاتِ جهلةِ المتصوفة، وأما العلماء العارفون المحققون فحاشاهم من ذلك!! إلى أن قال: والحاصل أن لفظ «الاتحاد» مشترك، فيطلق على المعنى المذموم الذي هو أخو الحلول، وهو كفر. ويطلق على مقام الفناء اصطلاحًا اصطلح عليه الصوفية، ولا مشاحة في الاصطلاح؛ إذ لا يمنع أحد من استعمال لفظٍ في معنًى صحيح لا محذور فيه شرعًا، ولو كان ذلك ممنوعًا لم يجز لأحد أن يتفوَّه بلفظ «الاتحاد»، وأنت تقول: بيني وبين صاحبي زيدٍ اتحادٌ. وكم استعمل المحدِّثون والفقهاء والنحاة وغيرهم لفظ الاتحاد في معانٍ حديثية وفقهية ونحوية؛ كقول المحدِّثين: اتحد مخرج الحديث.

وقول الفقهاء: اتحد نوع الماشية.

وقول النحاة: اتحد العامل لفظًا أو معنًى.

وحيث وقع لفظ «الاتحاد» من محققي الصوفية؛ فإنما يريدون به معنى الفناء الذي هو محو النفس، وإثبات الأمر كله لله سبحانه، لا ذلك المعنى المذموم الذي يقشعر منه الجلد!!

ونقل الإمام الشعراني عن الشيخ علي بن وفا قوله: المراد بالاتحاد حيث جاء في كلام القوم: فناء العبد في مراد الحق تعالى؛ كما يقال: بين فلان وفلان اتحاد؛ إذا عمل كل منهما بمراد صاحبه.

ولكي نثبت للوهابية ضلال اتهامهم الصوفية أذكر كلام إمامهم الشيخ ابن قيم الجوزية غفر الله له حيث يقول في كتابه «مدارج السالكين شرح منازل السائرين»: الدرجة الثالثة من درجات الفناء: فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين، وهو الفناء عن إِرادة السوى، شائمًا برق الفناءِ عن إِرادة ما سواه، سالكًا سبيل الجمع على ما يحبه ويرضاه، فانيًا بمراد محبوبه منه، عن مراده هو من محبوبه، فضلًا عن إِرادة غيره، قد اتحد مراده بمراد محبوبه؛ أعني: المراد الديني الأمري، لا المراد الكوني القدري، فصار المرادان واحدًا.. ثم قال: وليس في العقل اتحاد صحيح إِلاهذا، والاتحاد في العلم والخبر، فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحدًا مع تباين الإِرادتين والعلمين والخبرين، فغاية المحبة اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب، وفناء إِرادة المحب في مراد المحبوب. فهذا الاتحاد والفناء هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم؛ قد فَنَوْا بعبادة محبوبهم عن عبادة ما سواه، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه والاستعانة به والطلب منه عن حب ما سواه. ومَنْ تحقق بهذا الفناء لا يحب إِلا في الله، ولا يبغض إِلا فيه، ولا يوالي إِلا فيه، ولا يعادي إِلا فيه، ولا يعطي إِلا لله، ولا يمنع إِلا لله، ولا يرجو إِلا إِياه، ولا يستعين إِلا به، فيكون دينه كله ظاهرًا وباطنًا لله، ويكون الله

ورسولهُ أحبَّ إِليه مما سواهما، فلا يوادُّ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إِليه، وحقيقة ذلك فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضي ربه تعالى وحقوقه.

والجامع لهذا كله **تحقيق شهادة أن لا إِله إِلا الله؛ علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا وقصدًا، وحقيقة هذا النفي والإِثبات الذي تضمنتْهُ هذه الشهادة هو الفناء والبقاء، فيفنى عن تأله ما سواه علمًا وإِقرارًا وتعبدًا، ويبقى بتأله وحده**، فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحيد الذي اتفقت عليه الرسل صلوات الله عليهم، وأُنزلت به الكتب، وخلقت لأجله الخليقة، وشرعت له الشرائع، وقامت عليه سوق الجنة، وأسس عليه الخَلْق والأمر..

إِلى أن قال: وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أصحاب الإِرادة. والمعصوم من عصمه الله، وبالله المستعان والتوفيق والعصمة.

كما أذكر للوهابية قول **الشيخ ابن تيمية في تبرئة الصوفية من تهمة القول بالاتحاد**، مؤولًا لكلامهم تأويلًا صحيحًا سليمًا إذ قال: ليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب تعالى به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإِن سُمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ؛ فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفاكون من الاتحادية المباحية، الذين أضلهم الشيطان وألحقهم بالطائفة النصرانية. وقال: وأما قول

الشاعر في شعره: **(أنا مَنْ أهوى، ومَنْ أهوى أنا)** فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي؛ كاتحاد أحد المحبَّينِ بالآخر، الذي يحب أحدهما ما يحب الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثل ما يقول، ويفعل مثل ما يفعل؛ وهذا تشابه وتماثل، لا اتحاد العين بالعين، إذا كان قد استغرق في محبوبه حتى فني به عن رؤية نفسه.

هذا كلام الأئمة في هذه المسألة التي شغلت عقول المغرضين والمعوَّقين.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

حكم الأناشيد الصوفية

كل غناء مصحوب بالموسيقا، أو مثير كوامن الغريزة والشهوة، أو فيه وصف امرأة معينة، أو كان يدعو إلى الاستهزاء بالدين، أو يصدَّر فيه الكافر في مجلسه... إلخ؛ يجب أن تمنعه في بيتك، وتستبدل به الأناشيد الدينية الروحانية غير المصحوبة بالموسيقا.

نحن في الغناء على أحد طريقين: طريق الصالحين، أو طريق الطالحين من أبناء الشياطين، والعياذ بالله تعالى.

أما طريق الصالحين فهواستماع القرآن، فالذي يستيقظ على القرآن وينام على القرآن، وهو بين هذا وذاك يستمع إلى الإنشاد الديني الذي يبعث الهمة على العمل الثقيل، أو يروح النفس أثناء قطع الطريق، أو في الأفراح الدينية؛ فهذا حلال ومباح، بل ربما كان مسنونًا؛ إذ إنَّ سيدنا محمدًا صلى الله عليه وسلم أنشد في إحدى المواقع الجهادية، وقف وقد ولى بعض صحابته عن الغزوة، فناداهم ليبعث هممهم إلى

الجهاد، وليذكرهم أن الله تعالى وعده النصر، فلماذا يهربون؟ قال لهم:

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

- وارتجز الصحابة الكرام أمامه أثناء بناء المسجد فما نهاهم، قالوا:

لئن قعدنا والنبيُّ يعمل فذاك منا العملُ المضلَّل

- واستقبلته جواري الأنصار بالدفوف عند وصوله إلى المدينة بقولهنَّ:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

- وسمع حادي العيس وهو يشدو للإبل لتسرع في سيرها فقال: «**يا أنجشة رفقًا بالقوارير**».

- وهاهم الشعراء يقفون أمامه يلقون بين يديه الشعر؛ كسيدنا كعب بن زهير، فلما وصل إلى قوله:

أنبئت أنّ رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمولُ

إن الرسول لنور يستضاء به مهنّد من سيوف الله مسلول

خلع رسول الله عباءته وألقاها عليه؛ لشدَّة سروره بهذا البيت!

– وكان سيدنا حسان ينشده ومدحه بقوله:

أغرّ، عليه من النبوة خاتمٌ من الله مشهود يلوح ويشهد

وضمّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذنُ: أشهد

وشقَّ له من اسمه ليجلَّه فذو العرش محمودٌ وهذا محمدُ

فهذا كله يدل على أن الإنشاد **جائز بل مسنون إن لم تجتمع معه آلة اللهو المحرمة،** (والمحرم هو غير الدف والطبل، الدف للعرس والطبل للحرب).

فإذا اجتمعت مع الغناء الموسيقا كان من **طريق الطالحين** إخوان الشياطين، فكل غناء تجتمع معه آلة الطرب المحرمة فهو حرام ولو كان إنشادًا دينيًّا؛ كما يفعله بعض من فسق من المنشدين، فهو حرام لأجل الآلة، لا لأجل الشعر.

لقد اخترع الشيطان الموسيقا ليعيش الناس في غفلة الشهوات، وقد تسمع في الطرقات الأغاني الخليعة في مسارح الطرب والرقص الخليع، وربما تدار عليه الكؤوس بالعربدة والصياح، وترتكب الفاحشة والرذيلة، وتسمع الوقاحة وقلة الأدب حتى يصل ببعضهم أن تصير عائلته متحللة ماجنة، وما خفي أعظم! تلك خطة المستعمرين، فلم يجد الاستعمار طريقة يوقع بها الشعوب المتدينة في الخنا والزنى

إلا بإغراقهم في سيل من الأغاني الموبقة، وبافتتاح السينما والمسارح، وربطهم بالشهوات كما ربط الشيطان أعوانه بالخمر والنساء، واسمحوا لي أن أورد لحضراتكم قول زعيم الإلحاد في العالم ماركس لعنه الله، إذ قال: سأنسي الناس الله!! سألوه: بم ستفعل ذلك؟ قال: سأنسي الناس الله بالمسرح، بإنشاء المسارح، ثم نادى بأعلى صوته بأنه سيجعل من ابنه ماجنًا زانيًا ومن ابنته عاهرة.

هذا ما يريده المستعمر منا، ألا نصحو إلا على المفسديون، ولا ننام إلا على المسرح!! والله إن الرائي -أو التلفاز- من أرقى ما وصل إليه العقل البشري في العصر الحديث، لكنه سلاح ذو حدّين:

١-إن استخدم في نشر العقيدة والأخلاق الفاضلة، وربط الجيل الحاضر بأمجاده وتاريخه، وتوجيه الأمة إلى ما يصلحها في أمور دينها ودنياها؛ فلا شك في جوازه.

٢-أما إذا استخدم في ترسيخ الفساد والانحلال والميوعة، وتحويل الجيل الحاضر إلى غير طريق الإسلام؛ فلا يشك عاقل منصف يؤمن بالله بحرمة استعماله، وإثم اقتنائه، ووزر من يستمع إليه، وقد توافرت الأحاديث النبوية الشريفة تبين حكم الله في أمثال هذا الجهاز، فإلى حبيب الله، إلى سيد الكونين، وملجأ الثقلين، ونور القلب والعين، سيدنا محمد: فقد تدرج مع الصحابة الكرام في تبيان الحكم الشرعي شيئًا

فشيئًا، قال لهم أولًا –كما أخرج الإمام أحمد–: «**إِنَّ الله بَعَثَنِي رَحْمَةً وَهُدَى لِلْعَالَمِين، وَأَمَرَنِي أَنْ أَمْحَق المَزَامِير وَالمَعَازِف وَالخُمُور وَالأَوْثَان الّتِي تُعْبَد فِي الجَاهِلِيّة..**».

ثم شدّد النكير أكثر منبهًا أمته على حرمة المعازف فقال: «**لَيَكُونَنَّ فِي أُمَّتي أَقْوامٌ يَسْتَحلُّون الحِرَ –الزنى– والحرِير، وَالخَمر، وَالمَعَازِف**«أخرجه الإمام أحمد والبخاري.

ثم علت نبرة التحريم واشتدت فقال: «**يُمسخُ قَومٌ مِن أُمّتي فِي آخِر الزَّمَان قِرَدةً وَخَنَازِير**» قالوا: أمسلمون هم؟ **قال**: «**نعَمْ؛ ويَشْهَدُون أن لا إله إلا الله وأَنِّي رَسُول الله؛ ويَصُومُون**». قالوا: فما بالهم؟ **قال**: «**اتَّخَذُوا المَعَازِف والقَيْنَاتِ والدُّفُوفَ وَشَرِبُوا الأَشْرِبَة** –الخمر– **فَبَاتُوا عَلى شُربِهِم ولَهْوِهِم فَأَصْبَحُوا وَقَدْ مُسِخُوا**» أخرجه الإمام أحمد وابن حبَّان.

هذا كله من ناحية **الاستماع**؛ أي: الإصغاء وإعطاء الأذن والانبساط إليه؛ أي: استمع بنفسه؛ بأن شغّل المسجّل بيده وجلس إليه يصغي.

أما السماع؛ أي: بأن يأتيه الصوت عَرَضًا في الطريق، أو يسمعه من جاره الفاسق؛ فهذا ليس حرامًا إلا إن أعطاه أذنه واستمع وتمتع، إذن هناك فرق بين استماع وسماع.

الاستماع هو ما يريده منا أعداء الإسلام. إن الذين يجرون وراء الزنى والانحلال والشهوات والأفلام والمسارح من شبابنا وشاباتنا ما هم في الحقيقة إلا منفذون من

حيث لا يعلمون لمخططات اليهود والاستعمار، وإليكم الدليل الساطع على هذا الكلام:

تعالوا لأقرأ لكم هذه السطور من كتابٍ كانوا يخفونه عن أعين العالم حتى كشفهم الله تعالى. اسم هذا الكتاب «بروتوكولات صهيون»، هل سمعتم بهذا الكتاب؟ كتاب اتفقت عليه يهود ضد العالم كله على رأس القرن الماضي. اسمعوا ماذا يقولون: (يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا، إن فرويد منَّا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس؛ لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدّس، ويصبح همه الأكبر إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه) وسيكون ذلك عن طريق وسائل الإعلام، وعن طريق المسرح والسينما والبرامج الإذاعية، وعن طريق كل عميل خائن وكاتب مأجور، ثم قالوا: (وسرعان ما نبدأ الإعلان في الصحف داعين الناس إلى الدخول في مباريات شتى من كل أنواع المشروعات؛ كالفن والرياضة، إن هذه المتع الجديدة ستلهي ذهن الشعب حتمًا عن المسائل التي سنختلف فيها معه، وحالما يفقد الشعب تدريجيًّا نعمة التفكير المستقل بنفسه سيهتف جميعًا معنا).

هذه هي مخططاتهم، وعلى الزوج الغيور أن ينتبه أثناء عرض ما يخل بالشرف والأدب، ويصر على إطفاء الجهاز ولو وقعت مشادة بين أفراد الأسرة؛ ليقيم حكم الإسلام في بيته.

وما برنامج (عرب آيدل) الغنائي وأمثاله إلا إحدى هذه الأدوات في يد أعداء الإسلام.

الإسلام يحرّم النظر والاستماع إلى كل ما يهيج الغريزة الحرام ويثير الفتنة ولو من مسجل أو مذياع، فالنظر المحرم حرام، والاستماع المحرم حرام.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

حكم آلات اللهو

إذا رافقت الذكر والأناشيد الدينية

عند مدَّعي التصوف

خرج جماعة في عصرنا الفاسد -بحجة الذكر والأناشيد الدينية- بفعل عمل شنيع؛ وهو مرافقة آلات الموسيقا للإنشاد؛ ليشوهوا وجه التصوف الحق، وقد قدمت سابقًا مقدمة في حكم ذلك، وهأنا أذكر أقوال المذاهب الأربعة في حرمته التي أفاض علماء الإسلام في تبيينها، وأنّ بعض الناس زُيِّن لهم مخالفة سنن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وظنوا أنهم على خير، فانزلقوا في بنيات الطريق، وضلّوا عن الصراط المستقيم، وذلك أنهم اخترعوا لأنفسهم طرقًا جديدة للذكر شابهوا فيها طرق أصحاب العِجْل!!

وصفة ذكرهم: أنهم يجتمعون في البيوت والمسارح، فيتحلقون ويأخذون بإنشاد القصائد الدينية فينغّمونها ويغنونها مع الضرب بالدفوف والمزاهر والطبول والمزامير

وآلات اللهو بحجة الاحتفال الديني، ثمّ يتأوّهون بآهاتِ أهل الملاهي، ويزعمون أنها اسم الجلالة (الله) كما لأصحاب الأحوال! تعالى الله عما يقولون.

وبعد أن يستحكم الطرب في القلوب يأخذون بالرقص والقفز والدوران والتمايل كالسكارى تمامًا! ويزعمون أن هذا من أحوال الذكر!!

وقد سئل أحد المنشدين: لماذا تفعل ذلك؟ فقال: أنا لست أنشد الأناشيد الدينية، إنما أنا مطرب أحيي التراث!!

كذبوا، فقد حرم الإسلام ذلك من زمن بعيد، من زمن السامري صاحب بني إسرائيل.

وقد انبرى علماء الإسلام والفقهاء الذين هم حماة الشريعة لهذه البدعة الشنيعة، وتصدوا لتبيين انحرافها عن طريق الإسلام بالكليّة.

وسأنتقي لإخواني المسلمين الراغبين بمعرفة الحق المبين بعضَ فتاوى أولئك الأئمة الأعلام، وهي تشمل فتاوى أئمة المذاهب الأربعة، وأسأل الله تعالى أن ينفع بها، ويشرح صدور المتلبسين بهذه البدعة لتركها والعمل بسنّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وتذكروا أننا أوردنا أقوال أئمة المذاهب الذين أشادوا بالصوفية الصحيحة، فارجعوا إليها حتى لايختلط عليكم الحديث هنا بالحديث هناك، فالحديث هنا إنما هو عن حكم مرافقة الذكر لآلات اللهو المحرمة والتثني والرقص والتصفيق مما هو من تصرفات المخنثين.

أولًا: المذهب الحنفي:

قال البزازي الحنفي في «الفتاوى البزازية»[1]

((... وغرضُه استماع الدف والمزمار واللعب بالرقص الذي أحدثه أوَّلًا السامري حين أخرج لهم عجلًا جسدًا له خوار، وقد نقلَ صاحبُ «الهداية» - المرغيناني- فيها: أنّ المغنّي للناس إنما لا تُقْبَل شهادَتُه؛ لأنّه يجمَعُهم على كبيرة، والقرطبي: على أنّ هذا الغناء وضرب القضيب والرقص حرام بالإجماع عند مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد. ذكر ذلك في مواضعَ من كتابه)).

وفي شرح «الكنز» للنسفي -بعد ذكر قول سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم: **(كلُّ لَعِبِ ابن آدم حرامٌ إلا ثلاثة: ملاعبة الرجل أهله، وتأديبه لفَرَسه، ومُناضَلَته**

---

(١) «الفتاوى البزازية»: (٤/ ٣٤٩ الطبعة الثالثة التركية).

لقوسه)-: (وهذا نصٌّ صريحٌ في تحريم الرقص الذي يسمّيه المتصوفة الوقت وسماع الطيب، وإنّما هو سماعٌ فيه أنواعُ الفسق وأنواعُ العذاب في الآخرة). انتهى

وفي «حاشية الطحاوي على المراقي»[1]

(وأما الرقص والتصفيق والصريخ وضرب الأوتار والصنج والبوق الذي يفعله بعض من يدعي التصوف؛ فإنه حرام بالإجماع؛ لأنها زيُّ الكفار) انتهى.

ثانيًا: المذهب الشافعي:

قال الإمام الشافعي رحمه الله:

((تركت بالعراق شيئًا يقال له: (التغبير)، أحدثه الزنادقة ليصدُّوا الناس عن القرآن[2])).

جاء في «لسان العرب»: قال الأَزهري: وروينا عن الشافعي رضي الله عنه أَنه قال: أَرى الزَّنادِقة وَضَعوا هذا التَّغْبِير لِيَصُدّوا عن ذكر الله وقراءة القرآن.

---

(١) «حاشية الطحاوي على المراقي»: (٢/ ٣١١).

(٢) روى ذلك أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ١٤٦) والزبيدي في «شرح إحياء علوم الدين» (٦/٤٥٨) والخلَّال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص٣٦)، وابن الجوزي (٢٤٩-٢٤٤).

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام في كتابه " قواعد الأحكام في مصالح الأنام"[1]: "وأما الرقص والتصفيق فَخِفَّةٌ ورعونة، مُشْبِهَةٌ لرعونة الإناث، لا يفعلها إلا راعن أو متصنع كذّاب، كيف يتأتّى الرقص المتَّزن بأوزان الغناء ممن طاش لُبُّه وذهب قلبه؟! وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**خير الناس قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» متفق عليه. ولم يكن واحد من هؤلاء الذين يقلّدونهم يفعل شيئًا من ذلك". انتهى كلام الشيخ.

- وقال أيضًا في كتابه (قواعد الأحكام):

"الرقص لا يتعاطاه إلا ناقص العقل، ولا يصلُح إلا للنساء " انتهى[2].

وقال الشربيني الشافعي في «مغني المحتاج»[3]: قال السبكي -وهو من كبار الأئمّة الشافعية-: (السماعُ على الصورة المعهودة منكرٌ وضلالة، وهو من أفعال الجهلة والشياطين، ومَنْ زعم أن ذلك قُربة فقد كذب وافترى على الله، ومن قال: إنه يزيد

---

(١) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» (٢/ ١٨٦).

(٢) «قواعد الأحكام» (ص٦٧٩) بتحقيق الشيخ عبد الغني الدقر.

(٣) «مغني المحتاج» (ج٤ص٤٢٦).

في الذوق؛ فهو جاهل أو شيطان، ومن نسبَ السماع إلى رسول الله يُؤدَّب أدبًا شديدًا، ويدخل في زمرة الكاذبين عليه صلى الله عليه وسلم، ومن كذب عليه متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار، وليس هذا طريقة أولياء الله تعالى وحزبه وأتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل طريقة أهل اللهو واللعب والباطل، وينكر على هذا باللسان واليد والقلب) انتهى.

وقال الإمام البدر ابن جماعة الشافعي، في جواب فتوى رُفِعَت إليه في السماع:

هذه مسألة خلافيّة، فلنقتصر على حكاية **المذاهب الأربعة**:

فأمّا الإمام أبو حنيفة رحمه الله فمذهبُه فيه أشدُّ المذاهب، وقوله فيه أغلظُ الأقوال، وقد صرَّح أصحابُه بأنّ استماعه فسقٌ، والتلذّذَ به كُفْرٌ، وليس بعد الكفر غاية.

وأمّا الإمام مالك رحمه الله فإنه لمّا سُئلَ عنه قال: إنّما يفعله عندنا الفسّاق، وفي كتُبِ أصحابه: إذا اشترى جاريةً فوجدها مغنّية فله أن يردّها بالعيب.

وأمّا الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله فإنّ ابنه عبد الله سأَلَهُ عنه فقال: يا بنيّ الغناءُ يُنبِتُ النفاقَ في القلب، ثم ذكَرَ قولَ مالك: إنما يفعله عندنا الفساق.

وأمّا الإمام الشافعي رحمه الله فقد قال في كتاب «القضاء»: إن الغناء لهوٌ مكروه يُشبِه الباطل وقال لأصحابه بمصر: **خلَّفتُ ببغداد شيئًا أحدَثَتْهُ الزنادقة يُسمّونه (التغبير)، يصدّون به الناس عن القرآن.**

فإن كان قوله في التّغْبير -وهو: عبارة عن شعرٍ مُزَهِّدٍ في الدنيا إذا غنّى المغني به ضَرَبَ الحاضرون بقُضُبٍ على نِطع أو مخدّة ضرْبًا موافقًا للأوزان الشعريّة- فَلَيْتَ شِعْري! ماذا يقول في السماع الواقع في زماننا؟! فمن قال بإباحة هذا النوع فقد أحدَثَ في دين الله ما ليس منه. انتهى كلام ابن جماعة[1].

ثالثًا: المذهب المالكي:

-**قال أبو العبّاس القرطبي**[2] المحدّث صاحب " المُفهِم لما أشكل في تلخيص شرح صحيح مسلم " عند كلامه على الغناء عند الصوفيّة: وأمّا ما ابتدعته الصوفيّة في ذلك؛ فمِن قَبيل ما لا يُخْتَلفُ في تحريمه، لكنّ النفوس الشهوانيّة غلَبَت على كثيرٍ

---

(١) باختصار من «اتحاف السادة المتّقين» للزبيدي (٦/ ٤٥٨).

(٢) ضياء الدِّين أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري، الأندلسي، القرطبي، المالكي، عُرف بابن المزين، (٥٧٨هـ -٦٥٦هـ) في الإسكندرية، له سبعة كتب منها «كشَّاف القناع عن حكم مسائل الوجد والسَّماع».

ممن يُنسَبُ إلى الخير، حتى لقد ظهَرَتْ من كثير منهم فَعَلاتُ المجانين والصبيان، حتى رَقَصوا بحركاتٍ متطابقة، وتقطيعاتٍ متلاحقة، وانتهى التَّواقُحُ بقومٍ منهم إلى أن جعلوها مِنْ بابِ القُرَب وصالحِ الأعمال، وأنَّ ذلك يُثمِرُ سَنِيَّ الأحوال!! وهذا على التحقيق مِنْ آثار الزندقة، وقول أهل المَخْرَقَة، والله المُستعان " انتهى.

يُعْكَسَ مُرادهم، ويُقرأ: (يُثمِرُ)!!

- **وجاء في «المدخل» لابن الحاج المالكي** الصوفي[1]:

(فصلٌ) وأشدُّ مِن فعلهم السّماع كونُ بعضهم يتعاطَونه في المساجد، وقد تقدّم توقير السلف رضي الله عنهم للمساجد؛ كيف لا يكون ذلك وقد كانوا يكرهون رفع الصوت فيه ذكرًا كان أو غيره؟!

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رفع الصوت بالقراءة فيه، وبعضُ هؤلاء يفعلون السماع على ما هو عليه اليوم في المساجد ويرقصون فيها وعلى حُصُرِ الوقف! انتهى[1].

---

(١) محمَّد بن محمَّد بن محمَّد العبدري (ت٧٣٧هـ)، أحد جهابذة التَّصوف وأعلام السُّنَّة الرَّاسخين، كان عالمًا بالمذهب المالكي، صاحب التَّصانيف الجليلة، أبرز كتبه كتابه «المدخل».

-**وقال القاضي أبو بكر الطرطوشي**[٢] في كتابه المسمى " النهي عن الأغاني":

وبلغنا أنّ طائفة من إخواننا المسلمين -وفّقنا الله وإيّاهم- قد استزلّهم الشيطان واستهوى عقولهم في حبِّ الأغاني وسماع الطقطقة، واعتَقَدَتْه مِنَ الدِّين الذي يُقرّبهم من الله تعالى، وجاهرَت به جماعة المسلمين، وشاقّت به سبيل المؤمنين، وخالفت العلماء والفقهاء وحمَلَةَ الدين: ﴿**وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء:١١٥].

وقد سُئلَ مالك رحمه الله عمّا رَخَّصَ فيه أهلُ المدينة منَ الغناء، فقال: إنّما يفعله عندنا الفسّاق

وأمّا الشافعي رحمه الله فقال في كتاب «القضاء»: إنّ الغناء لهوٌ مكروه، ويشبه الباطل والمحال.

---

(١) «المدخل» لابن الحاج (٣/ ٩٨).

(٢) محمَّد بن الوليد بن خلف (٤٥١-٥٢٠هـ)، فقيه مالكي،، من علماء الأندلس، سكن الشَّام، واشتهر بالرَّد على المبتدعات، وحصلت له الإمامة، وصف بأوصاف جليلة من العِلْم والفضل والزُّهد، وهو صاحب كتاب «سراج الملوك في سلوك الملوك».

وكان الشافعي يكره الطقطقة بالقضيب ويقول: وضعته الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن القرآن.

وهذه الطائفة -يعني: مدعي الصوفية الذين يُبيحون آلات اللهو- مخالفةٌ لجماعة المسلمين؛ لأنهم جعلوا الغناء دينًا ورأت إعلانه في المساجد والجوامع. انتهى[1].

وقد ذُكِرَ أنّ **بعض الناس عمَلَ فتوى** في سنة (٦٦١ هجرية) ومشى بها على رأي علماء المذاهب الأربعة:

ولفظها: ما تقول السادة الفقهاء أئمة الدين وعلماء المسلمين -وفّقهم الله لطاعته وأعانهم على مرضاته- في جماعة من المسلمين وردوا إلى بلدٍ فقصدوا إلى المسجد، وشَرَعوا يصفّقون ويُغنّون ويرقصون، تارةً بالكفّ، وتارةً بالدّفوف والشبابة؛ فهل يجوز ذلك في المسجد شرعًا؟ أفتونا مأجورين يرحمكم الله تعالى.

فقالت الشافعيّة: السماع مكروه يشبه الباطل، مَنْ قال به تُرَدُّ شهادته والله أعلم.

وقالت المالكيّة: يجبُ على ولاة الأمور زجرهم وردعهم وإخراجهم من المساجد حتى يتوبوا ويرجعوا، والله أعلم.

---

(١) «المدخل» (٣/ ١٠١).

وقالت الحنابلة: فاعلُ ذلك لا يُصلّى خلفه ولا تُقبل شهادته ولا يُقبل حكمه وإنْ كان حاكمًا، وإنْ عُقِدَ النكاح على يده فهو فاسد، والله أعلم.

وقالت الحنفيّة: الحُصُرُ التي يُرقص عليها لا يُصلّى عليها حتى تُغسل، والأرضُ التي يُرقصُ عليها لا يُصلّى عليها حتى يحفر ترابها ويُرمى، والله أعلم. انتهى[1]

قال الإمام مالك في «المدوّنة»[2]: "وأكره الإجارة على تعليم الشعر والنوح، وعلى كتابة ذلك".

---

(١) «المدخل» (٣/ ٩٩).

(٢) مجموعة من الأسئلة والأجوبة من مسائل الفقه، وردت عن الإمام مالك، رواها عبد السَّلام بن سعيد التَّنوخي الملقب بسحنون؛ لشدَّة ذكائه وحدَّة فهمه؛ تشبيهًا له بطائر يدعى سحنون حديد البصر، أصله شامي من حمص، ثمَّ رحل أبوه في جند حمص إلى القيروان، فوُلِد سنة (١٦٠هـ)، ورحل كثيرًا، ثمَّ عاد إليها سنة (١٩١)، وصار قاضيًا، وإليه انتهت الرئاسة في المغرب، كان زاهدًا لا يهاب سلطانًا في حقٍّ يقوله... و«المدوَّنة» كانت لأسَد بن الفرات القيرواني (ت٢١٤هـ)، سألها للفقيه عبد الرَّحمن بن القاسم، فلمَّا ارتحل سحنون؛ عرضها عليه، وأصلحها ورتَّبها وبوَّبها وذكر أدلتها وآثارها، فنُسِبت إليه.

قال القاضي عياض[1]: معناه نوحُ المُتَصوِّفة وإنشادهم على طريق النوح والبكاء، فمن اعتقد في ذلك أنّه قُرْبة لله تعالى؛ فهو ضالٌّ مُضِلّ، وَلا يعْلَمُ المسكين أنّ الجنّة حُفّت بالمكاره، وأنّ النار حُفّت بالشهوات، والله تعالى لم يَبعَث أحدًا منَ الأنبياء باللهو والرّاحة والغِناء، وإنّما بُعِثوا بالبِرِّ والتقوى وما يُخالف الهوى. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى**﴾[النازعات:٤٠]. فالباطل خفيفٌ على النفوس؛ ولذلك خفّ في الميزان، والحقُّ ثقيلٌ؛ ولذلك ثَقُلَ في الميزان، قال تعالى: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾ [المزمل:٥].

وكتب عبد العزيز بن محمد القيرواني حامدًا لله ومصليًا على نبيّه المصطفى. انتهى.

-وجاء في المنظومة الطويلة البديعة للعلَّامة عبد الرحمن بن سعيد الأخضري المغربي الشاذلي[2] رحمه الله، هذه الأبيات التي يصفُ فيها الصوفية وغناءهم ورقصهم:

---

(١) محدِّث، حافظ، قاضٍ، مؤلف، صاحب «الشفا»، ولد (٤٧٦هـ) في سبتة من بلاد المغرب الأقصى، وتوفي بمراكش (٥٤٤هـ).

(٢) وليٌّ من أولياء الجزائر، مالكي، عَلَم من أعلام القرن العاشر (٩٢٠-٩٨٣هـ)، له ٢٠ مؤلفًا، منها «المنظومة القدسيَّة في التَّصوف» وله نظم في العقيدة نفيس جدًّا.

والرقصُ والصراخ والتصفيق عمدًا بذكر الله لا يليق

وإنما المطلوبُ في الأذكارِ الذكرُ بالخُشوع والوقارِ

فقد رأينا فرقةً إنْ ذَكَروا تَبَدَّعوا وربّما قد كفروا

وفعلوا في الذكر فعلًا منكرًا صعبًا فجاهدهم جهادًا أكبرا

خلّوا من اسم الله حرف الهاء فألحدوا في أعظم الأسماء

لقد أتوا والله شيئًا إدّا تخر منه الشامخات هدّا

والألف المحذوف قبل الهاء قد أسقطوه وهو ذو خفاء

وزعموا أن لهم أحوالا وأنهم قد بلغوا الكمالا

والقوم لا يدرون ما الأحوالُ فكونها لمثلهم محالُ

ويذكرون الله بالتَّغْبِير ويشْطَحون الشَّطحَ كالحمير

قدِ ادَّعوا مراتبًا جليلة والشرعَ قد تجنَّبوا سبيلَه

قد نبذوا شرعة الرسولِ والقوم قد حادوا عن السبيلِ

لم يدخلوا دائرة الحقيقة كلَّا ولا دائرةَ الطريقة

لم يقتدوا بسيد الأنام فخرجوا عن ملة الإسلام

رابعًا: مذهب الحنابلة:

جاء في كتاب «المغني» لابن قُدامة المقدسي الحنبلي[1]:

فصلٌ في الملاهي: وهي على ثلاثة أَضْرُبٍ؛ ضرب محرّم، وضربٌ مباح وهو الدُّف فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**أعلنوا النكاح واضربوا عليه بالدف**)) أخرجه مسلم.

وذكر أصحابنا وأصحاب الشافعي أنه مكروه في غير النكاح؛ لأنه يُروى عن سيدنا عمر رضي الله عنه: ((أنه كان إذا سمع الدف بعث فنظر؛ فإن كان في وليمة سكت، وإن كان في غيرها عمد بالدِّرَّة)).

---

(١) عبد الله بن أحمد، من ذرِّية سيِّدنا سالم بن سيِّدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب، دمشقي، (٥٤١-٦٢٠هـ)، توفي بدمشق، عالم بالحديث والفقه، من شيوخ المذهب الحنبلي،أدرك سيِّدنا الجيلاني أواخر عمره، له ٣٥ مؤلفًا منها كتاب «المغني» وهو أكبر كتبه.

وأمّا الضرب به -أي: بالدف- للرجال؛ فمكروه على كل حال؛ لأنه إنما كان يَضْرِبُ به النساء والمخنثون المتشبهون بهن، ففي ضرب الرجال تشبه بالنساء، وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء. انتهى[1]

وقد سُئل أيضًا الإمام ابن قدامة المقدسي رحمه الله تعالى:

ما تقول السادة الفقهاء -أحسن الله توفيقهم- فيمن يسمع الدف والشبابة والغناء ويتواجد، حتى إنه يرقص؟ هل يحل ذلك أم لا؟ مع اعتقاده أنه محب لله، وأن سماعه وتواجده ورقصه في الله؟ وفي أي حال يحل الضرب بالدف؟ هل هو مطلق، أو في حالة مخصوصة؟. وهل يحل سماع الشعر بالألحان في الأماكن الشريفة؛ مثل المساجد وغيرها؟

فقال الإمام ابن قدامة المقدسي رحمه الله: إن فاعل هذا مخطئ ساقط المروءة، والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع، غير مقبول القول، ومقتضى هذا أنه لا تقبل روايته؛ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شهادته برؤية هلال رمضان، ولا أخباره الدينية.

---

(١) «المغني» (١٤/ ١٥٩-١٦٠).

وأمّا هذا فمعصية ولعب، ذمّهُ الله تعالى ورسوله، وكرِهَهُ أهلُ العلم، وسمَّوه: بدعةً، ونهوا عن فعله، ولا يُتقرب إلى الله سبحانه بمعاصيه، ولا يُطاع بارتكاب مناهيه، ومن جعل وسيلته إلى الله سبحانه معصيته؛ كان حظه الطرد والإبعاد، ومن اتخذ اللهو واللعب دينًا؛ كان كمن سعى في الأرض فسادًا، ومن طلب الوصول إلى الله سبحانه من غير طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته؛ فهو بعيد من الوصول إلى المراد.

وقد روى أبو بكر الأثرم[1] قال: سمعت أبا عبد الله – يعني: أحمد ابن حنبل – يقول: "التغبير محدث".

وقال أبو الحارث: سألت أبا عبد الله عن التغبير وقلت: إنه تَرِقُّ عليه القلوب. فقال: هو بدعة. وروى غيره أنه كرهه ونهى عن إسماعه.

وقال الحسن بن عبد العزيز الجروي[1]: سمعت الشافعي محمد بن إدريس يقول: "تركت بالعراق شيئًا يقال له: التغبير، أحدثته الزنادقة، يصدون الناس به عن القرآن".

---

(١) أحمد بن محمَّد بن هانئ، تلميذ ابن حنبل، إمام، حافظ، علَّامة، مصنِّف «السُّنن في علل الحديث»، من شدَّة حفظه قالوا: كان أحد أبويه جنيًّا، (ت بحدود ٢٦٠هـ).

وقال يزيد بن هارون[٢]: "ما يُغَبِّر إلا فاسق، ومتى كان التغبير؟!".

والتغبيرُ اسم لهذا السماع، وقد كرهه الأئمة -كما ترى- ولم ينضم إليه هذه المكروهات من الدفوف والشبابات، فكيف به إذا انضمت إليه واتخذوه دينًا؟ فما أشبههم بالذين عابهم الله تعالى بقوله: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال: ٣٥] قيل المُكاء: التصفير، والتصدية: التصفيق. وقال الله سبحانه لنبيه: ﴿**وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾[الأنعام:٧٠].

فأما تفصيل هذه المسموعات من الدف والشبابة وسماع كل واحد منهما منفردًا؛ فإن هذه جميعها من اللعب، فمن جعلها دأبه أو اشتهر بفعلها أو استماعها أو قصدها في مواضعها أو قصد من أجلها؛ فهو ساقط المروءة، ولا تقبل شهادته، ولا يعد من أهل العدالة، وكذلك الرقّاص. انتهى.

---

(١) شيخ البخاري، مِصري، نزيل بغداد، (ت٢٥٧هـ).

(٢) (١١٨-٢٠٦هـ)، إمام، قدوة، شيخ الإسلام، حافظ، من التَّابعين، قال ابن المديني عنه: ما رأيت أحفظ منه! يحفظ ٢٤ ألف حديث بإسنادها، مجلسه يحضره سبعون ألفًا، من أقواله: من قال: إنَّ القرآن مخلوق؛ فهو زنديق.

ومن أقوال أئمة الصوفية في ذمِّ السماع:

سُئل أبو علي الروذباري[1] عن السماع، وكان من شيوخ الصوفيّة، فقال: (ليتنا تخلّصنا منه رأسًا برأس).

وقال الإمام الجُنيد سيِّدنا أبو القاسم، محمَّد (٢٢١-٢٩٧هـ) بغداد، إمام الطَّائفتين الصُّوفية والفقهاء: إذا رأيتَ المُريد يحبُّ السماع فاعلم أنّ فيه بقيّةً من البطالة.

وقال الجريري أبو محمَّد تلميذ الإمام الجنيد: رأيتُ الجنيد رحمه الله في النوم فقلتُ: كيف حالك يا أبا القاسم؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وبادت تلك العبارات، وما نفعنا إلا تسبيحات كنّا نقولها بالغدوات. انتهى[2].

فهذه فتاوى كبار العلماء من المذاهب الأربعة وجميعهم متَّفِقُون على منع مجالس السماع (الإنشاد مع الآلات الموسيقية)، وكذلك الرقص (التثني كالإناث) وهي أشدُّ منعًا وخاصّة في المساجد، وقد **وصفوا ذلك بأنّه باطلٌ ومُنكر وضلال وتلاعبٌ بالدِّين، وحكموا عليه بالحُرْمة، وحكموا على فاعل ذلك بأحكام منها فسْقُه وتبدِيعُه،**

---

(١) محمَّد بن أحمد بن القاسم، طوسي، (ت٣٢٢هـ) في مصر، تأثر بالجنيد من أقواله: التَّصوف كلُّه جِد، فلا تخلطه بشيءٍ من الهزل، الصُّوفي: من لبس الصُّوف مع الصَّفا.

(٢) «المدخل» لابن الحاج (٣/ ١٠٩).

وسقوط عدالته، ورفضُ شهادته، والنهي عن الصلاة خلفه، ثمّ أفتَوا بوجوب تدخُّل وليّ أمرِ المسلمين لمنع القائمين على هذه المجالس من فعلها وتأديبهم ومعاقبتهم، وكذلك وجوب الإنكار عليهم من أهل العلم. وصدق القائل:

يا عُصْبَةً ما ضَرَّ أُمَّةَ أحمد وسعى على إفسادها إلا هِي؟

طَارٌ ومِزْمارٌ ونغْمَةُ شادِنٍ أرَأيتَ قَطَّ عِبادَةً بملاهِي؟

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

خصائص الشعر الصوفي

ظلَّ الشعرُ دومًا مَعينًا يرده الصوفية للارتواء من نبعِ التعبير الصادق، وأداةً مناسبة لتصوير أدق حقائق الطريق.. تلك الحقائق التي تلوح لقلوب أتقياء هذه الأمة في ارتحالهم الذوقي إلى منابع النور الإلهي، سيرًا بأقدامِ الصدق والتجردُّ عن الأكوان، وطيرًا بأجنحة المحبَّة؛ لاختراق سماوات الأحوال والمقامات.. حتى تحطَّ عصا الترحال والسفر عند خيام القرب من الله.

وهناك ثلاثة أشكالٍ رئيسة، عبَّر من خلالها أصحاب الطريق الصوفي عن أدقِّ رقائقهم وحقائقهم، وعَبَروا بها تلك الإشكالية الكامنة في عجز اللغة العادية أو قصورها عن ترجمة هذه المعاني بدقة، فكانت هذه الأشكالُ التعبيرية:

-الكتابة النثرية بألفاظٍ اصطلاحية موغلة في الاستغلاق.

-القصص الرمزي المفعم بالتلويحات.

-الشعر الصوفي.

وتأتي ضرورة بحث هذه الأشكال التعبيرية الثلاثة من أنها السبيل الوحيد لفهم التصوف وطريق الولاية بعمق وإن كان الشعر له أهمِّيته الخاصة بين هذه الأشكال الثلاثة؛ فهو من حيث طبيعته -وبما يتميز به من إيجازٍ لفظي ودلالةٍ رحبة- خليقٌ بأن يُلمِّحَ به الصوفيُّ إلى مكاشفاتِ الوصول ومشاهداتِ الولاية، دونما إسهاب يوقع أهل التحقيق في مزالق اللغة ومضايق الفهم وعبارات الفقهاء الجامدة! ومن هنا قال الصوفي في شعره ما لم يقله في كلامه لأهل زمانه.

ولما كان الشعرُ الصوفيُّ بأبياته القصار وقصائده المطولة على هذه الدرجة من الأهمية، وكان الصوفية قد ارتضوه قالبًا تعبيريًّا منذ فجر التصوُّف حتى اليوم، وكنَّا بصدد تقديم نموذجٍ منه؛ لأنه في خاتمة المطاف: نمطٌ مستقل من الإنتاج الشعري؛ اقتضى المقام أن نتوقَّفَ حِينًا لتحديد **الخصائص العامة** التي يتميز بها هذا اللون الشعري:

***إن أولى خصائص الشعر الصوفي وأبرزها:** هو ما يتعمده الشاعر في سلوك سبيل الرمز والكناية وضرب الأمثال؛ ليحمل البيت الشعري بين طياتِ تفعيلاته ما لا حصر له من الدلالات الخاصة، وهذا ما يصرِّح به شعراء الصوفية أنفسهم.

فنجد منهم الإمام عبد الكريم الجيلي يفصِّل الأمر بقوله:

مَفَاتِيحُ أَقْفَالِ الغُيُوبِ أَتَتْكَ فِي خَزَائِنِ أَقْوَالِي فَهَلْ أَنْتَ سَامِعُ؟

وَهَأَنَا ذَا أُخْفِي وأُظْهِرُ تَارَةً لِرَمْزِ الهَوَى مَا السِّرُّ عِنْدِي ذَائِعُ

وَإِيَّاكِ أَعْنِي فَاسْمعِي جَارَتِي فَمَا يُصَرِّحُ إِلَّا جَاهِلٌ أَو مُخَادِعُ

سَأُنْشِي رِوَايَاتٍ إِلى الحُقِّ أُسْنِدتْ وَأَضْرِبُ أَمْثَالًا لِمَا أَنَا وَاضِعُ

ورموز الشعر الصوفي هي ذاتها تلك الاصطلاحاتُ التي تواضع القومُ على التحدُّث بها لكشف معانيهم لأنفسهم، والتي عُني بعض مشايخِهم بالكشف عن دلالاتها للمريدين خلال قائمةٍ طويلة من المؤلَّفات في هذا الباب، كـ«الرسالة القشيرية»، و«اللمع»، و«كشف المحجوب»، وكتابيْ «اصطلاحات الصوفية» لابن عربي والقاشاني.

***وأبرزُ هذه الرموز** وأكثرها ورودًا في الغالب الأعمِّ من شعر الصوفيةِ: **هو إشاراتُهم للذَّات الإلهية بمحبوبات العرب المشهورات**؛ مثل: ليلى وهند وسلمى ولبنى.. وغيرهن.

فمن ذلك ما نراه عند عفيفِ الدين التلمساني حين يريد التعبير عن رؤيتِه لآثار جمال الذات الإلهية في الكون، فيقول:

مَنَعَتْهَا الصِّفاتُ وَالأَسْمَاءُ أَنْ تُرَى دُونَ بُرْقُعٍ أَسْمَاءُ

قَدْ ضَلَلْنَا بِشَعْرِهَا وَهْوَ مِنْهَا وَهَدَتْنَا بِهَا لَهَا الأَضْوَاءُ

نَحْنُ قَوْمٌ مِتْنَا وَذَلِكَ شَرْطٌ فِي هَوَاهَا فَلْيَئِسِ الأَحْيَاءُ

وهذا **الاشتقاقُ الرمزيُّ** يرجع في المفهوم الصوفي إلى أنَّ كلَّ مظاهر الحسنِ في الوجود إنما هي تجلياتٌ للجمال الإلهي الذاتي، فتلك المحبوبات العربيات لا يتعدَّين كونهنَّ إشارةً حسِّية باهتةً للجمال الأزلي، هذا الجمال الذي اشتركْن فيه بحسنِهنَّ، وتواضعن عنه بتعالي جمال الذات عنهنَّ علوًّا كبيرًا.

يقول الإمام ابن الفارض:

وَتَظْهَرُ لِلْعُشَّاقِ فِي كُلِّ مَظْهَرٍ مِنَ اللَّبْسِ في أَشْكَالِ حُسْنٍ

فَفي مَرَّةٍ لُبْنَى وَأُخْرَى بُثَيْنَةٌ وَآوِنَةً تُدْعَى بِعَزَّةَ عَزَّتِ

وَلَسْنَ سِوَاهَا لَا، وَلا كُنَّ غَيْرَهَا وَمَا إنْ لَهَا في حُسْنِها مِنْ شَرِيكَةِ

إلا أنَّ هذه الرموز ليست -بحالٍ من الأحوال- مسوِّغًا للوقوف عند هذه المظاهر والوجوه المستحسنة، وإنما هي محضُ تلويحاتٍ يوهم بها الصوفيُّ العامَّةَ بأنَّ محبوبه إنسانيٌّ؛ صونًا لسرِّ محبته عن الشيوعِ في غير أهله، وإشفاقًا على السامعين من أهل السلامة أن يفتتنوا بصريح أقواله.

وعلى الحقيقة؛ فليس للصوفي توقف ولا كلام إلا في محبة مولاه عزَّ وجلَّ؛ ولهذا ارتاع ابن عربي حين سمع من مريديه أن ديوانه (ترجمان الأشواق) حمل على المعنى الظاهر، وأنه اتُّهم بغزل بابنة شيخه تصريحًا!! فشرح ديوانه شرحًا ذوقيًّا، منه قوله:

كُلُّ مَا أَذْكُرُه مِنْ طَلَلٍ أَوْ رُبُوعٍ أَوْ مَغَانٍ كُلُّ مَا
وَكَذَا إنْ قُلْتُ هِيْ أَوْ قُلْتُ هُوْ أَوْ هُمُو أَوْ هُنَّ جَمْعًا أَوْ هُمَا
كُلُّ مَا أَذْكُرُهُ مِمَّا جَرَى ذِكْرُهُ أَوْ مِثْلُهُ أَنْ تَفْهَمَا
مِنْهُ أَسْرَارٌ وَأَنْوَارٌ جَلَتْ أَوْ عَلَتْ جَاءَ بِهَا رَبُّ السَّمَا
فَاصْرِفِ الْخَاطِرَ عَنْ ظَاهِرِهَا وَاطْلُبِ الْبَاطِنَ حَتَّى تَعْلَمَا

وإن كان مولانا الشيخ الأكبر قد أسهب في هذه الأبيات وأطال -كعادته دومًا- فإنَّ ما أراد قوله هنا قد ورد في بيتٍ شعريٍّ مفردٍ يتداوله الصوفية، يقول:

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إِلَى ذَاكَ الْجَمَالِ يُشيرُ

*والخاصية الثانية في الشعر الصوفيِّ تبدو في هذ القدرِ من **التهويل والمبالغة**، اللذين نجدهما في الأبيات التي يعبِّر فيها الصوفيُّ عن الأحوال غير العادية التي يعيشها، والأمواج العالية من الأنوار التي يعاينها.

وتظهر تلك الخاصِّية بأوضح ما يكون حين يحكي الشاعر الصوفي عن محبته وما يلاقي فيها من وَجدٍ وشوقٍ واحتراق:

وَطُوفَانُ نُوحٍ عِنْدَ نَوْحِي وَإِيقَادُ نِيرانِ الخَلِيلِ كَلَوْعَتِي

فَلَوْلا زَفيرِي أَغْرَقَتْني أَدْمُعِي وَلَوْلا دُمُوعِي أَحْرَقَتْنِي زَفْرَتِي

وَحُزْنِيَ مَا يُعْقُوبُ بَثَّ أَقَلَّهُ وَكُلٌّ بَلَا أَيُّوبَ بَعْضُ بَلِيَّتِي

ومن هذه المبالغة: ما نجده في تلك الرباعية الصوفية التي كان الإمام الشبلي والإمام الجنيد كثيرًا ما يستنشدان المنشدين إياها في مجالس السماع الصوفي، والتي لا تخرج عن الإطار العام لتهاويل الشعر الصوفي:

فَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثَمَانِينَ بَحْرًا مِنْ دُمُوعٍ تُدْفِقُ

لأَفْنَيْتُهَا حَتَّى ابْتَدَأْتُ بِغَيْرِهَا وَهذَا قَلِيلٌ لِلْفَتَى حَينَ يَعْشَقُ

أَهِيمُ بِهِ حَتَّى الْمَمَاتِ لِشِقْوَتِي وَحَوْلِي مِنَ الْحُبِّ الْمُبَرِّحِ خَنْدَقُ

وَفَوْقِي سَحَابٌ يُمْطِرُ الشَّوْقَ والْهَوَى وَتَحْتِي عُيُونٌ لِلْهَوَى تَتَدَفَّقُ

وبناءً على هذه المحبَّةِ يجعل الصوفية من الموتِ عنوانًا، فيكثرون في شعرهم من ذكر موتِ المحبِّين عشقًا، قاصدين الموت في مفهومه الصوفي (إماتة تعلُّقات النفس) وفي مفهومه العام. ومن هنا قال ذو النُّونِ المصري في مطلع إحدى قصائده:

أَمُوتُ وَمَا مَاتَتْ إِلِيكَ صَبَابَتِي وَلَا قُضِيَتْ مِنْ صِدْقِ حُبِّكَ أَوْطَارِي

ولاقتراب الطائفتين (أعني: الصوفية والعذريين) في هذا الموضوع، أُعجب الصوفيةُ دومًا بالعذريِّين من الشعراء، وتمثلوا في شرح أحوالهم بأبيات الشعر العذريِّ التي تفيض رقةً وتذوب حبًّا، خاصةً أن الشعر العذريَّ تندر فيه الصور الحسية الفجة، التي تندر أيضًا في شعر الصوفية...اللهم إلا ما نجده عند الإمام الشيخ عبد الغني النابلسي، الذي عمد في بعض الأحيان إلى إغراق شعره في الرمز الحسِّي، حتى وقف بأبياته على أبواب الشعر الصوفي، ولم يتسامَ بها لِتَلِج فيه.

*وللشعر الصوفيِّ **خاصيةٌ تتعلق بعدد الأبيات**، فباستثناء بعض القصائد الصوفية المطوَّلة التي ابتغى أصحابها ترجمة التجربة الروحية بأسرها، وهي قصائد

تُعدُّ أبياتُها بالمئات؛ كالتائية الكبرى، والنادرات العينية، وأشعار العطار والرومي الفارسية.. فإنَّ الأغلب الأعمَّ من شعر الصوفية يأتي في أبياتٍ قصار، تُلمِّح كل مجموعة منها إلى لطيفةٍ ذوقيةٍ مفردةٍ، أو بضعة لطائف سرعان ما يحجم الصوفيُّ عن الإسهاب فيها، ويقف بقصيدته عند أقل عدد من الأبيات.. ولهذا فإنَّ العديد من الدواوين الشعرية لكبار الصوفية تشتمل على مقطوعات شعرية لا تزيد أبياتها على الخمسين، بل تقف أحيانًا عند بيت أو بيتين فقط! والمثال على ذلك تجده في دواوين الحلَّاج والشبْلي وابن عربي والتِّلْمساني والشُّشتَري وعبد الهادي السُّودي اليمني.

***ومن الناحية العروضيَّة وعيار الشعر**: جاءت أغلب أشعارِ القوم من البحور المشهورة المتداولة؛ كالطويل والوافر والكامل؛ لما تتميَّز به هذه البحور من اتِّساعٍ ومرونة تُمكِّن الشاعر -من خلال كثير من السواكن والمتحركات- من التعبير عن أغراضه. ومع ذلك كان الصوفية كثيرًا ما يضيقون بقواعد الشعر ويعدُّونها قيودًا، فيكسرون جدران التفعيلات في بعض أبياتهم، دون التفات إلى المباح وغير المباح للشعراء مما يُغضب أهل العروض كثيرًا، وقد عبر عن هذا الضيق بقيود بحور الشعر شاعرٌ صوفي لا نظير له؛ أعني مولانا جلال الدين الرومي، فعلى الرغم من أنه وضع ديوانه (المثنوي) على قاعدة النظم الذي يعرف في العربية بالمزدوج، والذي يعتمد في

التقفية على توحيد القافية في شطري كل بيت؛ تحريرًا للمنظومة من القافية الموحدة؛ يعود فيضيق بتحكم التفعيلات في آفاق النقش بالكلمات، فيقول:

إِنَّني أُفَكِّرُ في القَافِيَةِ، وَحَبِيبِي يَقُولُ: لَا تُفَكِّرَ في شَيءٍ سِوَاي!

ويقول:

المعْنَى في الشِّعْرِ كَحَجَرِ المِقْلَاعِ، لَيْسَ لَهُ اتِّجَاهٌ مُحَدَّدٌ.

ويقول:

مُفْتَعِلنْ مُفْتَعِلُنْ مُفْتَعِلُنْ.. قَتَلتنِي!!

وبطبيعة الحال؛ فالشاعر الصوفي لم يكن ليلجأ إلى المهجور من البحور الشعرية ليعبّر به، فذلك عنده تكلف لا طائل تحته؛ لأنَّه لايرمي إلى الإِبهار اللغوي ولزوم ما لا يلزم ليُسعد به الفصحاء، وإنما هو في نهاية الأمر يترجم بالأبيات معنًى عاينه عند فيضان الوجد.

*وأخيرًا، فثمة خاصية يمكن وصفُها بأنها **سمة مميزة في الشعر الصوفي**، تتمثَّل في **هذا الحشد الوافر من الأبيات المجهولة** القائل، ففي الكتب الأمهات التي أرخت للتصوف ورجاله في القرون الأولى تتوالى المقطوعات الشعرية المجهولة القائل، مسبوقة بكلمات مثل: وقال بعضهم، وأنشد في معناه، ولله در القائل، وقيل.. إلخ..

بل نراهم أحيانًا ينسبون عددًا من الأبيات لغير واحد من أهل الطريق. ومن أمثلة ذلك: الرباعية الشهيرة (أُحِبُّكَ حُبَّيْنِ..) التي نسبتها بعض الكتب إلى رابعة العدوية، وذكرتها كتب أخرى عند تَرجمة صوفي متأخر عنها بسنواتٍ عِدَّة؛ هو ذو النون المصري.. ومن الأمثلة أيضًا: تلك الأبيات الرقيقة التي لم يُعرف حتى اليوم قائلها:

قَوْمٌ هُمومُهمُ بِاللهِ قَدْ عَلَقتْ فَمَا لَهُمْ هِمَمٌ تَسْمُو إلَى أَحَدِ

فَمَطْلَبُ القَوْمِ مَوْلَاهُمْ وَسَيِّدُهُمْ يَا حُسْنَ مَطْلَبِهِمْ لِلْوَاحِد الصَّمَدِ!

مَا إنْ تَنَازَعَهُمْ دُنْيَا ولَا شَرَفٌ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَاللَّذَّاتِ وَالْوَلَدِ

وَلَا لِلُبْسِ ثِيَابٍ فَائِقٍ أَنِقِ وَلَا لِرَوْحِ سُرُورٍ حَلَّ في بَلَدِ

إلَّا مُسَارَعَةً فِي إثْرِ مَنْزِلَةٍ قدْ قَارَبَ الْخَطْوَ فِيهَا بَاعِدُ الأَبَدِ

فَهُمْ رَهَائِنُ غُدْرَانٍ وَأَوْدِيَةٍ وَفِي الشَّوَامِخِ تَلْقَاهُمْ مَعَ الْعدَدِ

تلك هي الخصائصُ العامة للتراث الشعريِّ الذي تركه الصوفية، وإذا كانت هذه الخصائص عامة بين شعراء الصوفية؛ فإنَّ من ورائها بعض السمات المميِّزة لكل شاعرٍ صوفيٍّ على حِدة؛ **كهذا الولع بالتصغير والجناس** الذي نجده في شعر الإمام ابن الفارض، **وجمود اللفظ وتوالي المترادفات** عند الإمام ابن عربي، **والخيال الواسع ورقة**

التصوير عند الشيخ عفيف الدين التلمساني، **والتدفق الإبداعي** عند الإمام جلال الدين الرومي.. وغير ذلك؛ إلا أن هذه السمات الخاصة بأبيات كل شاعرٍ منهم لا تخرج عن الخصائص العامة للشعر الصوفيِّ، وإنما تُضاف إليها.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الاستعارة عند شعراء التصوف

هذا الدرس تابع لبحث الشعر الصوفي..

سألني أحدهم: ما سبب استعارة هذه الألفاظ في الشعر الصوفي؟

سؤال وجيه لا بد من الإجابة عنه حتى تتم قضية احترام الشعراء الصوفيين، فالشعراء الصوفية ذكروا كثيرًا من ألفاظ **الحب والهيام**، وألفاظ **النشوة والخمرة**، فما مرادهم منها؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة شيئين مهمّين:

الأول: أن التصوف ليس فلسفة ولا عقيدة، بل هو شعور وتذوق، التصوف رياضة روحية ومجاهدة نفسية؛ للتقرب من رب البرية، والفوز برضاه ومحبته الأبدية، ليس التصوف إخراج الدنيا من اليد فقط، بل إخراجها من القلب؛ إذ لا رهبانية في الإسلام.

الثاني: أن المتصوفة ارتقوا إلى معارج عالية من الشعور والتذوق، ولما أرادوا أن يصفوا ما يشعرون به لم يجدوا ألفاظًا تعبر عن مواجدهم الشفافة، وأشواقهم الملتهبة في المعجم الديني؛ إذ لكل غرض شعري ألفاظه، **فأغاروا على شعر الغزل** ليعبّروا عن حبهم لله وشوقهم إليه، وخاصة بعد أن عبّر الله مولانا عن الحب في كتابه فقال: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وأغاروا على شعر الخمريات ليعبروا عن نشوتهم ولذاتهم في طاعتهم وذكرهم.

فها هو القطب الدسوقي يرتشف من كأس المحبة الإلهية فيقول:

سقانيَ محبوبي بكأس المحبة فتِهْتُ عن العشاق سكرًا بخلوتي

ولاح لنا سر الجلالة لو أضا لِصُمِّ الجبال الراسيات لدُكَّتِ

وهاهو سيدنا ابن الفارض يقول:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكَرْمُ

سكر من خمرة المحبة الإلهية التي هي أصل الوجود والخلق، والسكر هنا حالة من الفناء تعتري الذاكر فيغيب في الله عن الوجود كما يغيب السكران بشرب الخمر، ولكن شتان بين من غاب عن الوجود بالله ومن غاب عن الله وغفل عنه بالدنيا، ألا

ترى قوله: (سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم) أي: من قبل أن يخلق العنب، إنها إذن خمرة المحبة الإلهية التي قال عنها رب العزة: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

إن الفناء **في الله هو إيثار إرادة الله وأوامره على رغبات النفس وشهواتها**، أما الفناء بمفهوم الكفار فهو اجتهاد العبد في الزهد والتقشف حتى ترق مشاعره، فيستأهل به حينئذ أن يحل الله فيه كما حل في مريم العذراء فأصبح بعضها بشرًا وبعضها إلهًا، وهذا مايسمى بالحلول؛ وهو أن يحل الله في بعض عباده ويذوب في مخلوقاته كما يذوب السكر في الشراب!! هذا كفر وزندقة، وهو يوصلنا إلى قضية وحدة الوجود؛ وتعني في الإسلام: لا وجود على الحقيقة إلا لله ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ [الرحمن: ٢٦] ووجود سائر المخلوقات وجود مجازي غير حقيقي ما دامت ستفنى ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٧] فوجودها مجازي، أما الوجود الحق فهو لله.

أما في المفهوم الفلسفي -**وهو كفر**- فالصانع هو نفسه المصنوع، والخالق هو المخلوق: البحر هو الله، والجبل هو الله، والإنسان هو الله!! فهذا كفر وزندقة وخروج عن الإسلام، وقديمًا طار رأس الحلاج لأنه قال: ما في الجبة إلا الله. وأول من أفتى بقتله شيخه الإمام الجنيد رضي الله عنه. وقد تقدم معنا الحديث عن الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

نعود فنقول:

***وهل للشاعر أن يستعمل هذا اللفظ: (السُّكر) تعبيرًا عن لذته ونشوته؟.**

أقول: نعم يجوز؛ لأن القرآن الكريم استعمل هذا التعبير في مواضع من الكتاب العزيز ليدلّ على أن صاحبه كأنه شرب الخمر فسكر، هو لم يشربها، لكنه كأنه فعل فسكر بها.

أين هذا في كتاب الله تعالى؟

في ثلاث سور منه: في سورة ق، وسورة سيدنا محمد، وسورة الحج.

فعلى موجات سورة ق (١٩) ﴿**وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ**﴾ [ق: ١٩] وعلى موجات سورة سيدنا محمد (١٥): ﴿**وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ**﴾ [محمد: ١٥] وعلى موجات سورة الحج (٢): ﴿**وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**﴾ [الحج: ٢]

وهنا يصح أن نقول عن شعراء الحب: إنهم سكارى، وما هم بسكارى، على الحقيقة بشرب الخمر، والعياذ بالله، ولكن حبّ الله تعالى في قلوبهم وجوارحهم كبير أسكرهم عن الدنيا وما فيها.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله﴾ [البقرة: ١٦٥] هذا هو لسان حال الشعراء الإسلاميين..

وقلت لكم وما أزال أقول: إن كبار الصوفية ملتزمون بالقرآن والسنة، والتصوف عندهم هو شدة التمسك بالكتاب والسنة.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

تاريخية التصوف

ما العلم الذي يهدف إلى تهذيب النفس وترقيق القلب وتنمية المراقبة الذاتية لله تعالى؟

ما الفن الذي يجعل صاحبه منصرفًا إلى مرضاة الله تعالى وإخلاص النية والبعد عن الرياء والمعاصي وارتكاب المناهي؟

ما الشخصية التي توجب على صاحبها أن يجمع بين الفقه وعلوم الشريعة، وبين السلوك والتربية والصلة بالله تعالى؟

أستطيع أن أقول بكل فخر واعتزاز: **إنه التصوف أو الزهد أو الورع أو الطريقة،** سمِّهِ ما شئتَ فهو من الإسلام، فلا مشاحة في الإصطلاح.

نعم؛ هذا المصطلح أو هذا العلم لم يعرف في القرن الأول، ولكن الصحابة والتابعين ضربوا فيه بنصيب وافر، فلم يَتسَمَّ عصر الصحابة بتسمية علمٍ سوى أنهم أصحاب سيدنا رسول الله؛ إذ لا أفضلية فوقها، فأطلق عليهم: الصحابة.

ولما أدرك أهل العصر الثاني سُمِّي مَن صحب الصحابة بالتابعين،

ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ومن لهم شدّة وعناية بأمر الدين: **الزُّهَّاد والعبَّاد**.

ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادَّعَوا أن فيهم زهَّادًا، فانفرد خواصُّ أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم: **الصوفية** (من التصوف) واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المئتين من الهجرة، وأول من سمي بالصوفي أبو هاشم الصوفي المتوفى سنة (١٥٠هـ) وقد جمع سيدنا أبو عبد الرحمن السُّلمي في كتابه «الزهد» من الصحابة والتابعين وتابعيهم ما شاء الله تعالى.

وكان الزهد ـ أيها السادة ـ هو البذرة الأولى للتصوف، ويعدّ الإمام الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) من أهم رواد التصوف، وأقدم كتاب للزهد بين أيدينا لأهل السنة والجماعة كتاب لسيدنا عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) ثم للإمام أحمد ابن حنبل (ت ٢٤١هـ) ثم للكلاباذي (محمد بن إسحاق الحنفي ت ٣٨٠هـ) وهو كتاب «التعرف لمذهب التصوف»، ثم «قوت القلوب» لأبي طالب المكي (محمد بن علي ت ٣٨٦هـ).

ثم تجمعت هذه الأقوال في كتاب واحد يعد موسوعة للتصوف هو كتاب «حلية الأولياء» للمحدث أبي نُعَيم الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ) .

فالتصوف ـ أيها الإخوة ـ عرف به جهابذة الرجال، ومن أعلامهم في القرن الثاني محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ) وابن المبارك، والفضيل بن عياض ومعروف الكرخي (٢٠٠هـ) وبشر الحافي (٢٢٧هـ).

ولما سئل الإمام تقي الدين السبكي عن الصوفي الحق؛ قال: **الصوفي من لزم الصدق مع الحق، والخُلُق مع الخَلْق**، وطريق الصوفي إذا صحت هي طريقة الرشاد التي كان السلف عليها، ثم أنشد بديهة:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قِدمًا وظنوه مشتقًّا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسمَ غيرَ فتًى صافى فصوفيَ حتى لُقِّبَ الصوفي

ثم تكاملت صورة التصوف الإسلامي في القرنين الخامس والسادس من الهجرة النبوية، وبدأ يأخذ طريقه على أنَّه منهج إصلاحي منظَّم عن طريق الدعوة الروحية والمجاهدات النفسية والخلقية في مواجهة تيار الترف.

التصوف في القرن السابع الهجري:

ثم هبت عاصفة عقلية جامحة في القرن السابع الهجري بعثها علم الكلام (العقيدة) الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة، وكانت هذه العاصفة ضدَّ المعتزلة والفلاسفة، فانطفأت بها مجامر القلوب حتى أصبحت رمادًا وركامًا بشريًّا، وانتصر في هذه المعركة الكلامية الأشاعرةُ أهل السنة والجماعة، وفقد الاعتزال والفلسفة شيئًا كثيرًا من سيطرتهما ونفوذهما، وجاء العلامة فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) فجدَّد دولة علم الكلام ووسَّعها بشخصيته القوية ومؤلفاته العظيمة وبحوثه الدقيقة، ولم يتم ذلك إلا بعد حروب كلامية كثيرة في العقيدة، وجدل مستفيض حوَّل العالم الإسلامي إلى مدرسة فيها القيلُ والقال، والنقاش والجدال، بعيدًا عن العاطفة، وصار عند الناس جفاف عاطفي رهيب..

وفي هذا الجو العقلي كان العالم بحاجة إلى شخصية قوية عبقرية تملأ القلوب عاطفةً تعادل كفَّة الطغيان العقلي، وفي وسط هذه العاصفة هتف هاتف بالحب والعاطفة، فهب العالم الإسلامي من نومه العميق، ودبت فيه الحياة، إنه إمامنا اليوم، إمامنا اليوم ـ يا سادة ـ أعاد للعالم توازنه، وكان ديوانه الشعري المثنوي ثورةً على المعتزلة والفلاسفة الذين بالغوا في تقدير الحواس وتقديس العقل.

خاطب العالم أجمع بلغة الحب والعاطفة؛ الحب الذي يحوّل المرَّ حلوًا، والتراب تبرًا، والكدر صفاء، والألم شفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، خاطبهم بلغة الأحباب التي تلين الحديد وتذيب الحجر، وتبعث الميت وتنفخ فيه الحياة والحب الذي إذا سرى في الجبال الراسيات ترنحت ورقصت طربًا؛ كما أنه ﴿**فلما تجلّى ربُّه للجبل جعله دكًا وخرَّ موسى صعقًا**﴾ (الأعراف ١٤٣)، إنَّه الحب يطير بالعبد بجناحه من المادة إلى عالم الروح.

إنه سيدنا ومولانا الإمام جلال الدين الرومي

بهذه اللغة خاطب أهل القرن السابع، ناداهم: إن الحب شعلة تحرق كلَّ ما سوى المحبوب، وقال لهم: لقد رأينا كثيرًا ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجِّي، ولكن ما رأينا سفينة الإيمان والحب تَغْرَق "إن مكانة الحب لا تنتهي؛ لأن الحب وصفُ مَن لا يفنى ولا يموت".

إننا اليوم نزور معًا سيدًا بقي حياته في شعره الرنَّان، يتغنى بالعاطفة والحب والإيمان، حتى دبَّ في مجتمعه دبيب الحياة، وترنَّح بهذا الرجز والحُداء القوي الأدبُ الإسلامي كلُّه، ردَّده الشعراء وضربوا على وتره، وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمَّى الاعتزاز بالإنسانية، أو تكريم الإنسان.

كان يقول لمريديه: هل وُجّه قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ (الإسراء٧٠) إلى السموات والأرض؟ لمن وجِّه هذا التكريم؟ إنه لم يوجه إلا لهذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته..

إن الإنسان مظهر لصفات الله تعالى وأثرٌ من قدرته، وهو المرآة الصادقة التي تجلَّت فيها آياته، نادى إمامنا هذا الإنسان فقال له: (يا من من عبيدُه العقل والحكمة والمقدرة؛ كيف تبيع نفسك رخيصة؟ إنَّ الله اشتراك وخلَّصك من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد، فالشيء لا يباع مرتين) .

(فهل أنت من الرجال أم من أشباه الرجال ولا رجال؟! هل أنت فريسة شهوتك، لا تعرف من إنسانيتك سوى الشبع والري والشهوة؟!).

ثم قال لهم: (إن هؤلاء ليسوا رجالًا، إنما هم صُوَر الرجال، هؤلاء الذين يَحْكُم عليهم الخبز، وقتلتِ الشهوات فيهم الإنسانية).

أيها المحبُّون للحقيقة؛ لا تغترُّوا بأدعياء التصوف الذين يهرفون بما لا يعرفون..

اعرفوا الرجال بالحق ولا تعرفوا الحق بالرجال...

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

بين علمي الشريعة والحقيقة

الشَّريعة: أحكام الإسلام، والحقيقة: المقصود الأساسي من الشَّريعة.

الإسلام: هو الجانب العملي من عبادات ومعاملات، ومحلُّه الجسم، وقد اصطلحوا على تسميته بالشَّريعة، واختصَّ بدراسته السَّادة الفقهاء.

وأما الحقيقة فهو الجانب الروحي القلبي وما فيه من أحوال وأذواق وجدانيَّة، اصطلح على تسميتها بالحقيقة، واختصَّ بدراستها السَّادة الصُّوفيَّة.

مثلًا: الصَّلاة حركات وأعمال ظاهرة هي جسد الصَّلاة، والاتصال بالله وحضور القلب مع الله تعالى في الصَّلاة يمثِّل جانب الحقيقة، وهو روح الصَّلاة، وما فائدة الجسد بلا روح؟!.

ولذا جاءت الآية: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الأنعام: ٧٢]، والإقامة تعني: الإقامة بجسد وروح، ولذا لم يقل: صلُّوا، فالتَّلازم بين الشَّريعة والحقيقة كتلازم الرُّوح والجسد.

وللوصول إلى هذا المقام الرَّفيع والإيمان الكامل لا بدَّ من سلوك الطَّريقة؛ وهي مجاهدة النَّفْس، وتصعيد صفاتها النَّاقصة إلى صفات كاملة، والتَّرقي في مقامات الكمال بصحبة المرشدين، فهي الجسر الموصل من الشَّريعة إلى الحقيقة.

فالشَّريعة هي الأساس، والطَّريقة هي الوسيلة، والحقيقة هي الثَّمرة، وهذه الأشياء الثَّلاثة منسجمة متكاملة، وقد مرَّ الحديث عنها.

لكن لماذا كان أفضل العلماء هم العارفون بالله؟

ولماذا كان علماء الحقيقة أفضل من علماء الشريعة؟

العلماء إنما يَشْرُفُون على قدر شرف علومهم، وشرف العلوم على قدر شرف متعلقاتها، فعلوم المعارف المتعلقة بالله تعالى أشرف العلوم، وأصحابها أشرف العلماء، وبعدها علم الفقه؛ لتعلقه بأحكام الله تعالى وشرعه الذي تعبَّد به عباده.

وجميع العلوم وسيلة إلى هذين العلمين المشتملين على معرفة الله تعالى ومعرفة عبادته؛ لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبادته؛ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعابد مفتقر إلى معرفة المعبود ومعرفة كيف يعبده، **هذا أولًا**.

وثانيًا: أشرف العلوم لا تنال بالكسب، وإنما تنال بالوهب، فالعلوم الوهبية أو اللدنية أفضل العلوم، وأصحابها أفضل العلماء.

والدليل على ذلك من أوجه:

الوجه الأول: من كتاب الله تعالى حين قال عن سيدنا الخضر: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا**﴾ [الكهف: ٦٥].

الوجه الثاني: فضَّلَ رسول الله سيدنا أويسًا القرني على طبقة التابعين؛ لشغله وولهه بمحبة الله تعالى.

الوجه الثالث: من المعقول: أن المعارف والعلوم اللدنية يَخُصّ الله بها الولي والصدّيق، والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق.

أيها المحتفلون بعلم التصوف وبرجاله الأفذاذ؛ إن علماء الحقيقة أفضل من علماء الشريعة، أتعرفون لماذا؟

لأن علماء الحقيقة علماء بالشريعة وزيادة، فهم علماء بالحقيقة والشريعة، والحقيقة نهاية عزائم الشريعة، والحقيقة مشاهدة أسرار الربوبية للعلماء بالله الذين كُشِفَ لهم

الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى، وسكروا بمحبة المولى، وهاموا بأسمائه الحسنى، وهم يرددون:

يا عين سحّي أبدا يا نفس موتي كمدا

ولا تحبي أحدا إلا الجليل الصمدا

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السادس والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

حضرة الذكر

الحضرة: مصطلح إسلامي صوفي يطلق على مجالس الذكر الجماعية التي يؤديها المسلمون المنتمون إلى الطرق الصوفية السُّنِّية خاصة، ويكون على رأسها شيخ عارف بالطريقة ينبه على كل ما من شأنه أن يشوش إمكان الوصول إلى لحظة الصفاء.

سميت بذلك لأنها **سبب لحضور القلب مع الله**.

وهي ركن مهم في طريق الصوفية، يتم فيها أداء أشكال مختلفة من الذكر، تبدأ بتلاوة حزب من القرآن، ثم بقراءة فصل من «البردة» للإمام البوصيري، وقراءة النصوص الأخرى من أدعية وأوراد، وإلقاء الشعر والإنشاد الديني، وخاصة المديح النبوي المتخصص بذكر سيدنا رسول الله والصلاة عليه، والذكر الجماعي على نحوٍ إيقاعي، وتلاوة أسماء الله الحسنى. ثم يقام درس من دروس التصوف أو من علوم الشريعة ثم يختم بالدعاء، وتكون في معظم الأحيان في ليلة الخميس بعد صلاة العشاء، أو يوم الجمعة بعد صلاة الجمعة.

ومن الصوفية من يستخدم أحيانًا الدف أثناء الحضرات، وهذا مذموم في المساجد، وبعض الطرق تستخدم آلات أخرى.

تُعْرَفُ الحضرة بهذا الاسم في الدول العربية وبعض الدول الإسلامية غير العربية مثل أندونيسية وماليزية، وتعرف بأسماء أخرى في تركية ودول البلقان.

حكم الحضرة في الإسلام:

أصل الحضرة في الشريعة الإسلامية عند المتصوفة يرجع لتفسيرهم لبعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدعو إلى الذكر والدعاء الجماعي والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، ويرون أنها من الوسائل التي ترفع الهمة وترغّب الفرد في أداء واجباته الدينية.

وأما أدعياء السلفية الأصولية فيعدُّون الحضرة بدعة ليست من الإسلام.

وقد قال الأصوليون: **إنَّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره.**

فتعالوا نستعرض **مفردات حضرة الذكر**:

أوَّلًا: الحضرة فيها الحركة؛ حركة القيام وحركة الركوع.. والحركة مباحة في الإسلام، لا يقال عنها: حلال، ولا: حرام، ولو كانت حرامًا لحرم السعي في الحج، ولحرمت الهرولة في الطواف حول البيت العتيق.

ثانيًا: الحضرة فيها الذكر بالاسم المفرد: (الله) وهذا جائز، بل نحن مأمورون به في قول الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٨] وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩١] قال المفسرون: أي: على كل حال.

وثالثًا: الحضرة فيها الإنشاد الديني لرجال تعلقت قلوبهم بالله، وما أكثر ما وقف المنشدون أمام الحبيب الأعظم صلوات الله وسلاماته عليه ينشدون زفرات حبهم لرسول الله!! وقد تقدم ذكر بعض أناشيدهم، ولا يقول أحد: إن الأناشيد والأشعار التي ألقيت أمام سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم غير ملحنة، فإن كلامه مردود بألحان أنجشة عندما ركب النبي الكريم مع أمهات المؤمنين الجمال، وراح حادي العيس يغني بالألحان والإيقاع حتى صارت الإبل تسرع في مشيها وحركتها؛ مما سبب بعض الأذى لهن، فقال الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم: «يا أنجشة رفقًا بالقوارير» وكذا لعب الحبشة وغناؤهم وقولهم: محمد عبد صالح.

هذه هي مفردات الحضرة فهل فيها ما يعيب؟!

وأما ما يفعله بعض جهلة المتصوفة من شرب الدخان في مجالسهم، واختلاطهم بالنساء، وقيامهم برفع أرجلهم عن الأرض، وربما رقصهم وتثنيهم كالنساء؛ فهذا حرام.. حرام.. حرام.. حرَّمه الإسلام ونحن على تحريمه سائرون.

حكم الحضرة عند سيدنا عقيل المنبجي:

أقيم مجلس السماع (الإنشاد والحضرة) أمام سيدنا عقيل المنبجي رضي الله عنه، واشتد السماع، فصار الفقهاء يسمعون الدفوف وهي تقول: الله الله. فقام أحد الفقهاء فدخل في وسط الحضرة، وجعل يدور ويتمايل في السماع.

فقال له الشيخ عقيل: ما بالك تدور؟! فقال الفقيه: كان عندي مسألة مشكلة علي منذ زمان، أطلعني الله عليها الآن، فتمايلت بذلك سرورًا، فلم أتمالك نفسي من الطرب.

فقال الشيخ عقيل:

يا بطَّال؛ هذا من أجل فرحك في مسألة؟! فكيف تنكرعلى من كان حبه وفرحه بالله تعالى؟!

فقال أحد المريدين: سيدي هذا الوجد الذي يحدث للمريدين ما شأنه؟ فقال: الوجد سرّ من أسرار الله تعالى، تحركه رياح الأنس من بحار القدس، لا يقع على

كيفية، بل يتفرق على الأعضاء، فما وقع في اليد كان منه التصفيق، وما وقع في القلب كان منه البكاء، وما وقع في الرِّجل كان منه الرقص، وما وقع في الروح كان منه الصراخ، وما وقع في السويداء كان منه الغشيان، فهذه كلها أسرار الوجد.

فقال الشيخ أحمد بن سويدان خليفته: لم لا تتحرك يا سيدي في السماع؟

فقال: يا أحمد؛ الجواب في قوله تعالى ﴿**وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ**﴾ [النمل: ٨٨] فقال الشيخ أحمد: ما معنى ذلك يا سيدي؟! فقال: يا أحمد القوي لا يتحرك في غالب الأحوال؛ وإنما يتحرك ضعيف الحال، كما قال الإمام الجنيد: " إن حركات المريدين لضعفهم وضعف قوتهم ".

فقيل للشيخ عقيل: إن بعض الناس تنكر علينا.

فقال الإمام: والله لا ينكر إلا كل أعمى قلب.

السعادة لهؤلاء السادة، أينكر عليهم التحلي بمحاسن الصفات والتخلي عن مساوئها؟ أم طهارة القلب وجلاه من الصدأ؟ أم مخالفة النفس الأمارة بالسوء وتزكيتها ونهيها عن الهوى؟ أم الجد والاجتهاد [في العبادة] ومواصلة الأوراد، واستغراق الأوقات بالذكر ومراقبة المولى؟ أم [ينكر عليهم] حضور القلب ونفي الغفلة عند مذموم الخطرات؟ أم الإقبال على الله تعالى والإعراض عمن سواه من

جميع المخلوقات؟ أم العمل بعزائم الشريعة المشتملة على مقامات اليقين، التي هي عندهم التوبة من الغفلة عن الله تعالى؟ أم الأحوال الفائضة عليهم من غيض الفيض، والمواهب السنية؛ كالمحبة لله والشوق إلى الله والأنس بالله والهيبة لله؟ أم تُنكر المكاشفات وسائر الكرامات؟؟ فليس ينكر شيئًا من جميع المذكورات إلا كل محروم النوال، بعيد عن طريق الخير، جامد غير ذائق ولا معتقد ولا مصدّق بما خص الله به الرجال.

ولأن الصدق والنقل أمانة: أذكر ما حدَّث مولاي السيد الوالد رحمه الله تعالى أنه رأى يقظة الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم يذكر الله بالحضرة الشاذلية، فقد كان في الجامع الأموي يحضر درس شيخه شيخ الشام في وقته الشيخ هاشم الخطيب، وطلابه يقرؤون الأناشيد الدينية بعد مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم قبل فجر الجمعة، وأنشد المنشدون:

صفا وقتنا طاب الزمان بمدحه فقوموا على مدح الحبيب إلى الرقص

يقول: وكان الحبيب الأعظم يحضر هذا المجلس، فخاطبتُه: يا رسول الله؛ ما الرقص المحمدي؟، فإذا به يرى السيد الأعظم يأخذ بيد الشيخ هاشم الخطيب والسيد الوالد ويقيم حضرة الشاذلية: الله.. الله.. الله.. الله.. قيامًا وركوعًا.. ورأى

الشيخ رشيد الحبال الحبيب الأعظم صلى الله عليه وسلم يقيم حلقة الذكر، وكان في المعزبة الوسطى لمسجد بني أمية، فأتى هو وجماعته الذاكرون يشاركون بهذه الحضرة التي لم يشهد لها الجامع مثيلًا.

وسيدي الوالد صادق صادق، من عرفه فقد عرفه... رحمه الله ورفع قدره عنده.

كلام أئمة الفقه في الحضرة:

ذُكِرَ حكم حضرة الذكر عند كثير من أئمة الصوفية، وأما عند الفقهاء فقد مر بعض أقوالهم عند سماع الأناشيد الدينية:

قال الإمام النووي في «الروضة»: (الرقص ليس بحرام) وهذا إذا كان بلا تكسر كفعل المخنثين، وإنما هو استقامة واعوجاج.

وفي كتاب **"الفتاوى الحديثية"** لابن حجر الهيتمي[1] ذكر حكم الحضرة ونصه:

"سُئل نفع الله به عن رقص الصوفية عند تواجدهم هل له أصل؟

(فأجاب) بقوله: نعم له أصل؛ فقد روي في الحديث أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه رقص بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، لما قال له: «**أشبهت خَلقي**

---

(١) «الفتاوى الحديثية» (ص٢١٢).

وخُلقي»؛ وذلك من لذة هذا الخطاب، ولم ينكر عليه صلى الله عليه وسلم، وقد صح القيام والرقص في مجالس الذكر والسماع عن جماعة من كبار الأئمة؛ منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام" انتهى.

فهذه هي فتوى الإمام ابن حجر الهيتمي، الفقيه الشافعي المعروف، المتوفى (٩٧٤هـ)

-ووجدنا مثل هذا الكلام عند السيوطي في كتابه **"الحاوي للفتاوي"**[1]:

"وقد ورد في الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي النَّبيِّ صلَّى اللهّ عليه وسلَّم لَمَّا قال له: «**أشبهت خَلْقي وخُلُقي**»، وذلك من لذّة هذا الخطاب، ولم ينكر ذلك عليه النَّبيُّ صلَّى اللهّ عليه وسلَّم، **فكان هذا أصلًا في رقص الصّوفيّة لِما يدركونه من لذّات المواجيد**، وقَد صحّ القيام والرقص في مجالس الذّكر والسّماع عن جماعة من كبار الأئمّة؛ منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام" انتهى.

فإذا أضفنا إليه رقص الحبشة ونظر النبي الكريم إليهم وإقرارهم؛ تمت الأدلة لمن لا يفهم، وقطعت جهيزة لسان كل معارض.

---

(١) «الحاوي للفتاوي» (٢ / ٢٣٤).

ففي حديث أمنا السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها:

(رَأَيْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يَسْتُرُنِي، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَى الْحَبَشَةِ، **وَهُمْ يَلْعَبُونَ فِي الْمَسْجِدِ**، فَزَجَرَهُمْ عُمَرُ فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «**دَعْهُمْ، أَمْنًا بَنِي أَرْفِدَةَ**» يَعْنِي مِنَ الأَمْنِ[1]).

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

(١) رواه البخاري (٣٥٣٠).

الدرس السابع والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

بيان آداب الذكر التي يجب أن يعرفها الذاكر

الذكر الجهري له آداب ثلاثة:

آداب سابقة على الذكر.

وآداب مقارنة للذكر.

وآداب لاحقة على الذكر.

وقد عد المشايخ رضي الله عنهم للذكر ألف أدب..

ثم قالوا: ويجمع هذه الآداب كلها عشرون أدبًا، على المُريد التحقق بها:

١- خمسة منها قبل الشروع في الذكر.

٢- واثنا عشر حال الذكر.

٣- وثلاثة بعد الفراغ من الذكر.

فالخمسة التي قبل الشروع في الذكر:

-١- التوبة النصوح: وهي أن يتوب من كل ما لا يعنيه من قول أو فعل أو إرادة.

-٢-الغسل أو الوضوء كلما أراد الذكر، وتعطير ثيابه، وربما يقول أحدهم: ألا يصح أن نذكر من غير وضوء؟

والجواب: نعم يصح الذكر من غير وضوء، ولكن السائر إلى الله يطلب الدرجات العلا من الكمال؛ استنانًا بسيد الخلق سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

-٣- السكون والسكوت قبيل الذكر؛ ليحصل له الصدق في الذكر، وذلك أن يشغل قلبه بالله، (الله الله)، بالفكر دون اللفظ؛ حتى لا يبقى خاطر مع (الله الله)، ثم يوافق اللسان القلب، فيقول: ((لا إله إلا الله)) يفعل ذلك كلما أراد الذكر.

-٤ -أن يستمد عند شروعه في الذكر من همة شيخه عندما يلقنه الذكر؛ ليكون رفيقه في السير.

-٥- أن يرى أن استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من سيدنا رسول الله صلَّى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

وأما الاثنا عشر حالًا التي تكون أثناء الذكر:

-١-الجلوس على مكان طاهر؛ كجلوسه في الصلاة عند التشهد الأول.

-٢-أن يضع يديه على فخذيه، ويستحب جلوسه للقبلة إن كان يذكر وحده، وإن كانوا جماعة تحلَّقوا (أي: جلسوا حلقة).

-٣-تطيُّب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة.

-٤-أن يكون ملبسه حلالًا.

-٥-اختيار مكان هادئ ومناسب للذكر وخصوصًا المساجد.

-٦-إغماض العينين؛ وذلك أن الذاكر إذا أغمض عينيه يسُد عليه طرق الحواس الظاهرة شيئًا فشيئًا، وسدها يجعل التركيز في الذكر أقوى، وهذا عند مَنْ يشغله مَنْ حوله.

وعند النقشبندية أن يخيل شخص شيخه بين عينيه وكأنه ذاكر معه ناظر إليه، وذلك يجعل المُريد يقظًا متأدبًا في الذكر؛ لأن المُريد يترقى منه إلى الأدب مع الله تعالى والمراقبة له، فإن استغرق في الذكر ترك استحضار شيخه ولزم المذكور.

-٧-الصدق في الذكر؛ بأن يستوي عنده السر والعلانية فيه.

-٨-أن يجاهد في طرد وساوس الشيطان وهواجس النفس، وألَّايشغل قلبه بأمور الدنيا، وأن يجتهد في الحضور بقلبه وهمته فيما هو فيه من الذكر وما يرد عليه من واردات وأحوال متهيئًا لما يمنُّ الله به عليه من تجليات إفضاله.

وألَّا يقوم بالصراخ في حضرة الذكر؛ بأن يخشع قلبه لتخشع جوارحه..

وألَّا يرفع رجليه عن الأرض أثناء الذكر خصوصًا في المسجد؛ لئلا يتلف سجاده فيرتكب إثمًا والعياذ بالله!

-٩-الإخلاص وتصفية العمل من كل شوب، وبالصدق والإخلاص يصل العبد إلى مقام الصديقية.

-١٠-أن يختار من صيغ الذكر لفظة: (الله الله) أو ((لا إله إلا الله)) فإن لها أثرًا عظيمًا عند القوم، فإن فنيت شهواتُه وأهويتُهُ كلها؛ فحينئذ يصلح أن يذكر الله تعالى بلفظ الجلالة فقط من غير نفي، وأما إذا كان يشهد شيئًا من الأكوان؛ فذكر الله تعالى بالنفي والإثبات واجب عليه؛ أي: ((لا إله إلا الله)).

-١١-إحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهد في الذاكرين، بشرط أن يعرض على شيخه كل شيء يرقى إليه من الأذواق؛ ليُعلمه طريق الأدب فيه.

-١٢-تفرغ القلب عن كل موجود حال الذكر سوى الله وهو يقول: لا إله، فإن الحق غيور لا يحب أن يرى في قلب الذاكر غيره إلا بإذنه، ولولا أن للشيخ مدخلًا عظيمًا في تأديب المُريد؛ ما ساغ للمريد أن يخيل شخصه في عينيه لا في قلبه، وإنما

شرطوا نفي كل موجود من الكون من القلب ليتمكن له تأثير الذكر، ثم يسري ذلك المعنى إلى سائر الجسد، وأجمعوا على أنه يجب على المريد أن يذكر بقوة تامة، وليحذر الذاكر من اللحن [أي: الخطأ] في ذكر (الله الله) أو (لا إله إلا الله) لأن الأُولى هي الاسم المفرد الأعظم عند الصوفية، وخسارة كبيرة للذاكر أن يقول: (أه أه) ويحرم من بركة الذكر بالاسم الأعظم.

ولا يبدل في لفظة التوحيد لأنها من القرآن، فيمد (لا) النافية بقدر الحاجة، ويحقق الهمزة المكسورة بعدها ولا يمدها أصلًا، ويمد اللام التي بعدها مدًّا طبيعيًّا، وينطق بالهاء بعدها مفتوحة بغير مد بالكلية، ثم ينطق بالهمزة من حرف الاستثناء مكسورة مخففة بغير مدٍّ أيضًا، ولا يمد اللام ألف بعدها، ثم ينطق بالجلالة فيمد اللام، ويقف على حرف الهاء بالسكون إن وقف، وكذلك ينبغي اجتناب المد على حرف الهاء من (إله)، فيتولد منه ألف، وذلك تحريف للقرآن، وكذا النطق بالهاء من الجلالة مضمومة ممدودة حتى ينشأ منها واو، وإن تعسر عليه ذلك فليطلب من شيخه أن يعلمه اللفظ الصحيح لـ((لا إله إلا الله)).

الآداب الثلاثة التي بعد انتهاء الذكر:

١-أن يسكت بعد سكون وتخشع، ويحضر مع قلبه مترقبًا لوارد الذكر، فلعله يرد عليه وارد فيُعمر وجوده في تلك اللحظة.

قال الإمام الغزالي رحمه الله: ((ولهذه السكتة آداب؛ أحدها: استحضار العبد أن الله تعالى مطلع عليه، وأنه بين يدي الله تعالى، وجمع الحواس بحيث لا يتحرك منه شعرة، ونفي الخواطر كلها، وإجراء معنى: «الله الله» على القلب...، قال: وهذه الآداب لا تُثمر للذاكر المراقبة إلا بها)).

٢-أن يحبس نَفَسَه مرارًا بقدر ثلاثة أنفاس إلى سبعة أنفاس، حتى يدور الوارد في جميع عوالمه، فتنور بصيرته، وتقطع عنه خواطر النفس والشيطان.

٣-عدم شرب الماء البارد مباشرة عقيب الذكر؛ فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا وشوقًا في القلب إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم.

٤-أن يستمع لعشر القرآن الكريم وللمذاكرة العلمية من الشيخ، فيسمع بعض النصائح والتوجيهات منه، ويصمت عن الكلام في مختلف الأمور الدنيوية وغيرها ما دام في مكان الذكر، ويمتنع عن الأعمال المنافية للآداب.

٥-وبعد الانتهاء من المذاكرة والعلم يسلم على شيخه وإخوانه إما بالمصافحة أو بتقبيل اليد.

هذا ما عليه القوم من أهل الذكر والعلم.

وفقني الله وإياكم لطاعته وذكره.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثامن والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

التوسل ١

التوسل لغةً: الوسيلة، وهي: الرغبة والطلب.

وشرعًا:

هو أن يتقرّب العبد إلى الله تعالى بشيء يكون وسيلةً لاستجابة الدعاء ونيل المطلوب.

وهو ما جاء به قوله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرَوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] فهم بعد استغفارهم يتّخذون من استغفار الرسول لهم وسيلةً لنيل توبة الله عليهم ورحمته إيّاهم.

أقسام التوسل:

١-التوسل بالله تعالى والثناء عليه:

قد جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم:

«**اللّهم إنّي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**» رواه مسلم.

٢-التوسُّل بأسماء الله الحسنى وصفاته جلّ جلاله: قال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

٣-التوسُّل بالصلاة على النبيِّ وآله:

عَنْ سيدنا عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلامُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:" **كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ** " إسناده حسن..

٤-التوسُّل بالقرآن الكريم:

عن سيدنا عمران بن الحصين قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**اقرؤوا القرآن، واسألوا الله تبارك وتعالى به، قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس**» مسند أحمد..

٥-التوسُّل بالأَعمال الصالحة:

كحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار في المطر الشديد، فنزلت صخرة فسدت عليهم باب الغار، فتوسلوا بأعمالهم الصالحة ففرج الله عنهم، والحديث في «البخاري» معروف ومشهور، حتى الوهابية لا ينكرونه.

6-**التوسل بالأنبياء والصالحين:**

الدليل من السنة على جواز التوسل بالأنبياء والصالحين:

أخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث سيدنا عثمان بن حنيف: أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك»، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ويدعو بهذا الدعاء: «**اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ**» حديث صحيح..

وحديث: توسل سيدنا آدم بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حينما قال: (اللهم بحق محمد إلا ماغفرت لي) أخرجه البيهقي بإسناد ضعيف في كتابه «دلائل النبوة».

ويرى الشيخ ابن تيمية -غفر الله له- عدم جواز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا لم يقله أحد من الفقهاء المعتمدين في المذاهب الأربعة، إذن فهو مردود عليه، ودليل ذلك:

قول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٣]، وهذه الآية فيها الدلالة على أن ذات النبي كانت سببًا

في رحمة الكفار ورفع العذاب عنهم، ولم يقل الله تعالى: ودعاؤك فيهم.. بل قال: ﴿**وَأَنتَ فِيهِمْ**﴾.. إذ لا ينقص قدر النبي بعد وفاته، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة والفقهاء الأربعة.

وقال الله تعالى:

﴿**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٨٩].

وحكى القرطبي وغيره عن سيدنا ابن عباس، رضي الله عنهما: أن يهود خيبر اقتتلوا في زمان الجاهلية مع غطفان فهزمتهم غطفان، فدعا اليهود عند ذلك، فقالوا: اللهم إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا بإخراجه في آخر الزمان، إلا نصرتنا عليهم. قال: فنصروا عليهم. قال: وكذلك كانوا يصنعون؛ يدعون الله فينصرون على أعدائهم ومن نازلهم؛ لذلك قال الله تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا**﴾ أي: من الحق وصفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿**كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير».

حكم التوسل عند الفقهاء الأربعة:

أَوَّلًا: المذهب الحنبلي: ولهم أقوال كثيرة جميعها تفيد جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالصالحين من عباد الله..

١-**الإمام أحمد ابن حنبل** وتوسله بالنبي صلى الله عليه وسلم:

قال في «منسكه» الذي رواه عنه المروزي ما نصه:

(وسل الله حاجتك متوسلًا إليه بنبيه صلى الله عليه وسلم؛ تُقْضَ من الله عزَّ وجلَّ)[1].

٢- **الشيخ أبو الفرج بن قدامة** إمام الحنابلة صاحب «الشرح الكبير» وهو الشيخ شمس الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن قدامة الحنبلي، يقول:

(مسألة): فإذا فرغ من الحج استحب زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر صاحبيه رضي الله عنهما.

---

(١) هكذا ذكره ابن تيمية في «الرد على الأخنائي» (ص ١٦٨)، وذكر معناه برهان الدين ابن مفلح في «المبدع» (٢/ ٢٠٤) وقريب منه ما في «الإقناع» للعلامة الحجاوي (٢٠٨/ ١) و«الفروع» لشمس الدين ابن مفلح (ت:٧٦٣ هـ) (٢ / ١٥٩) وغيرهم..

ثم ذكر الشيخ ابن قدامة صيغةً تقال عند السلام على النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أن يقول: (اللهم إنك قلت وقولك الحق: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾ [النساء: ٦٤] وقد أتيتك مستغفرًا من ذنوبي، مستشفعًا بك إلى ربي، فأسألك يا رب أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم اجعله أول الشافعين، ثم قال: ولا يستحب التمسح بحائط قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا تقبيله، قال أحمد رحمه الله: ما أعرف هذا، قال الأثرم: رأيت أهل العلم من أهل المدينة لا يمسُّون قبر النبي صلى الله عليه وسلم يقومون من ناحية فيسلمون، قال أبو عبد الله: وهكذا كان ابن عمر رضي الله عنهما يفعل، قال: أما المنبر فقد جاء فيه ما رواه إبراهيم بن عبد الله بن عبدٍ القاريُّ: أنه نظر إلى ابن عمر وهو يضع يده على مقعد النبي صلى الله عليه وسلم من المنبر ثم يضعها على وجهه[1]. اهـ

ثانيًا: المذهب الشافعي: يكفي أن أذكر قولين في هذا المذهب؛ لأنه وصلت أقوالهم في هذا المذهب إلى ٥٩ قولًا يجيزون به التوسل..

---

(١) «الشرح الكبير» (ج٣ ص٤٩٥).

توسل الإمام الشافعي بقميص الإمام أحمد ابن حنبل رضي الله عنهما وتبركه به:

ذكر الربيع: أن الإمام الشافعي رضي الله عنه خرج إلى مصر فقال له يا ربيع خذ كتابي هذا فامضِ به وسلمه إلى أبي عبد الله وائتني بالجواب.

قال الربيع: فدخلت بغداد ومعي الكتاب، فصادفت أحمد ابن حنبل في صلاة الصبح، فلما انفتل من المحراب سلمت إليه الكتاب وقلت: هذا كتاب أخيك الشافعي من مصر، فقال لي أحمد: نظرتَ فيه؟ فقلت: لا، فكسر الختم وقرأ وتغرغرت عيناه، فقلت له: أيش فيه أبا عبد الله؟ فقال: يذكر فيه أنه رأى النبي في النوم فقال له: اكتب إلى أبي عبد الله فاقرأ عليه السلام وقل له: إنك ستمتحن وتدعى إلى خلق القرآن، فلا تجبهم فيرفع الله لك علمًا إلى يوم القيامة، قال الربيع: فقلت له: البشارة يا أبا عبد الله، فخلع أحمد قميصه الذي يلي جلده فأعطانيه، فأخذت الجواب وخرجت إلى مصر، وسلمته إلى الشافعي رضي الله عنه، فقال: أيش أعطاك؟ فقلت: قميصه، فقال الشافعي: ليس نفجعك به، ولكن بُلَّهُ وادفع إلي الماء لأتبرك به!)[1].

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٥-٣١٢) «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي (٢ ٣٥).

٢-توسل الإمام الشافعي بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنهما، وسؤاله عند قبره:

عن علي بن ميمون قال: سمعت الشافعي يقول:

إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيءُ إلى قبره في كل يوم -زائرًا- فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره **وسألت الله تعالى الحاجة عند،** فما تبعد حتى تقضى[1]..

- بل كان مولانا الإمام الشافعي يتوسل إلى الله بآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول في «ديوانه»:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غدًا بيدي اليمين صحيفتي

ونحو هذه القصة باختصار أوردها الإمام ابن كثيرالحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٠/ ٣٣١) وانظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص ٦١٠).

(١) ورواه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في «التاريخ» (ج١، ص ١٢٣) والعلامة ابن حجر في كتابه «الخيرات الحسان»، (ص٩٦)، وذكره الخوارزمي في «مناقب أبي حنيفة» (ج ٢ ص ١٩٩)، والكردري في «مناقبه» (٢/ ١١٢)، وطاش كبري زادة في «مفتاح السعادة» (٢ / ٨٢).

- وذكر الفقيه ابن حجر الهيتمي أنه لَمَّا بلغ الإمام الشافعي أنَّ أهل المغرب يتوسَّلون بالإمام مالك؛ لم ينكر عليهم.

ثالثًا: المذهب الحنفي:

ولنا في هذا المذهب ٣٩ قولًا من أقوال كبار الفقهاء فيه رضي الله عنهم، ونذكر قولين:

١-قال الإمام كمال الدين بن الهمام الحنفي رضي الله عنه (ت٨٦١هـ)[١]: (ويسأل الله حاجته متوسلًا إلى الله بحضرة نبيه... ثم قال: يسأل النبي صلى الله عليه وسلم الشفاعة فيقول: يا رسول الله أسألك الشفاعة، **يا رسول الله أتوسل بك إلى الله**).

قال الإمام ابن تغري بردي الحنفي (ت: ٨٧٤ هـ): "نسأل الله تعالى حسن الخاتمة بمحمد وآله"[٢].

وفي حوادث الدهور[٣]: (فالله تعالى يحسن العاقبة بمحمد وآله)..

---

(١) «فتح القدير» (ج٢، ص٣٣٢)، كتاب الحج، باب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢) «النجوم الزاهرة» (٣/ ٢٢٠) وغيرها.

(٣) «حوادث الدهور» (ص٣٧).

رابعًا: المذهب المالكي:

ويكفي ذكر قصة واحدة في هذا الموضوع؛ وهي قصة الإمام مالك بن أنس مع الخليفة المنصور:

وذلك أن الإمام مالكًا رضي الله عنه لما سأله أبو جعفر المنصور العباسي - ثاني خلفاء بني العباس- يا أبا عبد الله: أأستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أم أستقبل القبلة وأدعو؟ فقال الإمام مالك: (**ولمَ تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم عليه السلام إلى الله عزَّ وجلَّ يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفع فيك**) وهذه القصة صحيحة لا غبار عليها[1]، فإن الإمام مالكًا يرى الخير في

---

(١) رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه «فضائل مالك» ورواها القاضي عياض في «الشفا» (٢:٤١) بسنده الصحيح عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه، وقال الخفاجي في «شرحه» (٣:٣٨٩): ولله دره حيث أوردها بسند صحيح، وذكر أنه تلقاها عن عدة من ثقات مشايخه!)، وذكرها القسطلاني في «المواهب» (٤:٥٨٠)، وقال الزرقاني شارح «المواهب» في شرحه (٨:٣٠٤) بعد ذكر من أنكرها فقال: (وهذا تهور عجيب! فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه «فضائل مالك» بإسناد حسن، وأخرجها القاضي عياض في «الشفا» من طريقه عن عدة من ثقات مشايخه، فمن أين أنها كذب؟! وليس في إسنادها وضَّاع ولا كذَّاب). ونقلها السمهودي في «وفاء الوفا» (ج ٢ ص ٤٢٢) عن القاضي عياض، وقال ابن حجر في «الجوهر المنظم»: (قد روي هذا بسند صحيح) وانظر

استقبال النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء والاستشفاع به وأنه هو الوسيلة صلى الله عليه وسلم.

وأيهما أعظم؟ الحجر أم سيد البشر؟! صلى الله عليه وسلم.

أخيرًا:

لا تلتفتوا لمن يدعي العلم ممن ظهروا في السنين الأخيرة السابقة وكفَّروا غالبية الأمة المحمدية نتيجة عدم فهمهم النصوص النبوية الواردة وآراء الأئمة الفقهاء الذين خدموا دين الله وبقي اسمهم خالدًا من مئات الأعوام رضي الله عنهم ورضوا عنه..

هذا مجمل الأدلة، وتركت غيرها لعدم التطويل، راجيًا من الله تعالى الهدى، بحق سيدنا محمد خير الورى.

«المدخل» (١ / ٢٤٨، ٢٥٢)، و«الفواكه الدواني» (٢ / ٤٦٦)، و«شرح أبي الحسن على رسالة القيرواني» (٢/ ٤٧٨)، «القوانين الفقهية» (١٤٨).

هذا وقد ألفت رسالةً مستفيضة في التوسل في مجموعة الرسائل التي بلغت ثلاثة مجلدات جمعتها ممن كتب عن التوسل.

ومنه يعلم أنه لا وجه لمنع (**أغثني يا رسول الله**) أو (يا ولي الله) باعتبار التسبب والكسب والتوسط والشفاعة.

وأما تخيل المانعين المحرومين أن التوسل يمنع من المحافظة على التوحيد، وأن التوسل يؤدي إلى الشرك؛ فهو تخيل فاسد باطل، والقائل بذلك متقول على الله تعالى وعلى رسوله. وعلى كل مسلم سليم الصدر إذا وجد من أحد المؤمنين إسناد شيء لغير الله تعالى فعليه أن يحمله على المجاز العقلي، ولا سبيل إلى تكفير أحد من المؤمنين؛ إذ المجاز العقلي مستعمل في الكتاب والسنة كما تقدم، وكلام العرب أكثره مبني على المجاز؛ كقولهم: (أنبت الربيعُ البقلَ) فإسناد الإنبات إلى الربيع [المراد به المطر] مجاز عقلي؛ لكونه سببًا ظاهرًا له، والمنبت في الحقيقة هو الله تعالى، فكذلك إذا قال العامي: نفعني النبي أو أغاثني أو نحو ذلك؛ فإنما يريد الإسناد المجازي، والقرينة على ذلك أنه مسلم موحد لا يعتقد التأثير إلا لله وحده، فلا تأثير لغيره ألبتة.

هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي عقيدة العلماء بالله تعالى.

ويدعي بعض الوهابية أن التوسل به صلى الله عليه وسلم إنما يكون في حياته فقط، وهذه دعوى باطلة؛ لأن الصحابة الكرام توسلوا به بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، وذلك لما أصابهم قحط زمن الفاروق عمر رضي الله عنه، ويروي لنا البيهقي

في «الشُّعب» وابن أبي شيبة بإسناد صحيح: أن بلال بن الحارث الصحابي لما قحط الناس جاء إلى قبر النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله في المنام وأخبره أنهم سيسقون.

إنني لا أستدل بالرؤيا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لأنها وإن كانت حقًّا فلا تثبت بها الأحكام؛ لإمكان الاشتباه على الرائي، وإنما الاستدلال بفعل الصحابي؛ وهو سيدنا بلال بن الحارث، فإتيانه إلى قبر النبي ونداؤه له وطلبه منه السقيا دليل على جواز ذلك، وتلك الطائفة التي تسمى بالوهابية تقول بحرمة نداء الميت، ويدّعون أنه إِشراك، فهذا يرد عليهم، ونحن نقول ردًّا عليهم: إن ذلك من باب التوسل والتشفع والاستغاثة به، فجاهه باقٍ، ومنزلته لا تزول بعد وفاته صلى الله عليه وسلم.

هذه عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي عقيدة العلماء بالله تعالى.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس التاسع والثلاثون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

التوسل ٢

وثمة سؤال وردني:

لماذا نتوسل بالمخلوق والله عزَّ وجلَّ قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاهُ...؟ فالله لا يحتاج إلى واسطة لإجابة الدعاء، فلماذا لا نتوجه إلى الله تعالى مباشرة.؟

والجواب:

لأن الله علمنا الأدب على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

وإذا كان الله لا يحتاج إلى واسطة فهل يحتاج ربنا عزَّ وجلَّ إلى صلاتنا؟!

وهل يحتاج إلى صيامنا؟!

وهل يحتاج إلى صدقتنا؟!

سبحانه! هو الغني الذي لا يحتاج إلى شيء..

ربنا يرزق الفقراء من دون أن نتصدق عليهم..

وهل يحتاج ربنا إلى أن نقرأ القرآن؟

ربنا لا يحتاج إلى شيء..هو الغني... ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾ [فاطر: ١٥]

لكنَّا نحن نحتاج إلى الصلاة.

ونحتاج أن نتقرب إلى الله بالصيام، فنصوم الفريضة ونتنفل بالصيام..

ونحن نحتاج أن نتصدق بالفرض والنافلة...

ونحن نحتاج إلى التوسل أيضًا..

فكما أن الصلاة شرعت لنا والصيام شرع لنا؛ فكذلك التوسل شرع لنا...

وقد مرت الأحاديث الدالَّة على مشروعية التوسل، ومنها حديث الأعمى..وقول الإمام مالك لأبي جعفر المنصور... وتوسل سيدنا عمر بسيدنا العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، والسؤال الذي يسأل:

ألم يكن سيدنا عمر يعلم أن الله لا يحتاج إلى التوسل؟

فلماذا توسل بسيدنا العباس؟

لماذا لم يسأل الله مباشرة؟

إذن السؤال خطأ!!

هذا السؤال أحدث شبهة خاطئة في عقول الناس..!!

التوسل ليس معناه أن الله يحتاج إلى واسطة... وإنما يدل على أننا يجب أن نظهر الأدب مع الله تعالى..

فما معنى أن تتوسل؟ معناه أنك تقول: يا رب؛ أعلم أنك قريب، وأنك لا تحتاج إلى توسل..ولكني أتوسل إليك حياء منك، ولما أعلمه من تقصيري، فأنا أتوسل إليك بأحد أحبابك فاستجب لي..

ما رأيكم أننا نتوسل يوم القيامة؟!

في حديث بلغ حد التواتر؛ وهو حديث الشفاعة...

عندما يشتد الكرب على الناس يذهب الناس إلى سيدنا آدم.. فيقولون: يا آدم اشفع لنا إلى ربك.. وفي إحدى روايات البخاري: (فيستغيثون بآدم)..

سبحان الله!! كيف يجيزون التوسل في الدنيا ويجيزونه في يوم القيامة ويحرمونه فيما بينهما؟!. يعني: جاز أن أستغيث بسيدنا آدم في الآخرة..وجائز أن أستغيث بصديق (لو سمحت ناولني كذا) في الدنيا..

انتبهوا! جائز أن أقول ذلك في الآخرة، وجائز أن أقوله في الدنيا، وشرك أن أقوله لرسول الله وهو في البرزخ!! كيف يقبل هذا؟!!

هل سمعتم؟؟ (يستغيثون بآدم.)

طيب ألم نعلم أن الله لا يحتاج إلى واسطة عندما نأتي في يوم القيامة؟

بلى نعلم أن الله لا يحتاج إلى واسطة، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وأنه يجيب دعوة الداع إذا دعاهُ..فلماذا نتوسل بسيدنا آدم؟

لأن لأهل الوجاهة عند الله شأنًا..فالله تعالى اصطفى آدم واصطفى نوحًا واصطفى سيدنا إبراهيم على العالمين...

لكن الله تعالى يقول: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ**﴾ [النبأ: ٣٨] فسيدنا آدم عندما استغاث في هذا الموقف لم يؤذن له..فيعتذر سيدنا آدم من الشفاعة ويقول: غضب ربي غضبًا لم يغضب مثله.. وقد نهاني عن الشجرة فأكلتُ منها، اذهبوا إلى غيري..

وهنا يجب الانتباه!!

هل يقول أبو البشر: «اذهبوا إلى غيري» لو كان طلب الشفاعة والتوسل من غير الله تعالى ؟!

ولماذا جاز لسيدنا آدم أن يقول: «اذهبوا إلى غيري» لو كان حرامًا أو شركًا كما يدعون؟! هل يدل سيدنا آدم على الشرك؟! والعياذ بالله!!

لو كان طلب الشفاعة والتوسل والاستغاثة من البشر حرامًا؛ لقال: لا تطلبوا الشفاعة من البشر!..

لكن الحديث صريح وصحيح، بلغ حد التواتر ودرجة القطع... سيدنا آدم يقول: اذهبوا إلى غيري.. اذهبوا إلى نوح.. وسيدنا نوح يعتذر ويقول: اذهبوا إلى موسى.. وسيدنا موسى يعتذر ويقول: اذهبوا إلى عيسى... كلهم يعتذرون؛ لأنهم لم يؤذن لهم بالشفاعة.. فيقول سيدنا عيسى: اذهبوا إلى محمد..

وهنا يأتي الناس كافة إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويقولون: يا رسول الله! اشفع لنا عند الله، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟؟!

وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بالتوحيد.. فلو كان طلب الشفاعة والاستغاثة بالبشر حرامًا أو شركًا -والعياذ بالله تعالى- لقال سيدنا رسول الله: لا تطلبوها مني.. اسألوا الله أن يشفعني فيكم..

هكذا كان ينبغي أن يكون ردُّ إمام التوحيد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..

وهل يقبل سيدنا محمد شركًا؟!

لكنه يقول: «**أنا لها، أنا لها**»..

صلى الله وسلم على من يقول: «**أنا لها أنا لها**»..

فيا إخوتي..

قولنا: يا رب بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم..بجاه الصديق..بجاه الفاروق..بجاه سيدنا الجيلاني..بجاه سيدنا الرفاعي..صحيح..صحيح..صحيح...

خصوصًا يوم لا يشفع نبي مرسل ولا مَلَك مقرب..

فاللهم بجاههم جميعًا فرج عن المسلمين أجمعين..

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله، أغثنا سريعًا بعزة الله..

والحمد لله رب العالمين..

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

المدائح النبوية

مدحُ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدُّ من جملة الطاعات والعبادات، وهو أمر يحتاج إلى التوفيق من الله تعالى للعبد؛ ولذلك منع الله أقوامًا من الشعراء عن مديحه، فخرج المتنبي وأضرابه من الشعراء من هذا الخير العظيم، ورزقه الله تعالى كثيرًا من العلماء والصلحاء.

هذه المدائح النبوية تُذكِّر بشمائل الحبيب الأعظم وأحواله الشريفة، فإذا ما أكثر العبد من سماعها حتى يصير لا يذهب من خياله صورةُ هذا النبي الكريم؛ فإن الله تعالى يكرمه برؤيته في منامه ببركة الاشتغال بمديح سيدنا رسول الله، فإذا ما رآه العبد في منامه يكرمه الله تعالى برؤيته في اليقظة، وقد ثبت في الحديث الصحيح قوله: **"من رآني في المنام فقد رآني؛ فإنّ الشيطان لا يتمثل بي"** وقال: **"من رآني في المنام فقد رآني حقًّا"**، وقال: **"من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو: لكأنما رآني في اليقظة"**

(رواها الإمام مسلم). وهذا تبشير بحسن الخاتمة لمن رآه، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

المدائح النبوية عند الصحابة الشعراء وغيرهم

أوَّلًا: المدائح النبوية عند سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه

لئن كان سيدنا حسان لم ينصر النبي صلى الله عليه وسلم بسيفه؛ لقد نصره بشعره، ونافح عنه بلسانه، فشفى واستشفى، وكان يفخر، وحق له أن يفخر مع قومه الأنصار، فقد آووا سيدنا رسول الله والمهاجرين، ونصروهم وأيدوهم، وأكرمهم الله بنصرة نبيه الذي أقام بهم دعائم الإسلام:

الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائمَ الإسلام

وبنا أعزّ نبيَّه وكتابَه وأعزنا بالضرب والإقدام

يتلو علينا النور فيها محكمًا قسمًا لَعَمرُكَ ليس كالإقسام

كان سيدنا حسان مخلصًا في مديحه؛ لأنه لم يمدحه لأجر دنيوي، بل ليرضى عنه الله ورسوله، حتى مدحه بأوصافه الحسية، ومن أجمل ما قال رضي الله عنه:

وأجملَ منك لم تر قط عين وأكملَ منك لم تلد النساء

خلقت مبرأً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقد شعر النبي الكريم بإخلاص حسان للدعوة، وحين أهدى إليه المقوقس عظيم القبط مارية وأختها سيرين لم يجد النبي الكريم إلا أن يهدي سيرين لسيدنا حسان مكافأة له.

وقد حمل سيدنا حسان لواء الإعلام عن نبي الأنام، فكان اللسان المترجم للدفاع عن الإسلام ضد أعداء الشرك والوثنية، وكان شعره يؤرخ للأحداث التي خاضها سيدنا رسول الله في غزواته، وكلما ألم حدث أو تتابعت الفتوح أسرع سيدنا حسان يؤرخها بقصائده ويشيد بالدين الإسلامي، فحين استشهد عمّي سيدنا حمزة يوم أحد وأتت ابنته أمامة تسأل عن قبر أبيها؛ خاطبها قائلًا:

فإن أباكِ الخيرَ حمزةَ فاعلمي وزيرُ رسول الله خيرَ وزير

دعاه إله الخلق ذو العرش دعوةً إلى جنةٍ يرضى بها وسرور

إن من ينظر في شعر سيدنا حسان يشعر بالنفحات الإيمانية الكبيرة والمحبة الصادقة للدين الإسلامي، فتعظيمه للنبي الكريم واضح جدًّا في شعره، يجلجل

صوته في المحافل والمجامع؛ ليعلن على الملأ حبه لهذا النبيِّ الكريم، ومرة وقف في أحد المجامع يخاطب سيد الخلق وحبيب الحق فيقول:

أغرُّ عليه من النبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد

وضَمَّ الإله اسمَ النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهد

وشق له من اسمه ليجلَّه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

نبي أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل والأوثانُ في الأرض تعبد

فأنذرنا نارًا وبشَّر جنةً ... وعلَّمنا الإسلامَ فالله نحمد

تعاليتَ ربَّ الناس عن قول مَن دعا ... سواك إلهًا أنت أعلى وأمجد

لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي وإياك نعبد

إن تعظيم سيدنا النبي فرض في الدين؛ لأن احتقاره كفر وردة، وقد جاءنا الأمر من رب العزة والجلال: ﴿**لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ [الفتح: ٩] فالتوقير والاحترام واجب؛ لذا كان سيدنا حسان لا يسمح لأحد أن يتطاول على مقام النبوة، دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصحابة مرة، فوقف له

الصحب الكرام، فقال لهم رسول الله: «لا تفعلوا كما تفعل الأعاجم تقوم لملوكها» نهاهم عن القيام له، فلما دخل بيته قال سيدنا حسان للصحابة: والله لو رجع رسول الله إلينا ولم تقوموا له؛ لأعلونَّكم بسيفي هذا.

وإذا بالحبيب يدخل عليهم ثانية فيقومون له، فيقول: «ألم أنهكم عن القيام؟» فالتفتوا إلى حسان وقالوا: أجب عنا رسول الله. فقال سيدنا حسان:

قيامي للحبيب عليَّ فرضٌ وترك الفرض أنى يستقيم؟!

عجبت لمن له عقل ولبٌّ يرى هذا الجمال ولا يقوم؟!

وقد بحثت في الديوان عن هذين البيتين فلم أجدهما. وقد ذكرت القصة في أحد كتب الشافعية.. والقصة عجيبة! لأن سيف سيدنا حسان كان لا يخيف الصحابة، وإنما كان لسانه أقوى من سيفه، فإنه كان أشد عليهم من رشق النبل.

وكان عليه الصلاة والسلام يعجبه ما يقوله سيدنا حسان ويدعو له: **(اللهم أيِّدهُ بروح القدس)**.

ومن شعره:

فإنَّ أبي ووالدَه وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

ومن مديحه:

وما فقد الماضون مثلَ محمد ولا مثلُه حتى القيامة يفقد

وكان يقول:

أنا ما مدحت محمدًا بقصائدي ولكن مدحت قصائدي بمحمد

ولقد ختم سيدنا حسان حياته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

فماذا يقول المعترضون على المدائح النبوية والأناشيد الدينية بعد هذا كله؟؟!!

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

ثانيًا: المدائح النبوية عند سيدنا كعب بن زهير رضي الله عنه

سيدنا كعب شاعر جاهلي من المخضرمين، عالي الطبقة، من فحول الشُّعراء من أهل نجد، ولما ظهر الإسلام هجا النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فأهدر دمه، فجاء مستأمنًا، واستشفع بأبي بكر فشفع له، وأنشد لاميته المشهورة، وأسلم سَنة (٨هـ)، ونال شرفًا لم ينله الشُّعراء قبله حتى توفي سنة (٢٦هـ).

بعد فتح مكة أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دم خمسة عشر شخصًا ممن أظهروا عداوة شديدة للإسلام وكانوا يهجونه بشعرهم وغنائهم، وقال: «اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة»..فقتل منهم أربعة، وتاب بقيتهم بعد أن أسلموا، فعفا عنهم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ومِن أولئك كعب بن زهير، فقد حرص أخوه بجير على أن يسلم، وكان قد سبقه إلى الإسلام، وراح يدعوه إليه بعد أن هجا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل بجير إليه أن سيدنا رسول الله يعفو عمن جاءه تائبًا، وإلا فانجُ بنفسك إلى أقطار الأرض.

فلما بلغ كعبًا الكتاب ضاقت عليه الأرض، وأشفق على نفسه، فجاء إلى المدينة المنورة بعد فتح مكة، وراح يسأل من أرقُّ أصحاب رسول الله؟ فدلوه على سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه فأخبره خبره فقال: لا أحد يجير على رسول الله.

ثم ذهب إلى سيدنا الفاروق عمر فرده، ثم ذهب إلى سيدنا عثمان فرده، ثم ذهب إلى سيدنا علي فقال له: أرى أن تستأذن رسول الله ثم تعلن إسلامك أمامه، فإنّه يعفو عنك.

فغدا به سيدنا أبو بكر إلى سيدنا رسول الله بعد أن صلى الصبح، فقال: رجل يبايعك، فمدَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يده، فقام كعب وهو متلثم بعمامته ومد يده فوضعها في يد سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال:

يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله: نعم.

فكشف كعب عن وجهه وأعلن إسلامه أمام سيدنا رسول الله، وقَبِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم توبته وعفا عنه، وهنا ألقى سيدنا كعب قصيدته المشهورة في مدح النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، بدأها على عادة العرب بمقدمة غزلية مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول

مقدمة نظمها كعب على طريقة شعراء الجاهلية قبل أن يجتمع بالنبي الكريم ويسلم على يديه ويعرف آداب الإسلام، فلينتبه أهل النهى منكم وليعلموا أنه لا يجوز التشبيب أو التغزل بامرأة معينة في الإسلام، وأنه إنما أقر سيدنا رسول الله كعبًا على طريقته لأنه كان حديث عهد بجاهلية، ولو صدرت هذه القصيدة بعد إسلامه واجتماعه بسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته أحكام الدين وآداب المسلمين ولزوم كمال التأدب في خطاب سيد المرسلين؛ كما كان فيها مثل هذه المقدمة الغزلية؛ لأنه لم يحدث من شعراء النبي -كسيدنا حسان وسيدنا ابن رواحة وسيدنا كعب بن مالك رضي الله عنهم- أن ذكروا ذلك في مقدمة شعر مدحوا به سيدنا رسول الله إلا مع قرب عهدهم بالجاهلية، وكيف يكون ذلك وهم أوفر الناس عقولًا وأعظم الناس أدبًا مع الله ورسوله؟؟! وقد قال الله لهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً**﴾ [المجادلة: ١٢] أتراهم بعد أن سمعوا هذا يضعون سفاهات الغزل بالنساء وأوصافهن المستهجنة موضع الصدقة في مناجاة رسول الله؟! حاشاهم!

نحن -على ما بيننا وبينهم من الفرق العظيم- ندرك بالبداهة عدم استحسان ذلك، ومن ذا الذي يستحسن أن يُتَغَزَّل به أو بأبيه أو برجل جليل من قومه أو ممن

يعتقدهم ويجلهم من العلماء والأولياء يتغزل بهم كما يتغزل بالولدان والنساء؟! لا شك أن ذلك لا يستحسنه أحد من العقلاء.

نعم؛ من الواجب ذكر محاسنه الجميلة وأخلاقه الجليلة التي اشتملت عليها ذاته الشريفة من صفات الجمال والكمال، ولكن لا على وجه التغزل، بل على وجه العلم والتعظيم والإجلال.

أما سيدنا كعب فذكر ذلك لأنه قريب عهد بجاهلية.

وبعد أن ألقى خمسين بيتًا جعلها بين يدي مديحه لسيدنا رسول الله، وصوَّر فيها حالته حين أهدر دمه، وكيف أن أصدقاءه تخلَّوا عنه وفَقَد المجير والملجأ قال:

تسعى الوشاة بجانبيها وقولهمُ إنك يا ابن أبي سُلْمى لمقتول

وقال كلُّ صديق كنت آمله لا أُلهينّك إني عنك مشغول

فقلت خلُّوا سبيلي لا أبا لكُمُ فكل ما قدّر الرحمنُ مفعول

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يومًا على آلة حدباء محمول

ثم راح يطلب العفو من الحبيب الأعظم ويستشفع لديه بشعره فقال:

نبئتُ أن رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول

مهلًا هداك الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظٌ وتفصيل

لا تأخذنيِّ بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت فيّ الأقاويل

وبعد هذا الاعتذار اللطيف انتقل إلى الغرض الأسمى؛ وهو مديح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

فما كان من الحبيب الأعظم إلا أن قام وخلع بردته وألبسها كعب بن زهير من شدة سروره بهذا البيت.

هذا الشعر الأصيل الشريف هو الجائز في الإسلام، فلم يترك شعراء النبوَّة فرصة ليمدحوا سيدنا رسول الله إلا اغتنموها، وصار خلفاؤهم من المداحين ينظمون أشعارهم في مديحه متبركين بآثار الرعيل الأول من شعراء الحبيب صلوات ربي وسلاماته عليه.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

المدائح الصوفية لخير البرية

ثالثًا: الإمام البوصيري (٦٠٨-٦٩٦هـ)

محمَّد بن سعيد بن حمَّاد الصنهاجي، أمازيغي، من بلاد بني سويف في مصر تلميذ سيدنا أبي العبَّاس المرسي، قصيدته «الكواكب الدُّرية في مدح خير البرية»، أفرغ طاقته وأوقف شِعره ووقته على مدح الرَّسول، ومنها أبياته الثلاثة:

وافاك بالذنبِ العظيمِ المذنبُ خجلًا يعنفُ نفسهُ ويؤنبُ

والثَّاني:

بِمَدْحِ المصطفى تَحيا القلوبُ وتُغْتَفَرُ الخطايا والذُّنُوبُ

والثَّالث:

أزمعوا البين وشدوا الركابا فاطلبِ الصبرَ وخَلِّ العِتابا

أجمعوا على أنَّ قصيدته «البردة» من أعجب قصائد المديح النَّبوي إن لم تكن أفضلها، عرفت النَّاس السِّيرة من خلالها وشمائله صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان البوصيري بهذه البُردة هو الأستاذ الأعظم لجماهير المسلمين.

«البردة» أهمُّ أعماله، بلغت ١٦٠ بيتًا وأشهر بيت فيها:

مولاي صلِّ وسلم دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلهم

وله ديوان شعر حققه محمد سيد الكيلاني طبع سنة (١٣٣٤-١٩٥٥)، وله: القصيدة المضرية، والقصيدة الخمرية، ولامية في الردِّ على اليهود والنصارى، نشرها أحمد فهمي محمد بالقاهرة (١٩٥٢م)، توفي عن (٨٧) عامًا.

قصَّة قصيدته «البردة»:

لقد بلغ الإمام البوصيري المرتبة العليا من الولاية، وامتحنه الله ببلاء شديد؛ ألا وهو مرض الفالج، فمكث الإمام في بيته، وأحضر له السلطان الأطباء فأعياهم معالجته، وهو صابر محتسب راضٍ بقضاء الله وقدره؛ لأن (**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل**) .

وبدأ ينظم قصيدة يستشفع فيها بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى أن يعافيه، وكان كلما نظم بيتًا يكررها ويبدؤها بقوله:

أمِنْ تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعًا جرى من مقلة

حتى أتمها مئة وستين بيتًا.

وفي ليلة قرأها كاملة وبكى ودعا وتوسل بسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق رسولَ الله جاهُكَ إذا الكريم تجلى باسم منتقم

ما سامني الدهر يومًا واستجرت إلا ونلت جوارًا منه لم يُضَم

ويختم البوصيري قصيدته المدحية بالتوسل بجاه النبي ألا يخيب الله رجاءه أن يغفر له ولسائر المسلمين قائلًا:

يا رب بالمصطفى بلغ مقاصدنا واغفر لنا ما مضى يا واسع

واغفر إلهي لكل المسلمين بما يتلوه في المسجد الأقصى وفي الحرم

بجاه مَن بيتُه في طيبةٍ حرم واسمه قَسَمٌ من أعظم القسم

فأتمَّ قصيدة نظمها بحب ملأ حناياهُ وصدق بتوسله إلى الله تعالى.

وينام تلك الليلة فيرى سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، ويرى نفسه يلقي القصيدة أمام السيد الأعظم، ويشاهد السرور قد اعترى الحبيب الأعظم، حتى صار يتمايل سرورًا، فلما وصل البوصيري إلى قوله:

فمبلغ العلم فيه أنه بشر ... ...

وقف البوصيري وأرتج عليه، فقال له سيدنا رسول الله: قل:

... ... وأنه خير خلق الله كلهم

وقام سيدنا رسول الله يمسح على وجهه بيده المباركة، وألقى عليه بردته الشريفة، فانتبه الإمام البوصيري من نومه فرأى نفسه وقد عافاه الله تعالى، وقام يمشي على رجليه، فسمَّاها بالبرأة لأنه برئ بها من علته، وزاد عليها:

كم أبرأت وصبًا باللمس راحتُه وأطلقت أربًا من ربقة اللمم

ثمَّ خرج الإمام من بيته فجرًا فصار الناس يهنئونه بشفائه، ولقيه بعض الأولياء فاستوقفه وهنأه وقال له: أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله فقال: أيها؟ قال:

أمن تذكر جيران بذي سلم ... ...

والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ورأيت رسول الله يتمايل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة. فقال: أنا هو الذي ألقيت عليه هذه البردة.

وصار الإمام البوصيري كثير الاجتماع بسيدنا النبي في المنام واليقظة، وصار لاجتماعه بالنبي الكريم تصدر عنه رائحة طيبة مسكية يشمها الكبير والصغير.

وتسامع الناس بالقصيدة، وصارت تتلى في كل فرح ومولد، ويستشفى بها من الأمراض، وكم من شخص شفاه الله بسببها وكان اليأس قد بلغ من شفائه.

وتابع الإمام البوصيري مديحه للحبيب الأعظم، فنظم قصيدة على حرف الهمزة تدعى «الهمزية» بدأها بقوله:

كيف ترقى رُقيَّك الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء

لم يساووك في علاك وقد حال سنًا منك دونها وسناء

ويستبد به حب سيدنا رسول الله الذي كان أساس قصائده كلها، فيخاطب سيدنا رسول الله:

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته لكل هول من الأهوال مقتحم

فاق النبيين في خَلْق وفي خُلُقٍ ولم يدانوهُ في علم ولا كرم

فإن فضل رسول الله ليس له حد فيعرب عنه ناطق بفم

فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف وانسب إلى قدره ما شئت من عِظَمِ

وهنا أستطيع أن أقول: إن حبَّ النبي الأعظم ملأ علياء سماء حياته، وكان مخلصًا في نظم قصائده؛ لذلك انتشرت كالهشيم، واشتهرت في العالمين الإسلامي والغربي حتى ترجمت إلى عدد من اللغات، وأمر السلطان عبد الحميد بخطها على القباب الداخلية للحرم النبوي الشريف، وقد شاهدتها بعيني قبل أن تقوم الحركة الوهابية بطمس معالمها، وانظروا إلى رؤوس هذه الشبابيك لتروا أبيات البوصيري تزينها بالزخرفة والسراميك.

ولقد عارضها الشعراء في كل عصر وجيل؛ منهم أمير الشعراء أحمد شوقي[1]، لكن كل المعارضين لقصيدته ماتوا هم وقصائدهم وبقيت قصيدة البوصيري واسمه حيًّا حياة أبدية؛ لشيء واحد فقط؛ وهو حبه الصادق لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، لقد بقي حبيبه في حياته وعند انتقاله إلى الدار الآخرة سنة ٦٩٦هـ وعاش

---

(١) والشَّاعر المعاصر تميم البرغوتي في ٢٠٠ بيتًا، والدكتور عمر هاشم المصري ألقى فيها أمامي أبياتًا عظيمة، ومن شرَّاح القصيدة: الشَّيخ زكريا الأنصاري (٩٢٦هـ)، أحمد ابن علان الصِّدِّيقي (ت١٠٣٣هـ)، ابن العماد الحنبلي (ت٨٠٨هـ)، الزَّركشي (ت٧٩٤هـ)، إبراهيم الباجوري (ت١٢٧٦هـ)، ابن هشام النَّحوي الحنبلي (٧٦١هـ)، ابن حجر الهيتمي (ت٩٧٤هـ) «العمدة في شرح البردة».

فقيرًا ومات فقيرًا، وحشره الله في زمرة المساكين تحت لواء سيد المرسلين، وأخيرًا زاد على قصيدته قوله:

وهذه بردة المختار قد ختمت والحمد لله في بدء وفي ختم

أبياتها قد أتت ستين مع مئة فرّج بها كربنا يا واسع الكرم

اشف بها مرضانا يا واسع الكرم ارحم بها موتانا يا واسع الكرم

مولاي صل وسلم دائمًا أبدًا على حبيبك خير الخلق كلّهم

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

أشهر دواوين الشعر الصوفي

هاهي بعض أسماء أصحاب دواوين الشعر الصوفي:

سمنون المحب

عفيف الدين التلمساني

شهاب الدين السهروردي

الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني

الإمام محيي الدين بن عربي

الإمام أحمد البدوي

الإمام جلال الدين الرومي

الإمام إبراهيم الدسوقي

الشيخ علي عقل

الإمام أبو العباس المرسي

حسين بن منصور الحلاج

أبو الحسن الششتري

محمد إقبال

ذو النون المصري

مصطفى نجا

أحمد الحلواني

أحمد بن عاصم الأنطاكي

الإمام محمد البوصيري

الإمام عبد الله اليافعي

السيدة رابعة العدوية

عمر بن الفارض

نجم الدين ابن أبي الخير

الإمام عبد الغني النابلسي

الإمام ابن عطاء الله السكندري

إبراهيم حلمي القادري

الإمام شعيب أبو مدين الغوث

ديوان الإمام أحمد بن عليوه

القاموس الجديد في القصائد والأناشيد الشاذلية للسيد أحمد حامد الشريف.

رباعيات الخيام ترجمة محمد السباعي.

ديوان ابن الجنان الأنصاري الأندلسي.

ديوان الإمام الشافعي رضي الله عنه.

بشرى العاشقين ببلوغ سيد المرسلين لمحمد خليل الخطيب.

ديوان العز بن عبد السلام بن غانم المقدسي (ت ٦٧٨).

سجع الحمام في مدح خير الأنام لمحمد الصالحي الهلالي.

الإحسان في تشطير نصيحة الإخوان (لامية ابن الوردي) .

باقة عطرة من صيغ الموالد والمدائح النبوية الكريمة للسيد محمد بن علوي المالكي.

النفحة العلية في أناشيد الحضرة الشاذلية لعبد العزيز الخطيب الحسني. غفر الله له ولوالديه، صاحب هذا المؤلَّف.

محمد بن العربي الحراق

علي وفا الشاذلي

أبو الهدى الصيادي

المحيط الهادي للإمام مهدي الرواس، وله مجموعة طبعها الشيخ ناصر الدين الخطيب بالأردن

عبد الرحيم البرعي

ابن الرئيس

شاكر الحمصي

المدائح النبوية محمود سالم

المدائح النبوية للشيخ محمود الشقفة

الشعر الصوفي عدنان حسين العوادي البغدادي

ابتهالات وتوسلات للشيخ عبد الحكيم عبد الباسط

الأناشيد الجلية للمدرسة التجارية العلمية

مجموعة المدائح للشيخ محمد صالح الخطيب

أحسن الوسائل في نظم أسماء النبي الكامل للإمام النبهاني

زاد القيافة تشطير البردة لأبي الهدى الصيادي

مناهل الورود للمدرسة الأمينية لعمي الشيخ شريف الخطيب

مخطوط الشيخ محمود المنيني

سفينة الملك لابن شهاب إسماعيل بن عمر

المجموعة النبهانية

مجموعة القرشي (سودانية)

مناجاة ومدائح نسيبة قصاب

مجموعة الشيخ مسلم البيطار

اللطائف الروحية لأبناء الطريقة الشاذلية

عناد الريح محمد توكلنا

فيض الفضل وجمع الشمل عائشة الباعونية

الجوهر المكنون علي الحبشي الحضرمي

مختصر ديوان محمد جميل الشطي

ديوان عبد الله الشبراوي

ديوان أحمد الجسري

أم محمد التلاوية اليشرطية

ابن الخيمي

ابن قضيب البان

ديوان عبد القادر الحمصي

ديوان أمين الجندي

ديوان عمر اليافي

ديوان الإمام محمد بن يلس التلمساني

ديوان سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري

ديوان سيدنا الشيخ شكري اللُّحفي

رحمهم الله تعالى

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

حكم الاحتفال بالمولد النبوي

الاحتفال بالمولد مشروع ومطلوب تعظيمًا لهذا النبي الكريم الذي وصفه ربه عزَّ وجلَّ بقوله:

﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وكيف لا يحتفى به وقد احتفى القرآن بولادة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام.

وكيف لا يحتفل بيوم مولده وهو الرحمة المهداة التي قال عنها رب العزّة والجلال: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس: ٥٨].

وقد كان صلى الله عليه وسلم يصوم يوم الاثنين والخميس، فلما سئل -كما في مدرسة الإمام مسلم-: **لماذا تصوم الاثنين؟** قال: **"ذلك يوم ولدت فيه"**.

وقد قدم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء، فقالوا: إنه اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون. فقال سيدنا رسول الله: **"نحن أولى بكم من موسى"** فصامه وأمر الناس بصيامه.

فإذا كان سيدنا موسى قد نجاه الله من فرعون فاتخذ رسول الله يوم نجاته عبادة؛ فكيف بمن نجى الله به الكون كله من أوثان كانت تعبد في الأرض وشركٍ ووثنية؟!

لقد ضرب الصحابة أروع الأمثلة باحتفالهم بسيد الخلق وحبيب الحق، هاهو سيدنا عبد الرحمن بن عوف يصرح التصريح التالي فيقول:

"كنا نتدارس سيرة رسول الله كما نتدراس القرآن".

وكان الصحب الكرام يتداعون بعضهم إلى بعض ويقولون:

(تعالوا بنا نؤمن ساعة)؛ أي: تعالوا يجلس بعضنا إلى بعض نتذكر ما كان عليه رسول الله ليزداد الإيمان في قلوبنا.

إن الاحتفال بمولد خير البرية يذكرنا بمدى ابتعادنا عن السنة النبوية الشريفة، ويدعونا للاقتداء والانتصار لهذا النبي المختار.

إن هذه الأشعار ((الأناشيد الدينية)) غير المصاحبة لآلات اللهو المحرمة والتي تمدح سيدنا رسول الله هي من عين السنة النبوية، فكم من مرة وقف الشعراء أمام الحبيب الأعظم ينشدون المديح الشريف؛ كسيدنا عبد الله بن رواحة وسيدنا حسان بن ثابت وسيدنا كعب بن زهير وغيرهم، والنبي يسرّ بهم ويثيبهم على مديحهم (كما

تقدم معنا)، بل إن أهل المدينة كلهم استقبلوا القادم العظيم من مكة ومعه صاحبه الصديق يضربون بالدفوف وهم ينشدون:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

وانطلقت ألسنة الجواري من بني النجار وهن ينشدن بحضور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقلن:

نحن جواري من بني النجار يا حبذا محمد من جار

وارتجز الصحابة الكرام في أثناء بناء المسجد النبوي الشريف والنبي يسمعهم ويقرهم وهم يقولون:

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منّا العمل المضلل

بل كان يحرّض سيدنا حسان بن ثابت على إنشاد الشعر الإسلامي ضد معسكر الشرك ويقول له: **"اهجهم وروح القدس معك"**.

لكن يشترط في هذه الأناشيد **شرطان**:

الأول: ألا يوصف سيدنا رسول الله بالصفات التي تخرجه عن العبودية؛ أي:

بالصفات التي هي من حق الله تعالى، فقد أنشدت الجواري بين يديه مرة إنشادًا فإذا بهن يقلن: (وفينا نبي يعلم ما في غد) فنهاهنَّ عن هذا الكلام.

الشرط الثاني: ألا يصاحبها آلة لهو محرمة؛ كما يفعل بعض الفساق من المنشدين في المفسديون والحفلات!!

بل هناك **شرط ثالث**: وهي ألا يكون فيها اختلاط بين الجنسين (الذكور والإناث) فإنه محرم (محرم سماعه ومحرم حضوره).

إن الإنشاد الديني يحبه رسول الله، يحبه على رغم أنف المعاند، وهو القائل في مدرسة البخاري: "إن من الشعر لحِكَمًا".

والدليل أيضًا أن سيدنا رسول الله لما ألقى سيدنا كعب بن زهير قصيدته العصماء:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يفد مكبول

وحين وصل إلى قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

قام رسول الله من شدّة سروره بهذا الشعر فخلع جبته وألبسها كعب بن زهير.

بل كان سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم يُمْتَدَحُ بذكر يوم مولده ويقرّ هذا المديح، وإليكم الدليل:

وقف سيدنا العباس أمام النبي صلى الله عليه وسلم عندما رجع من غزوة تبوك وقال له: يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((قل لا يفضض الله فاك))**.

فألقى العباس أمام النبي صلى الله عليه وسلم أبياتًا من الشعر قال فيها:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ في الظِّلَالِ وَفِي ... مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرقُ

ثُمَّ هَبَطْتَ البِلادَ لَا بَشَرٌ ... أَنْتَ وَلا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ ... أَلْجَمَ نَسْرًا وَأَهْلَه الغَرَقُ

تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلى رَحِمٍ ... إذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

ورَدتَ نارَ الخَليلِ مُكْتَتِما ... فِي صُلْبِهِ أنتَ كَيفَ يَحتَرِقُ؟!

حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِن ... خِنْدِفَ عَلْيَا تَحْتَهَا النُّطُقُ

أي: أنك كنت في صلب آدم طيبًا عندما خلقه الله تعالى وأدخله الجنة، ثم نقلك الله من أصلاب الأنبياء إلى أرحام النساء الطيبات، حتى وصلت إلى نوح، فنجاه الله

من الغرق لأجلك، ثم انتقلت إلى إبراهيم فنجاه الله من الحرق لأجلك، ثم نزلت في أصلاب الأطهار من قريش في البيت الحرام، ومما قاله محتفلًا بيوم مولده الأغر مخاطبًا أشرف خلق الله:

وأنت لما ولدت أشرقت الـ أرض فضاءت بنورك الأُفُقُ

فنحن في ذلك الضياء وفي النـ ـور وسبلِ الرشاد نخترق

بالله عليكم أليس هذا احتفالًا بمولد النبي الأكرم؟ وأمام من؟ أمام النبي الأعظم، هل اعترض عليه النبي؟ لا، بل سر سرورًا كبيرًا من عمه العباس وقال: «لا يفضضِ الله فاك».

إن الفرح بسيدنا رسول الله وتقديم الطعام في حبه قربة إثر قربة، وسيدنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**) أخرجه مسلم، ومن الأقوال الدالة على مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي:

١-قال الصحابي الجليل **ابن مسعود** رضي الله تعالى عنه:

(**ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن**، وما رآه المسلمون قبيحًا فهو عند الله قبيح).

٢-وقال **الإمام السيوطي** في كتابه «الحاوي للفتاوي»:

يستحب لنا إظهار الشكر بمولده صلى الله عليه وسلم والاجتماع وإطعام الطعام ونحو ذلك من وجوه القربات وإظهار المسرات.

3 وقال العلامة **ابن عابدين**: صاحب الحاشية الشهيرة:

فالاجتماع لسماع قصة صاحب المعجزات -عليه أفضل الصلوات، وأكمل التحيات- من أعظم القربات؛ لما يشتمل عليه من المعجزات وكثرة الصلوات.

٤-وقال الحافظ العلامة **ابن حجر العسقلاني**:

تعليقًا على حديث «الصحيحين»: "فأنا أولى بموسى منكم" فصامه وأمر بصيامه، قال: فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما منَّ به في يوم معين من إسداء نعمة أو رفع نقمة، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة...، ثم قال: وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي نبي الرحمة في ذلك اليوم؟! وعلى هذا فينبغي أن يقتصر فيه على ما يُفهِمُ الشكر لله تعالى؛ من التلاوة وإطعام الطعام وإنشاد شيء من المدائح النبوية المحركة للقلوب إلى فعل الخير والعمل للآخرة.

٥-وقال الإمام الحافظ **المفسر السيوطي** رحمه الله تعالى في تفسير آية ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس: ٥٨] ناقلًا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه: (فضل الله: العلم، ورحمته: محمد صلَّى الله عليه وسلَّم).

٦-وعن سيدنا معاوية رضي الله عنه: أن رسول الله خرج على حلقة من أصحابه فقال: «**ما أجلسكم؟**» قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ بك علينا، قال: «**آلله ما أجلسكم إلا ذلك؟**» قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك. قال: «**أما إني لم أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة**» (رواه مسلم والترمذي والنسائي).

وبعد هذا؛ إن من يبدّع المحتفلين بالمولد فإنما يبدع كبار علماء الحديث النبوي الشريف وهم أعلم بالبدعة من غيرهم!! هؤلاء الخرّاصون يتهمون سيدنا ابن حجر العسقلاني -شارح «البخاري» وأمير المؤمنين في الحديث- وابن كثير تلميذ ابن تيمية بالابتداع!! وهم يتهمون الحافظ السيوطي وقبله الإمام العراقي وبعده ابن حجر الهيتمي شيخ علماء مكة بأنهم مبتدعون!! فهؤلاء جميعًا ألَّفوا في المولد النبوي الشريف.

لكن إذا كان هؤلاء مبتدعين فنحن مبتدعون!! خسئوا والله! بل هم الذين مرقوا من الدين.

فكرر رعاك الله ذكر محمد ففي ذكره العيش المهنأ والأنسُ

فكل له عرس بذكر حبيبه ونحن بذكر الهاشمي لنا عرسُ

صلَّى الله على محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السادس والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ١

منهم الإمام تقي الدين السبكي

في خِضَمِّ حياة الإمام العلمية يفاجأ العالم الإسلامي بعدة فتاوى وصلت إلى الإمام السبكي نشرها ابن تيمية حيث كان في الشام، فأفتى بحرمة شدِّ الرحال لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، مدعيًا أنه يؤدي إلى الشرك، وأن من خالف هذه العقيدة فقد كفر.

فانبرى له الإمام تقي الدين السبكي يردّ عليه بشدة، مبينًا أنه

١- خرج بفتواه تلك عن إجماع المسلمين

٢- وخالف أهل السنة والجماعة

٣ - وكفَّر سادات الأمة المحمدية.

وكتب كتابًا بذلك سمّاه:

(شفاء السقام في زيارة خير الأنام)

وضَّح فيه أن ما تخيله ابن تيمية من منع الزيارة والسفر إلى النبي محافظةً على التوحيد تخيلٌ باطل؛ لأن المؤدي إلى الشرك هو اتخاذ القبور مساجد والعكوف عليها والسجود إليها، بخلاف الزيارة والسلام والدعاء.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: **"لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..."** فمعناه: لا تشد الرحال إلى مسجدٍ في الدنيا لأجل تعظيمه والصلاة فيه إلا إلى هذه الثلاثة، وهذا التقدير لا بد منه، ولو لم يكن هذا التقدير هكذا لاقتضى منع شدّ الرحال إلى الحج والجهاد والهجرة من دار الكفر ولطلب العلم والتجارة، ولا يقول بذلك أحد.

وهكذا نجد أن السادة الصوفية علماء يترصدون لمن يريد تحريف الشريعة ويدافعون عنها.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ٢

الإمام ابن عطاء الله السكندري

هو رجل من هؤلاء الأعلام وواحد من شيوخ خمسة كانوا في عصر واحد اجتمعت الأمَّة على الاقتداء بهم؛ لأنهم جمعوا بين علم الظاهر والباطن، وتصدَّروا رئاسة علماء الشريعة ورئاسة علماء الحقيقة.

نحن اليوم مع تاج الدين وترجمان العارفين، المالكي المذهب، الإسكندري دارًا، القاهري مزارًا، يعد أبرز ممثلي التصوف الشرعي المصري في القرن السابع الهجري، بل أعجوبة زمانه في التصوف، عجن ذاته بقواعد التصوف والزهد، وتبحر في الفقه، وجعل منذ نشأته الإخلاص رائده، والصدق والاستقامة منهجه، فبوّأه الله مكانة علمية مرموقة، وجعله نبراسًا يقتدى به، فغدا أحد أفراد سلسلة الذهب في التصوف، وإمامًا في التفسير والحديث والأصول، كم من تائب على يديه تاب، وتغيرت أحواله السيئة وأصلح وأناب، وكم من غافل تيقظ، وجاهل به تبصَّر!!

إننا مع الشيخ القدوة شيخ الطريقتين وإمام الفريقين العارف بالله تاج الدين أبي الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري، صاحب الحكم المشهورة..

فحين أَلَّف ابن تيمية رسالته في العقيدة «الحموية» و«الواسطية» ثار عليه العلماء، وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندري؛ لأنه تحدث فيهما عن تجسيم الله تعالى، وقال فيهما: إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله تعالى، وإنه مستوٍ على العرش بذاته... وتكلم على الصحابة الكرام فقال عن سيدنا علي: إنه حاول الخلافة مرارًا فلم ينلها، وإنه قاتل للرئاسة لا للديانة، وإنه أسلم صبيًّا والصبي لا يصح إسلامه على قول، كما تكلم على بعض الصحابة الآخرين، وأنكر التوسل بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وذكر طامات أخرى... "مما حدا بالعلماء أن يثوروا عليه، وممن ثار عليه ابن عطاء الله والتقي السبكي، واستعدوا عليه السلطان، فخيره بين الإقامة بدمشق أو القاهرة بشروط أو الحبس، فاختار ابن تيمية الحبس، فحبس نحو أربع سنين حتى خمد ذكره بين معارضيه.

يظن بعض من الناس أننا نتحامل على ابن تيمية، وهذا غلط.. الصوفية لا يتحاملون على أحد، بل يذكرون الحق دون أن يسبوا أحدًا، وابن تيمية غلط في عدد

من القضايا الفقهية[1] بل في الاعتقادية[2] وتابعه عليها الوهابية لشق صف أهل السنة والجماعة، فكان لا بد من وقفة لتبيين حالهم.. وهذا ما فعله الصوفية العلماء بالله

---

(١) خرق الإجماع في لفظ: (عليَّ الطَّلاق) أنَّه لا يقع عليه، بل عليه كفارة يمين.

-طلاق الحائض لا يقع، وكذا الطَّلاق في طُهرٍ جامع فيه.

أنَّ الصَّلاة إذا تركت عمدًا لا يجب قضاؤها.

أنَّ الحائض يباح لها الطَّواف بالبيت ولا كفارة عليها.

أنَّ الطَّلاق الثَّلاث يرد إلى واحدة، أو كان هو قبل ذلك نقل الإجماع على خلافه.

أنَّ الجُنب يُصلِّي تطوُّعه باللَّيل، ولا يؤخِّره إلى أن يغتسل قبل الفجر.

أنَّ مخالف الإجماع لا يكفر ولا يفسق.

(٢) أنَّ الله مركب تفتقر ذاته افتقار الكلِّ للجزء.

القرآن محدث في ذات الله تعالى.

العالَم قديم بالنَّوع، ولم يزل مع الله مخلوقًا.

قوله بالجسمية والجهة والانتقال، وأنَّه بقدر العرش لا أصغر ولا أكبر.

أنَّ النَّار تفنى، وأنَّ الأنبياء غير معصومين، وأنَّ رسول الله لا جاه له ولا يتوسل به.

وأنَّ إنشاء السَّفر إلى النَّبي بسبب الزِّيارة معصية لا تُقصر الصَّلاة فيه...

دفاعًا عن الإسلام؛ مثل: التَّاج السُّبكي، والعز بن عبد السَّلام، وأهل عصرهم من أصحاب المذاهب الثَّلاثة غير الحنابلة.

فهنيئًا لهم هذا الحال أن بعثهم الله للدفاع عن الدين، فلتعرف الأمة لهم ذلك..

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثامن والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ٣

الصوفية والجهاد

لم يقتصر دور الصوفية على الزهد في الدنيا وزخارفها طمعًا في الآخرة ونعيمها، بل انخرطوا في لجج الحياة العامة، خصوصًا إن كان الأمر دفاعًا عن الإسلام، أو سعيًا في نشر لوائه في ثغور الشام، أو تخوم أندلس أو فارس والهند والصين....ورأوا أن نصر الأمة لا يكون أبدًا إلا بتقوى أبنائهم لربهم متأسين بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بدأ معركة بدر باللجوء إلى الله تعالى والدعاء قبل أن يعمل السيفُ عمله في رقاب أعداء الإسلام.

وكذا الشأن في أُحُد والغزوات الأخرى..لم يفهموا أن التصوف قعود مع القاعدين ولا بقاء مع الخالفين، بل كانوا يجتمعون أحيانًا في مرابض الجهاد في الثغور لما واجهوا البيزنطيين؛ مثل التجمع الذي كان رأسه الإمام أبو القاسم القحطبي

الصوفي وأبو القاسم الأبار وأبو القاسم الملطي الصوفي صاحب الإمام الجنيد رضي الله عنهم[1].

وحين جاء الصليبيون تصدى لهم أئمة الجيوش الذين رُبُّوا في مدارس تصوف الإمام الجيلاني قدس سره؛ كآل زنكي وعلى رأسهم السلطان نور الدين الشهيد، وهم بدورهم ربَّوا جندهم في مدارسهم الصوفية على كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي[2] على امتداد بلاد الشام ومصر، فخرج جيل صلاح الدين الأيوبي الذي هيأ عقائد القادة والجند للثبات في مستنقع الموت لتحرير القدس ومصر والشام[3].

أما إمامنا الشاذلي قدس سره فكان في طليعة جيش الدفاع عن منصورة مصر[4] وقد تجاوز الستين من عمره وكف بصره، وكان الإمام العز بن عبد السلام في جيشه.

---

(١) (كما في كتاب الشيخ رسلان للمؤرخ عزة حصرية رحمه الله تعالى).

(٢) فقرَّره على جيشه كلِّه، وكان جليس رجال التَّصوف.

(٣) ذكره السُّبكي في «طبقاته» ووصفه بالصُّوفي، الزَّاهد، الورع، التَّقي، النَّقي، أقام زوايا في مصر للصُّوفية، وبنى مدارس الصُّوفية في جبل قاسيون، وهو الذي بنى قبة على قبر الإمام الشَّافعي، وفتح بيت المقدس سنة (٥٨٣هـ)، وكان في جيشه كثير من الصُّوفية.

(٤) التي حبست لويس التَّاسع.

والإمام العزّ كان أيضًا في جيش سيف الدِّين قطز الذي انتصر على التَّتار في معركة عين جالوت سَنة (٦٥٦هـ).

وفي بلاد الشام وقف سيدنا الشيخ رسلان مع مريديه ضد الهجمة على أطراف دمشق وله فيها خوارق.

ولا يخفى على أحد ما فعله الإمام السيد أحمد البدوي ومريدوه من صد جيش الفرنسيين حتى أسروا ملكهم، وقد كان طوال الوقت قبلها قد عين لهم يومًا ليدربهم على حمل السلاح لمواجهة أعداء الأمة الفرنجة، فاندفعوا بقيادته يستأصلون شأفة الفرنسيين ويزلزلون الأرض من تحت أقدامهم، وذكرت لهم خوارق كالتي نسمعها عن كرامات الأولياء.. إذ أطلقوا عليهم مياه النيل وهم في طريقهم إلى المنصورة، فمات أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي، وأسر الملك لويس التاسع ولم يطلق سراحه إلا بفدية كبيرة من فرنسة بعد أربع سنوات.

وفي الأندلس منع المرابطون سقوط الأندلس مئتي سنة، وهم الذين رُبُّوا في مدارس الإمام الجيلاني بباب الأزج في بغداد[1].

---

(١) انظر (كتاب هكذا ظهر جيل صلاح الدين.. ماجد عرسان الكيلاني).

وبقي الصوفية طليعة المهاجمين للبيزنطيين في آسية وأوروبة وفي دولة بني عثمان التي توسعت بفضل الصوفية على مدى قرون.

وأمَّا السُّلطان محمَّد الفاتح؛ فكان شيخه صوفيًّا، وأرسل إلى شيخ الطَّريقة في زمانه العارف بالله آق شمس الدِّين أنَّه يريد الجهاد وفتح القسطنطينية، فحضر وبشره بالنَّصر، وخرج في جيشه واستعصت عليهم، فجاء وزير السُّلطان إليه، فوجده ساجدًا يبكي، ثم رفع رأسه فقال: الحمد لله فتحت القلعة، فنظر الوزير خارج الخيمة فإذا بالجند قد دخلوا القلعة، وقال السلطان كلمته: ما فرحت بهذا الفتح، وإنَّما فرحي بوجود مثل هذا الرَّجل في زماني، وجاء إلى خيمته، وقبَّل يده، وطلب أن يدخل الخلوة عنده، فقرأ عليه الشَّيخ آق شمس الدِّين الأوراد، والسُّلطان جالس على ركبتيه، فلمَّا أتمها؛ قال له: التمس أن يعيَّن قبر الصَّحابي أبي أيوب الأنصاري، فقال آق: التقت روحي مع روحه، وهنأني بالفتح، ثمَّ سار إلى منطقة ودلَّهم عليه، وقال: أشاهد نورًا من هذا الموضع، فحفروا، فظهرت رخامة عليها خط، فقرؤوها؛ فإذا هو قبر سيدنا أبي أيوب، فأخذ السُّلطان محمَّد الفاتح الحال.

وامتد أثرهم من العهد الصليبي إلى العصر الحديث في عهد الاحتلال الفرنسي، وما زلت أذكر شيوخ الشام ومعهم سيدي الوالد وأسرته الكريمة يتدربون عسكريًّا،

وكم سُجِنوا وتعرضوا للمواقف، ومنهم شيخ الشام الشيخ محمد هاشم الخطيب..وكان يهاجمهم على منبره رحمه الله تعالى.

وإبان دخول الفرنسيين دمشق تجمع الناس في الجامع الأموي وخرجوا لملاقاة الفرنسيين خارج دمشق.. ولا ننسى الرحلة التي قام بها سادة أهل التصوف بقيادة سيدنا الشيخ بدر الدين الحسني ومعه وزيراه الشيخ هاشم الخطيب والشيخ علي الدقر إلى المحافظات وتهييج الناس ضد الاحتلال الفرنسي، فكانت الثورة السورية عام ١٩٢٥م..

وفي الشِّيشان الذين يجاهدون هم أهل الطَّريقة النَّقشبندية، فالشَّيخ أشرمة أوَّل قائد عسكري صوفي ضدَّ الرُّوس.

وفي المغرب الإمام عبد الكريم الخطابي قائد حركة المرابطين في المغرب وثورته ضدَّ الاستعمار الفرنسي والإنكليزي.

وفي السُّودان الإمام المهدي الصُّوفي.

وفي الجزائر الأمير عبد القادر الجزائري وثورته ضدَّ فرنسة.

وفي ليبية شيخ الطريقة السنوسية الإمام عمر المختار.

وغيرهم كعز الدين القسام الذي أتعب اليهود والصُّهيونية وسيدي محمد بن الهاشمي..

وكان من أوائل من أطلق صيحة الجهاد في فلسطين على الاستعمار الإنجليزي الشيخ فرحان السعدي، ولد سنة (١٨٥٨م) من العائلة الجباوية السعدية، وسرعان ما ألقي عليه القبض مع مريديه، فأعدمه الإنجليز وهو صائم، ورثاه الشاعر عبد الكريم الكرمي:

قوموا اسمعوا من كل ناحية يصيح دم الشَّهيد

قوموا انظروا فرحان فوق جبينه أثر السُّجود

يمشي إلى جبل الشَّهادة صائمًا مشي الأُسود

لقد أثبت الصوفية أنهم رجال كل مرحلة في التاريخ، وما يزال النداء يهتف في أنحاء الشام عند كل كرب:

شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس التاسع والأربعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

التفسير الصوفي المسمى بالتفسير الإشاري وحكمه ١

وهو مقبول عند علماء العقيدة والتفسير

التفاسير على أقسام:

١-تفاسير اهتمّت بالأحكام الفقهيّة والقواعد التعبديّة.

٢-وتفاسير اهتمّت بالعقيدة.

٣ - وتفاسير اهتمّت باللغة والبلاغة.

٤-وتفاسير اهتمّت بالحديث وأسباب النزول بما يسمى التفسير بالمأثور.

٥-وتفاسير اهتمت بالعلوم الكونية..

فلما جاء إمامنا نظر في القرآن بنور فتح الله به عليه، وحاول أن يستخدم علمه الصوفي بما عجز المتكلمون عن حله؛ ليكشف سرًّا آخر من أسرار الإعجاز القرآني أبان عن عبقريته في تذوق القرآن.

فهو بعد أن درس العلوم الشرعية بتعمّق وألف في التفسير التقليدي كتابًا قلَّ نظيره (التيسير في التفسير = التفسير الكبير) أقبل على القرآن ليثبت أن هناك لقاءً بين الشريعة والحقيقة، وأنّهما وجهان لشيء واحد.

ونظر إلى المبتدعة والمضللين الذين أساؤوا إلى التصوف وأهله تحت شعار الثوب المرقع (والخرقة البالية) فأعلنها عليهم حربًا لا هوادة فيها؛ إذ رآهم يحمّلون النص القرآني فوق ما يحتمل من معان، ويبتعدون عن الخط الأصيل للتفسير حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في مجالس الفلسفة، فأتاهم بتفسير ليس فيه عقيدة باطنية مستورة، ولا مذهب عقلي خبيء، بل فيه لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله.

إن عظمة إمامنا اليوم أنه ردَّ على الملحدين الباطنيين الذين ادعوا أن نصوص القرآن ليست على ظاهرها، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية!! وبيَّنَ لهم أن التفسير المقبول هو ما تحتمله الآية القرآنية ما دام لا يعارض القرآن..

لذلك: التفسير الصوفي قسمان:

١-تفسير يخالف ظاهر الآية القرآنية ويقول صاحبه: إنه المراد من الآية قطعًا؛ كـ«تفسير القرآن» للقاشاني.

٢-وتفسير تحتمله الآية القرآنية ويقول صاحبه: إنه تفسير ظني، قد يظهر خطؤه في يوم من الأيام.

والمقبول عند العلماء هو التفسير الثاني ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه، ومن هنا تكمن عظمة هذا الإمام؛ لذلك لقّبوه بشيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدَّم الطائفة الصوفية، بل أجمع أهل عصره على أنه سيد أهل زمانه وقدوة وقته وبركة المسلمين في ذلك العصر.

نحن اليوم مع سيد لم يَرَ مثل نفسه في كمال براعته، الإمام الذي ألف «الرسالة القشيرية» المشهورة في التصوف، إنه سيدنا الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري.

شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

التفسير الإشاري ٢

فما الذي دعا الإمام القشيري إلى هذا التفسير الإشاري؟ ولماذا؟

أولًا: فعل ذلك إثراءً للمكتبة الإسلامية.

وثانيًا: حتى لا يأتي بعده أناس يدعون التصوف فيخرجوا القرآن عما يريده الله تعالى ورسوله.

وثالثًا: دعاه إلى ذلك آيات وأحاديث:

أما الآيات فقوله تعالى على موجات سورة النساء (٧٨): ﴿**فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا؟!**﴾ [النساء: ٧٨].

وقوله تعالى (٨٢): ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء: ٨٢].

فهذه الآيات وأمثالها تشير إلى أن القرآن له لفظ وقصد، أو قل إن شئت: ظهر وبطن؛ لأن الله تعالى حين نعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثًا وحضَّهم

على تدبر آيات القرآن؛ لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون الكلام نفسه، أو حضّهم على فهم ظاهره؛ لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم، فهم يفهمون ظاهره بلا شك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضَّهم على التدبر ليقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم فعابهم به وشنَّع عليهم بسببه.

وبهذا وردت الأحاديث؛ كحديث الفريابي من رواية الحسن مرسلًا: **"لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع"** فمعنى (لكل حرف حد) أي: منتهًى فيما أراد الله من معناه.

ومعنى (ولكل حد مطلع) أي: لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به.

وحديث الديلمي من رواية ابن عوف مرفوعًا: **"القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن، يحاجُّ العباد"**.

ففي هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن؛ أي: لفظ وتأويل، أو الظهر: ما ظهر من معاني الآية لأهل العلم، والبطن: ما تضمنته من الأسرار التي اطلع عليها أهل الحقيقة.

وإنّ إمامنا القشيري وجد في تفسيره تأييدًا أيضًا من مواقف الصحب الكرام؛ فإن حبر الأمة سيدنا ابن العباس رضي الله عنهما -كما عند ابن أبي حاتم- كان يقول: "إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون".....

وكان سيدنا أبو الدرداء يقول: "لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهًا".

ونظر الإمام القشيري فرأى حديثًا في «البخاري» فيه سؤال سيدنا عمر رضي الله عنه الصحابة جميعًا عما يقولون في قوله تعالى: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا**﴾ [النصر: ١ - ٣].

فسألهم فقالوا: أُمِرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا.

وهنا نجد جدي سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما يقول مفاجئًا الصحابة إلا سيدنا عمر: بل هو أجل رسول الله، أعلمه الله إياه.: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ**﴾ وذلك علامة أجلك؛ ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾ فقال سيدنا عمر: ما أعلم من الآية إلا ما تقول.

انتبهوا؛ هذا الحديث أصل مهم في فعل إمامنا القشيري؛ لأن سيدنا عمر وسيدنا ابن عباس رضي الله عنهما فهموا الآية فهمًا من وراء المعنى الظاهر، وهو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريقة الإشارة، والأدلة كثيرة في ذلك.

هذا التفسير هو المقبول عند العلماء؛ لأنه لا يخالف التفاسير السابقة، بل يدعمها ويكملها، وبذلك أدى السادة الصوفية عملًا كان ينقص الأمة الإسلامية.

هذا الكلام يجب أن يعرفه المعترضون على التصوف.. وأنا أقول وما زلت أقول: من لا يعرف اللغة الإنكليزية لا يعترض على الإنكليز.. ومن لا يعرف الأصول لا يعترض على الأصوليين.. ومن لايعرف مصطلحات الصوفية لا يعترض عليهم حتى يعرف من أين يأخذون ومن أين يغرفون.. هؤلاء العلماء بالله.. ومن اعترض عليهم فقد جهل.. فقد جهل.. فقد جهل..

شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

رحمة الصوفية بالأمة الإسلامية ١

أوَّلًا: مع سيدنا الإمام الليث بن سعد:

إمامنا هذا ولد سنة ٩٤ هجرية وتوفي سنة ١٧٥ هجرية، وقد بلغت رحمته بالمحتاجين مبلغًا عظيمًا!! كان تأتيه المرأة بكأس تشتكي إليه مرض زوجها وأنه وصف له العسل، فيقول لها: اذهبي إلى الوكيل فقولي له يعطيك مطرًا، أو زقًّا (يسع ١٢٠ رطلًا). فيقال له: إنما تريد قليلًا من العسل. فيقول: أعطها مطرًا؛ إنها سألت بقدرها فأعطيناها بقدرنا.

كان دخل الإمام الليث في السنة من عشرين ألف دينار إلى ثمانين أو مئة ألف دينار؛ أي: حوالي ٢٠٠ مليون ليرة سورية في كلّ سنة، ومع ذلك لا يأتي رأس السنة إلا وقد أنفقها كلها لوجه الله؛ ولهذا قيل: ما وجبت عليه زكاة قط.

وكان لا يرد سائلًا، ويتصدّق عند كل صلاة على ثلاث مئة مسكين، وكان الفقراء يزدحمون على بابه كلّ يوم فيخرج إليهم ويتصدّق عليهم جميعًا، ثم يدور على سبعين بيتًا من الأرامل يتصدّق عليهم.

وكان يكرم أصحابه من أهل العلم ليتفرّغوا للعلم ولا يسألوا الناس، ويقول لمن يعطيه: صن بهذه الألف دينار (ألف ليرة ذهبية) الحكمةَ التي آتاك الله تعالى.

وإليكم هذه الحادثة التي تدل على سعة فضله وكرمه وحسن معاملته للفقراء، وبها يتَجلى، مشهد فريد لا تجد في سني حياتك ولا حياة آبائك مثيلًا له:

فقد صودرت دار لرجل من أهل مصر وبيعت بأربعة آلاف درهم، فاشتراها الإمام وبعث وكيله ليتسلّم المفاتيح فوجد فيها أيتامًا وعائلة، فقالوا: بالله عليك اتركنا إلى الليل حتى ننظر خربة (أرضًا مهجورة) نذهب إليها، فتركهم الوكيل، وجاء إلى الإمام الليث يحكي له قصة اليتامى، فبكى الإمام الليث وقال: عُدْ إليهم وقل لهم: الدار لكم، ولكم كل يوم نفقتكم.

رضي الله عنك يا سيدنا الإمام الليث بن سعد، فقد بلغ كرمك ورحمتك المدى.

هؤلاء هم الصوفية الأبرار، فماذا يقول عنهم الفجار؟!

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

رحمة الصوفية بالأمة المحمدية ٢

وتحديهم للظلم والظلمة

ثانيًا: مع سيدنا سفيان الثوري:

يقف في وجه الخلفاء والأمراء الذين حادوا عن منهج السلف، فنراه يقف في وجه من يفضّل سيدنا عليًّا على سيدنا أبي بكر وعمر في الخلافة، ويكفّر من يسب الصديق والفاروق وزيرا رسول الله، وهو القائل: «من قدّم [في الفضل] على أبي بكر وعمر أحدًا؛ فقد أزرى على اثني عشر ألفًا من أصحاب رسول الله توفي رسول الله وهو عنهم راض».

وقد سئل عن رجل مات كان يشتم الصدّيق فقال: كافر بالله العظيم. فقالوا: إنه مات نصلي عليه؟! قال: لا، ولا كرامة. فضجّ الناس وهم يقولون: إنه يقول: لا إله إلا الله ما نصنع به؟ قال: لا تمسّوه بأيديكم [أي: لا تغسّلوه ولا تكفّنوه ولا تصلّوا عليه] ارفعوه بالخشب وألقوه في قبره.

كان إذا دخل على الخلفاء ورأى المنافقين قال: احذر يا أمير المؤمنين من هؤلاء الأعوان والمترددين إليك؛ فإن هلاكك على أيديهم، يأكلون طعامك ويأخذون دراهمك، ويغشونك ويمدحونك بما ليس فيك. فحنق عليه الخليفة أبو جعفر المنصور، وحين خرج إلى مكة حاجًّا أرسل أعوانه وقال لهم: تدخلون مكة وتنصبون صليبًا من خشب، فإذا وجدتم سفيان الثوري فاصلبوه، فنشروا الصليب وبحثوا عن سيدنا سفيان فوجدوه في الحرم، رأسُه في حِجْر الفضيل بن عياض -شيخ الزاهدين وأحد تلامذته الذين حدّثوا عنه- ورجلاه في حِجْر سفيان بن عُيَينة شيخ المحدّثين بعده، فقالوا: يا أبا عبد الله؛ اتقِ الله ولا تُشْمِت بنا الأعداء. وهنا تقدم الإمام إلى أستار الكعبة وقال: برئتُ منه إن دخل مكة [أي: إذا دخل مكة لا أكون سفيان] فنادى منادٍ: ألا إن أبا جعفر المنصور قد مات! مات قبل أن يدخل مكة؛ كرامةً لسيدنا سفيان الثوري عند الله تعالى.

ثمَّ أقام الإمام في مكة سنة ما فتر فيها عن العبادة، وكان بين العصر إلى المغرب يجلس مع أصحاب الحديث يتذاكرون السنة النبوية، وتولى الخليفة المهدي الخلافة وحرص أن يُؤتى به إليه، فجيء به إلى الكوفة دار الخلافة، فدخل عليه وسلّم تسليم العامة ولم يسلّم بالخلافة، فأقبل عليه المهدي بوجه طلق وقال: تَفِرُّ منا ههنا وههنا، وتظن أنا لو أردناك بسوء لم نقدر عليك؟! فقد قدرنا عليك الآن، ألا تخشى أن نحكم فيك بهوانا؟! فقال سفيان: إن تحكم فيَّ يحكم فيك قادر مقتدر يفرّق بين الحق

والباطل. فقيل للخليفة: ائذن لنا بضرب عنقه. فقال المهدي: اسكت، وهل يريد هذا وأمثاله إلا أن نقتلهم فنشقى بسعادتهم؟! عينوه على قضاء الكوفة على ألا يُعترض عليه في حكم. فكتب له قرار تعيينه؛ فأخذه وخرج فرمى به في نهر دجلة وهرب. فطلب في كل بلد فلم يجدوه.

اختفى سنة في البصرة ومرض مرضًا شديدًا، فصار تلميذه عبد الرحمن بن مهدي يخدمه، وقد يتخلف عن صلاة الجماعة من أجل خدمته، فشق على التلميذ أن يفعل ذلك، فأخبر الإمام الثوري فقال له: -اسمعوا الدرس الأخير من حياة الإمام سفيان- قال لتلميذه: (**خدمة مسلم ساعة أفضل من صلاة الجماعة**).

وحين حضرته الوفاة بكى لشدة ما نزل به من الموت، ثم توفي سنة ١٦١ للهجرة وكان ولد سنة ٩٧ هجرية.

هذا نموذج لرجال التصوف، كانوا علماء عبادًا لا يخافون في الحق لومة لائم..

فماذا يقول أعداء التصوف بعد ذلك؟!

فلتصمت الأفواه في حضرة هؤلاء.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

رحمة الصوفية بالأمة المحمدية ٣

ثالثًا: مع الإمام الأوزاعي:

كان بمفرده أمة، وخلّف من تلامذته أمة؛ لأنه كان يحترم الكبير والصغير، والمسلم وغير المسلم، ويعلّم الناس حب بعضهم بعضًا واحترام الرعيل الأول، علّمهم حب قرابة سيدنا محمد واحترام أصحابه (حبّ القرابة واحترام الصحابة)، وهو القائل لتلامذته: لا تذكروا أحدًا من أصحاب النبي إلا بخير، العلم ما جاء عن أصحاب سيدنا محمد، فيحرم سب الصحابة أو شتمهم، وهو القائل: لا يجتمع حبّ عليّ وعثمان إلا في قلب مؤمن.

ولد الإمام سنة ٨٨ هجرية، وتوفي سنة ١٥٧ هجرية شهيدًا. رضي الله عنه.

رابعًا: مع سيدنا علي بن الحسين:

هو سيد من سادات الأمة المحمدية من آل بيت النبوة، ولكثرة عبادته وعلو صفاته لقب بزين العابدين، ومن ألقابه: ذو النفقات.

ولد سنة ٣٨ للهجرة.

وكانت نسوة قريش رغبن عن الأولاد وزهدن بهم، فلما رأين نشأة سيدنا علي صارت كل واحدة تريد أن تنجب ولدًا رجاء أن يكون مثله.. حتى قيل: لم يكن هاشمي في عصره أفقه منه.

سئل مرة: كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر عند رسول الله؟ فأشار بيده إلى القبر الشريف وقال: بمنزلتهما الساعة.

كان لا يحتفظ بالمال لنفسه، وإنما يتصدّق به في السّر على مساكين المدينة ويقول: (إن الصدقة في سواد الليل تطفئ غضب الرب).. فلما مات وغسلوه رأوا آثار حمل الخبز على ظهره إلى منازل الأرامل، وكان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات سيدنا علي فقدوا ذلك الذي كان يأتيهم بالليل، فحسبوا عدد من كان يعولهم فإذا هو مئة بيت. كان يعول مئة بيت رغم أن عدد أولاده كان أربعة عشر!!

توفي سنة ٩٤ للهجرة. رضي الله تعالى عنه.

خامسًا: مع سيدنا أبي يزيد البسطامي:

مرض جاره المجوسي فدخل إليه عائدًا، فلما بصر المجوسي بأبي يزيد استعظم

زيارته، وأزال رأسه عن فراشه ووضع خده على التراب تعظيمًا وإجلالًا لسيدنا أبي يزيد، ولبث عنده ساعة، ثم قام منصرفًا وما إن بلغ وسط الدار حتى رفع أبو يزيد طرفه إلى السماء مستعطفًا رب السماء والأرض، فناداه صاحب الدار قبل أن يخرج: يا أبا يزيد آمنت بالله ورسوله محمد، ثم مات الرجل مكانه، فقام أبو يزيد بأمره حتى دفنه.

ولد سيدنا أبو يزيد سنة ١٨٨ هجرية وتوفي سنة ٢٦١ هجرية. رضي الله عنه.

سادسًا: مع سيدنا معروف الكرخي:

لأدلل لكم على مدى الحكمة العظيمة التي آتاها الله الإمام معروفًا؛ اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك؛ إلى بغداد فرّج الله عنها، لنرى بعين الإيمان سيدنا معروفًا قاعدًا على شط نهر دجلة، وإذ بشباب يمرون به في زورق يضربون الملاهي ويشربون الخمر، فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء يعصون الله!؟ ادُع عليهم، فرفع يده إلى السماء فقال: إلهي وسيدي أسألك أن تفرّحهم في الجنّة كما فرّحتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنما قلنا لك: ادعُ الله عليهم، ولم نقل لك: ادعُ الله لهم. فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم بشيء.

هذا هو منهج الإصلاح الذي اتبعه سيدنا معروف في حياته، إنه منهج أخلاقي عظيم، ولا يتم هذا المنهج لصاحبه إلا إذا تحلّى بالصدق والصلاح والتقوى؛ ولذلك نرى الإمام معروفًا يدعو أصحابه إلى هذا المنهج ويقول: قلوب الطاهرين تُشرح بالتقوى، وتزهر بالبر، وقلوب الفجّار تظلم بالفجور وتعمى بسوء النيّة. إذا كنت لا تحسن أن تتقيَ؛ أكلتَ الربا، ولقيت المرأة فلم تغض عنها، ووضعت سيفك على عاتقك (أي: تركت الجهاد).

توفي الإمام معروف سنة ٢٠٠ للهجرة. رضي الله عنه. وسنذكره لاحقًا إن شاء الله تعالى.

سابعًا: مع سيدنا بشر الحافي:

رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه فقال له: يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قال: لا يا رسول الله. قال: باتباعك لسنتي، وخدمتك للصالحين، ونصيحتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، وهو الذي بلغك منازل الأبرار، ذلك ثواب خدمة الناس وإعطائهم حقوقهم.

ولد الإمام بشر سنة ١٥٠ هجرية وتوفي سنة ٢٢٧ هجرية رضي الله عنه.

هؤلاء هم الصوفية، يرون خدمة الخلق والرحمة بهم من أهم واجبات المسلم، فلله درُّ أمة فيها مثل أولئك!! وبئس قوم اتهموهم بالابتداع والخروج عن منهج الإسلام، فلتصمت تلك الألسنة إلى الأبد في حضرة العمالقة.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

رحمة الصوفية بالأمة المحمدية ٤

من الراعي إلى الرعية

ثامنًا: مع سيدنا الفضيل بن عياض:

إن الصوفية الحق لا تسمح لأتباعها بأن يقوموا بأذى حيوان، فكيف بإنسان؟! قال الفضيل لرجل: والله لا يحل لك أن تؤذي كلبًا أو خنزيرًا بغير حق، فكيف تؤذي مسلمًا! (بل) من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضمر له الغدر والبغضاء؛ لعنه الله فأصمّه وأعمى بصيرة قلبه.

والله لا أجد لي ولكم في تطبيق الرحمة مثل هذا الموقف الذي وقفه سيدنا الفضيل بن عياض مع الخليفة هارون الرشيد:

أمير المؤمنين هارون الرشيد أتى بجلالة قدره يوم حج البيت الحرام ليقف على باب سيدنا الفضيل، فماذا فعل معه؟ أتدرون كيف استقبل الخليفة؟ بأي حرس شرف؟ أدخله إلى داره بعد أن أطفأ السراج وكأنه يدخل إلى قبر، فصار الخليفة

يتلمّس في الظلمة بيده حتى وقعت يده على الفضيل فقال له: يا لها من كف! ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله عزَّ وجلَّ!! بهذا الاستقبال الرهيب شعر الخليفة أنه أمام إنسان رباني، ولقد وقف شعر الخليفة من هذه الكلمة! فبماذا وعظ الفضيل الخليفة أعظم حكام الأرض في عصره؟

أعظم شخصيتين اجتمعتا في أطهر بقعة على الأرض، في أعظم مشهد عرفه التاريخ، رئيس عشرين دولة إسلامية يجلس بين يدي صوفي (أستغفر الله!) بل هو عظيم من عظماء الصوفية، وأين؟ في مكان مظلم رهيب!! فما الكلمات التي دارت بين الإمامين إمام المسلمين وإمام الصوفية؟ قال الفضيل وهو يعظه:

•إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله؛ فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت.

•إن أردت النجاة من عذاب الله؛ فليكن في قلبك كبير المسلمين عندك أبًا، وأوسطهم عندك أخًا، وأصغرهم عندك ولدًا، فوقّر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

•إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله عزَّ وجلَّ؛ فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، إني أخاف عليك أشد الخوف يومًا تزل فيه الأقدام!!

وهنا أخذت الخليفةَ هارون الرشيد قشعريرةٌ ونوبةٌ من البكاء حتى غشي عليه، فقال له وزيره الفضل بن الربيع: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يا فضل تقتله أنت وأصحابك وأرفق أنا به؟! فلما أفاق الخليفة قال للإمام الفضيل: زدني رحمك الله، فقال له:

•يا أخي أذكرك طولَ سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد.

وتهطل دموع الخليفة وهو يقول: زدني رحمك الله، فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى جاء إلى النبي فقال: يا رسول الله أمّرني على إمارة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «**إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت ألَّا تكون أميرًا فافعل**».

والخليفة يبكي لا يرقأ له دمع، والفضيل يقول له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عزَّ وجلَّ عن هذا الخَلْق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد رعيتك، فإن النبي قال: «**من أصبح لهم غاشًّا لم يرح رائحة الجنة**»[1].

---

(١) أخرجه ابن سعد وابن عساكر.

ثمَّ لم يخرج الخليفة من بيت الفضيل حتى جاءته الجارية وقالت له: قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف. فانصرف الخليفة من الدار المتواضعة وهو يقول لوزيره: هذا سيد المسلمين.

وهكذا وقفت معكم مع شخصية من أهل الإيمان والعمل من أهل التصوف، فإياكم أن يفسد أهل البغي عليكم صدوركم، إياكم أن تفسدوا علينا ديننا يا أعداء التصوف، وتذكروا قول الله تعالى: ﴿**وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [الصف: ٨].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

علماء الصوفية من أهل السنة

غرَّر الوهابية بجموع المسلمين وشوهوا حقيقة التصوف والصوفية.. وبقي من الرد عليهم أن أستعرض لك بعض أسماء عمالقة التصوف؛ لأقول لأولئك: إن اتهمتم الصوفية بالزندقة والكفر فإنكم تتهمون من تأخذون عنهم دينكم بأنهم كفار؛ لأن الذين سأذكرهم هم سادات الأمة في عصرهم، واتهامهم بالابتداع هدم للإسلام؛ لأنهم الذين أوصلوا لنا هذا الدين، فمحال أن يكونوا من المبتدعة، وبالتالي محال أن يكون الصوفية مبتدعة كما تدَّعون، فحذار من فعلكم ذاك، وعودوا إلى رشدكم وتوبوا؛ لأنكم الآن عرفتم أنكم مخطئون.

وهذه أسماء جهابذة أهل العلم من أهل السنَّة من المتصوفة ممن يشار إليهم بالبنان:

سيدنا الفضيل بن عياض

سيدنا إبراهيم بن أدهم

سيدنا داود الطائي

الإمام سفيان بن عيينة

سيدنا أبو سليمان الداراني

سيدنا بشر الحافي

سيدنا الإمام الجنيد البغدادي.

سيدنا معروف الكرخي.

سيدنا السري السقطي.

سيدنا ذو النون المصري.

الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري محرر المذهب الشافعي.

سيدنا أبو سعيد الخراز.

الإمام الحارث المحاسبي.

سيدنا يحيى بن معاذ الرازي.

سيدنا أبو بكر الوراق.

سيدنا أبو عبد الله البلخي.

الإمام الجد سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني.

الشيخ ماءالعينين بن الشيخ محمد فاضل.

سيدنا الإمام أبو الحسن الشاذلي.

سيدنا أبو العباس المرسي.

سيدنا ابن عطاء الله السكندري.

سيدنا الإمام أحمد الرفاعي.

سيدنا الإمام أبو حامد الغزالي.

شيخ الإسلام سيدنا زكريا الأنصاري.

الإمام أحمد البدوي.

السيدة رابعة العدوية.

سيدنا الإمام إبراهيم الدسوقي.

الإمام الخطيب الشربيني.

سيدنا أبو طالب المكي.

سيدنا أبو يزيد البسطامي.

سيدنا الإمام محيي الدين ابن عربي.

سيدنا عبد الغني النابلسي..

سيدنا الإمام يحيى بن شرف النووي محرر المذهب الشافعي.

إمام المحدثين ابن حجر العسقلاني.

الإمام ابن حجر الهيتمي.

الإمام تقي الدين السبكي.

الإمام تاج الدين السبكي.

الإمام جلال الدين السيوطي.

الإمام ابن الجزري، شيخ القراء.

الإمام العز بن عبد السلام.

الإمام أحمد الدردير.

سيدنا شهاب الدين السهروردي.

سيدنا عبد الوهّاب الشعراني.

سيدنا عبد الله بن علوي الحداد.

الحافظ أبو نعيم الأصبهاني صاحب «حلية الأولياء».

أبو القاسم النصرَاباذي.

أبو علي الروذباري.

أبو العباس الدِّينَوَري.

أبو الفضل محمد المقدسي..

الحافظ ابن الصلاح.

الإمام ابن الملقن.

سيدنا أبو عبد الرحمن السلمي

الحافظ جمال الدين محمد بن علي الصابوني.

الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن الدمياطي.

الحافظ أبو طاهر السِّلَفي..

المُسنِد المُعمَّر جمال الدين أبو المحاسن يوسف الحنبلي.

قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله محمد المقدسي.

هؤلاء أشهر المتصوفة من المتقدمين والمتأخرين، يعرفهم العلماء، والقائمة تطول وتطول، وما تركت أكثر مما ذكرت.

وسأذكر لكم أسماء من المتأخرين حديثًا، وعلى رأسهم آل الخطيب الحسنيون أسرتي الكريمة الحسنية وفيها ٣٠٠ عمامة من العلماء من كبار الصوفية، وعلى رأسهم محدث الشام والحجاز ومصر الشيخ أبو النصر الخطيب.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السادس والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

علماء التصوف في القرن الماضي

ومن أشهر أعلام التصوف الإسلامي في القرن الماضي:

الإمام محمد الدين النهركاريزي، الملقب بسلطان العلماء وبرهان الأولياء، في أفغانستان.

الشيخ محمد النبهان، في حلب.

القطب صالح الجعفري، في مصر.

الشيخ علي الشيخ بن أمم، في موريتانية.

الشيخ عبد الحليم محمود، في مصر.

الشيخ إبراهيم الباجوري، في مصر.

الشيخ محمد متولي الشعراوي، في مصر.

الشيخ السيد يوسف إسحاق حمد النيل، في السودان.

سيدي محمد الجمل الدلنجات، البحيرة في مصر.

الشيخ حسنين مخلوف، في مصر.

مولانا الأعظم، عبيدالله جان فداء النقيبي، في باكستان.

إمام أهل السنة الشيخ تراب الحق، في كراتشي.

الشيخ محمد الهاشمي التلمساني، في سورية.

الشيخ عبد القادر عيسى، في سورية.

الشيخ الملا رمضان البوطي، في سورية.

الشيخ محمد الحامد، في سورية.

الشيخ مصطفى سعيد الخن، في سورية.

الشيخ محمود بن عبد الرحمن الشقفة، في سورية.

الشيخ سعيد حوَّى، في سورية.

الشيخ أحمد كفتارو، في سورية.

الشيخ عبد الحكيم عبد الباسط، في سورية.

الشيخ محمد سعيد الكردي، في الأردن.

الشيخ يوسف النبهاني، في لبنان.

الشيخ عبد القادر بن أحمد السقاف، في السعودية.

الشيخ محمد علوي المالكي، في السعودية.

الشيخ أحمد العلاوي، في الجزائر.

الشيخ أحمد بن صديق الغماري، في المغرب.

الشيخ عبد الله بن الصديق الغماري، في المغرب.

الشيخ محمد بن يلس التلمساني، وولده الشيخ أحمد بن يلس التلمساني، وولده في سورية الشيخ عبد الرحمن بن يلس التلمساني.

الشيخ محمد بدر الدين الحسني محدث الشام، في سورية.

الشيخ عبد الحكيم عربي كاتبي، في سورية.

الشيخ إبراهيم الغلاييني، في سورية.

الشيخ عبد الرحمن المجذوب، في سورية.

الشيخ أمربيه رب، في المغرب.

سيد المختار الكنتي، في موريتانية.

الشيخ محمد بلقايد، في الجزائر- وهران.

الشيخ عبد اللطيف بلقايد، في الجزائر- وهران.

الشيخ علي الدقر، في سورية.

الشيخ حسن حبنكة الميداني، في سورية.

الشيخ عبد الكريم الرفاعي، في سورية.

ومن المعاصرين:

إمام أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الرحمن الشاغوري، في سورية.

الشيخ مصطفى التركماني، في سورية.

الحافظ الجامع الشيخ شكري اللُّحفي، في سورية.

الشيخ سعيد البرهاني، في سورية.

الشيخ هشام البرهاني، في سورية.

الشيخ الدكتور عدنان إبراهيم، في سورية.

الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبو العزائم، في مصر.

سيدي الشيخ محمد الشيخ

الشيخ موسى أبو كلال، في سورية.

الشيخ سعيد الكحيل، في حمص.

سيدي الشيخ حسين الخطيب الطيباني، في سورية.

سيدي الشيخ حافظ الخطيب الطيباني، في سورية

سيدي الشيخ محمد تقي الدين الخطيب، في سورية.

سيدي عبد السلام ياسين، في سورية.

سيدي محمد الفوزي الكركري، في المغرب.

سيدي حمزة بن العباس البودشيشي، في المغرب.

الشيخ أحمد بدر الدين حسون مفتي سورية.

الشيخ محمود الدرّة، في سورية.

الشيخ محمد عوض، في سورية.

الشيخ أسامة الرفاعي مفتي عكار، في لبنان.

الشيخ عبد الوكيل الدروبي، في سورية.

الشيخ صالح الحموي، في سورية.

الشيخ علي جمعة مفتي الديارالمصرية، في مصر.

الشيخ أحمد الطيب، شيخ الأزهر، في مصر.

الشيخ محمد بن إبراهيم بن عبد الباعث الكتاني، في مصر.

الشيخ أحمد مرسي أحمد زهران، في مصر.

الشيخ محمد الشندويلي.

صاحب زاده محمد مطيع الله جانفداء النقيبي، في باكستان.

الشيخ محمد عز الدين الغرياني، في ليبية.

الشيخ محمد صلاح الدين المستاوي، في تونس.

الشيخ أحمد المعيني، في حلب.

الشيخ أحمد الجامي، في تركية.

الشيخ محمد ناظم الحقاني شيخ الطريقة النقشبندية، في قبرص.

الشيخ محمد هشام قباني، في لبنان.

الشيخ وصال عبد العزيز آل عطيها، في السعودية.

الشيخ محمد عبد الغفار الشريف، في الكويت.

الشيخ يوسف الرفاعي، في الكويت.

الشيخة حياة نور، في إسطنبول.

الشيخ علي الجفري، في اليمن.

الشيخ عمر بن حفيظ، في اليمن.

الشيخ سالم بن عبد الله الشاطري، مدير رباط تريم، في اليمن.

الشيخ حسن بن صالح العطاس (البحر) في اليمن.

الشيخ حمدي عرابي، في سورية.

الشيخ مصطفى السعافين، في غزة.

الشيخ نوح القضاة المفتي العام سابقًا، في الأردن.

الشيخ أحمد بن حمد الخليلي العماني مفتي المملكة في عمان.

الشيخ ناصر الدين الخطيب في الأردن، وولده الشيخ معتصم.

الشيخ نوح كلر، في الأردن.

الشيخ حسني الشريف، في الأردن.

الشيخ حازم أبو غزالة، في الأردن.

الشيخ إسماعيل الكردي، في الأردن.

الشيخ سعيد فودة، في الأردن.

الشيخ عبد الكريم حماد عرابي، في الأردن.

الشيخ مصطفى الجعفري، في لبنان.

الشيخ شهير عربي كاتبي، في دمشق.

الشيخ أبو النور أحمد خورشيد، في سورية.

الشيخ الحافظ الجامع أبو الحسن الكردي، في سورية.

الشيخ عبد الله سراج الدين، في حلب.

الشيخ محمود الحوت، في حلب.

الشيخ ممدوح المنديل، في الأردن.

الشيخ هيثم ضمرة ضمرة، في الأردن.

الشيخ عبد الله فدعق، في السعودية.

الشيخ أحمد بن محمد العلوي المالكي، في السعودية.

الشيخ محمد بن عبد الرحمن السقاف، في السعودية.

الشيخ زين بن سميط، في السعودية.

الشيخ عبد الله بن بيه، في موريتانية.

الشيخ محمود رفاعي حمادة، في سورية.

الشيخ أحمد رضا خان، في الهند.

الشيخ محمد أختر رضا خان الأزهري، في الهند.

الشيخ ضياء الدين المدني.

الشيخ أبو القاسم القادري، في كراتشي.

الشيخ عبد العزيز القادري، في كراتشي.

الشيخ عامر الصديقي، في كراتشي.

الشيخ سامر النص، في سورية.

الشيخ رجب ديب، في سورية.

الشيخ إبراهيم سباع، في جدة.

الشيخ محمود الظفيري، في دير الزور.

الشيخ عبد الجليل عطا، في سورية.

الشيخ نعمان قلعة جي، في سورية.

الشيخ بدر مهباني، في سورية.

الشيخ رامي شبعان، في سورية.

الشيخ أبو عبد الرحمن محمود الإسكندراني، في مكة المكرمة.

الشيخ محمود السوادي، في حماة.

الشيخ نايف الزعبي، في دمشق.

وقد تركت أسماء أعلام آخرين خشية الإطالة، ولأنه لايعلمهم إلا الخواص من الناس...

فلا يغرنك أخي المسلم كلام الوهابية في اتهام الصوفية؛ لأنهم أعداء ما جهلوا، وكذا قد قيل: الإنسان عدوٌّ ما جهل..

متَّع الله الأمة بالأحياء منهم، ورحم الميتين، ورفع قدرهم عنده في عليين.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

فضل الذكر بالاسم المفرد

والرَّدُّ على المعترضين عليه

ذكر الله نعمة كبرى، ومنحة عظمى، به تستجلب النعم، وبمثله تستدفع النقم، وهو قوت القلوب، وقرة العيون، وسرور النفوس، وحياة الأرواح، وروح الحياة. ما أشد حاجة العباد إليه! وما أعظم ضرورتهم إليه! لا يستغني عنه المسلم بحال من الأحوال، ولما كان ذكر الله بهذه المنزلة الرفيعة والمكانة العالية؛ فأجدر بالمسلم أن يتعرف إلى فضله وفوائده!!

ولقد اعتُرض على الصوفية في عنايتهم بالاسم المفرد ولهجهم به؛ زعمًا أن الذكر به بدعة، وأنه لا يشتمل على جملة مفيدة مثل الأذكار الواردة؛ نحو: "لا إله إلا الله"، و"الحمد لله"، و"الله أكبر"، إلى غير ذلك!!

لكن ذكر الله تعالى باسمه المفرد مما تواطأ جمع من الأئمة على جوازه؛ بدليل قوله تعالى: ﴿**وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا**﴾ [المزمل: ٨] وقال تعالى أيضا: ﴿**وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً**

﴿وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥] جاء في التفسير: "﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾؛ أي: ادُعه بأسمائه الحسنى؛ ليحصل لك محمود العاقبة"(١).

وقد ورد في الحديث الشريف الذي رواه سيدنا أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم: "**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**"(٢). فهذا اسم مفرد ورد ذكره مكررًا في هذا الحديث.

وفي رواية أخرى عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**لا تقوم الساعة على أحد يقول: الله الله**". قال الشيخ علي القاري في شرح هذا الحديث: "أي: لا يذكر الله، فلا تبقى حكمة في بقاء الناس، ومن هذا يُعرف أن بقاء العالم ببركة العلماء العاملين، والعباد الصالحين، وعموم المؤمنين، وهو المراد بما قال الطيبي رحمه الله: "معنى حتى لا يقال: «الله الله»: حتى لا يُذكر اسم الله ولا يُعبد"(٣).

---

(١) «تفسير القرطبي» (٣٩/ ١٩).

(٢) «مسلم» (حديث ٢٣٤).

(٣) «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» لملا علي القاري (ج٥/ ص٢٢٦)، «حقائق عن التصوف» لعيسى (١٢٥).

وأما من أنكر على الصوفية عنايَتَهم بالاسم المفرد، وذكرهم به...، إلى غير ذلك؛ فهذا قول مردود كما قال الإمام سيدي عبد الله بن الصديق الغماري، مجيبًا من قال: الذكر بالاسم المفرد «الله»: بدعة لم تنقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عن أحد السلف. قال: (هذا مردود من **وجوه**:

أولها: ما ورد في «صحيح مسلم» من قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا تقوم الساعة حتى لا يُقال في الأرض الله. الله**»، فإن هذا الحديث الشريف شاهد لذكره وتكراره.

ثانيها: أنا لا نُسَلّمُ أن الذكر لا يكون إلا جملة، فقد قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف: ١٨٠] بناء على أن المراد بالدعاء الذكر والتسمية.

ثالثها: أننا وإن سلّمنا أن الذكر إنما يكون جملة فقول الذاكر: «الله. الله» جملةٌ تقديرًا؛ إذ معناه: يا ألله، أو الله أعظم، أو الله أكبر...)[1].

وأما قولهم: إن الذكر بالاسم المفرد لا يؤلف جملة تامة مفيدة...؛ فالجواب عن ذلك: أن الذاكر بهذا الاسم المفرد لا يكلم مخلوقًا، فلا يُشترط أن يكون كلامه تامًّا مفيدًا؛ لأنه يذكر الله تعالى الذي هو عالم بنفسه، مطلع على قلبه.

---

(١) «الإعلام» للغماري (ص ٣٥).

ومن هنا يظهر خطأ بعض المتسرعين بالاعتراض على الذكر بالاسم المفرد؛ بحجة أنه لم يرد به نص في الكتاب والسنة، مع أن النصوص المذكورة آنفًا ظاهرةٌ جلية كما بيّنا. وإليك بعض أقوال العلماء في هذا الموضوع:

*يقول ابن عابدين في «حاشيته» الشهيرة عند شرح البسملة وبحثه عن لفظة (الله): "روى هشام عن محمد عن أبي حنيفة أنه [أي: الله] اسم الله الأعظم، وبه قال الطحاوي، وكثير من العلماء وأكثر العارفين، حتى إنه لا ذكر عندهم لصاحب مقامٍ فوق الذكر به، كما في «شرح التحرير» لابن أمير حاج"[1].

*وقال المناوي شارحًا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**إن الله تعالى يقول: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه**[2]": فهو مع من يذكره بقلبه، ومع من يذكره بلسانه، لكن معيته مع الذكر القلبي أتم، وخص اللسان لإفهامه دخول الأعلى بالأولى، لكن محبته وذكره لما استولى على قلبه وروحه؛ صار معه وجليسه،

---

(١) «الحاشية» (١/ ٧٦).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» والحاكم في «مستدركه» وابن حبان في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ولزوم الذكر عند أهل الطريق من الأركان الموصلة إلى الله تعالى، وهو ثلاثة أقسام: ذكر العوام باللسان، وذكر الخواص بالقلب، وذكر خواص الخواص بفنائهم عن ذكرهم عند مشاهدتهم مذكورهم، حتى يكون الحق مشهودًا لهم في كل حال.

قالوا: وليس للمسافر إلى الله في سلوكه أنفع من الذكر المفرد القاطع من الأفئدة الأغيار، وهو «الله» وقد ورد في حقيقة الذكر وتجلياته ما لا يفهمه إلا أهل الذوق"[1].

*وقال العارف بالله ابن عجيبة: "فالاسم المفرد [الله] هو سلطان الأسماء، وهو اسم الله الأعظم، ولا يزال المريد يذكره بلسانه ويهتز به حتى يمتزج بلحمه ودمه، وتسري أنواره في كلياته وجزئياته...، إلى أن قال: فينتقل الذكر إلى القلب ثم إلى الروح ثم إلى السر، فحينئذ يخرس اللسان، ويصل إلى الشهود والعيان"[2].

*وذكر أبو علي الدقاق، (ت ٤٠٦) أن رجلًا كان يقول: «الله الله» دائمًا، فأصاب حجرٌ رأسه فشجّه فقطر منه الدم، وكتب على الأرض: «الله الله»[3].

---

(١) «فيض القدير» حديث ١٩٢٨ (ج٢/ ص٣٠٩).

(٢) «معراج التشوف» (ص ٤٧) «تجريد ابن عجيبة على شرح متن الأجرومية» (ص١٥).

(٣) «القصد المجرد في معرفة الاسم المفرد» للسكندري(٩٢).

و"بقي النوري في بيته ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم ينم، وهو يقول: «الله الله الله»، فأُعِلم الجنيد بذلك فقال: انظروا أمحفوظة عليه أوقاته أم لا؟ فقالوا له: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان عليه سبيلًا"[1].

و"سئل الشبلي: لم تقول: «الله الله» ولا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أبغي له ضدًّا، فقال السائل: أريد أعلى من هذا، فقال: أخشى أن أؤخذ بين وحشية النفي والإثبات، فقال: أريد أعلى من هذا، فقال: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١] فزعق السائل ومات، فتعلق أولياؤه بالشبلي، فقال لهم: روحٌ دعيت فسمعت وأجابت، فما ذنبي؟ فقال الخليفة: خلُّوا سبيله، لا ذنب له"[2].

*وقال القطب الشيخ أبو العباس المرسي: "ليكن ذكرك: «الله الله» فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، فبساطه العلم[3]، وثمرته النور، وليس النور مقصودًا لذاته، بل لما يقع به من الكشف والعيان"[4]. فينبغي الإكثار من ذكره،

---

(١) «الإلمام والإعلام» لابن زكري الفاسي (ص ٣٣).

(٢) «الإلمام والإعلام» (٣٤١).

(٣) أي: طريق الذِّكر العِلْم.

(٤) «لطائف المنن في مناقب المرسي» للسكندري (١٦٥).

واختياره على سائر الأذكار؛ لتضمنه لجميع ما في (لا إله إلا الله) [1] من العلوم والعقائد والآداب والحقوق، فإنه يأتي في: (الله) وفي: (هو) ما لا يأتي في غيرهما من الأذكار.

*وقال الإمام الجنيد: "ذاكر هذا الاسم ذاهل عن نفسه، متصل بربه، قائم بأداء حقه، ناظر إليه بقلبه، قد أحرقت أنوار الشهود صفات بشريته"[2].

*وقال الشيخ زرُّوق: "ولهذا اختاره المشايخ ورجحوه على سائر الأذكار، وجعلوا له خلوات، ووصلوا به إلى أعلى المقامات والولايات، وإن كان منهم من اختار في الابتداء «لا إله إلا الله» وفي الانتهاء «الله الله»"[3].

وقال ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثية»: (ذكر «لا إله إلا الله» أفضل من ذكر الجلالة مطلقًا بلسان أهل الظاهر، وأما عند أهل الباطن فالحال عندهم يختلف باختلاف حال السالك، فمن هو في ابتداء أمره ومقاساة شهود الأغيار وعدم

---

(١) معنى (لا إله إلَّا الله): لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، و(الله): المعبود بحقٍّ، فهو متضمِّن ما في معنى: (لا إله إلَّا الله).

(٢) «الإلمام والإعلام» (ص١٧٩) و«نور التحقيق» (ص١٧٤).

(٣) «الأعلام» للغماري (٥٧).

انفكاكه عن التعلق بها؛ يحتاج إلى النفي والإثبات حتى يستولي عليه سلطان الذكر، فإذا استولى عليه فالأولى له لزوم الإثبات؛ أعني: «الله الله»[1].

ثم إن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة التي رغبت في الذكر جاءت عامة ومطلقة، لم تخصص ذكرًا معينًا، ولم يرد نص شرعي يحرم الذكر بالاسم المفرد (الله).

*وقال العلامة الخادمي: (واعلم أن اسم الجلالة «الله» هو الاسم الأعظم عند أبي حنيفة والكسائي والشعبي وإسماعيل بن إسحاق وأبي حفص وسائر جمهور العلماء، وهو اعتقاد جماهير مشايخ الصوفية ومحققي العارفين، فإنه لا ذكر عندهم لصاحب مقام فوق مقام الذكر باسم «الله» مجردًا. قال الله لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]).

فتمسَّكْ أيها المريد الصادق بذكر الاسم المفرد (الله) إذا كنت مأذونًا به من مرشد كامل، فإنه أسرع في قلع عروق النفس من منابتها من السكين الحاد.

وأما ما يراه المريد في أول سيره أثناء ذكره لهذا الاسم من حرارة وضيق؛ فلأن نفْسَه لا حَظَّ لها من هذا الذكر، فإن هذا الاسم يزيل عالم الخلق من القلب ويفرِغُه من الأكوان.

---

(١) «الفتاوى» (ص ٥٣).

لذا نرى المربين الكُمَّل يأمرون مريديهم بذكر (لا إله إلا الله) في بادئ أمرهم، فإذا تمكن النفي والإثبات من قلوبهم؛ نقلوهم إلى ذكر الاسم المفرد، وأوصَوهم بملازمته ومجاهدة النفس على تحمل مرارته.

فإن لم يصبروا على هذه المرارة في ابتداء أمرهم، وأهملوا ذكر الاسم المفرد؛ وقفوا في سيرهم، وحُرِموا خيرًا عظيمًا؛ بسبب فساد عزيمتهم وضعف إرادتهم.

أما إذا عزموا على ذكر هذا الاسم وصبروا واستقاموا عليه؛ انطبع هذا الاسم في قلوبهم، وصار ساريًا في عروقهم ممزوجًا بأرواحهم، والمذكور تجاهَهُم لا يغفلون إذا غفل الناس فارتحلت عنهم الغفلة، وعندها يتحققون بمقام الإحسان الذي أشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**...».

ومن الأسماء الإلهية التي يذكر فيها مولانا عزَّ وجلَّ اسم (هو) عند الشَّاذلية، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: ١] ففي هذه الآية ثلاثة أسماء له تعالى فيها الإشارة إلى الهوية المطلقة لله تعالى مجردًا عن الصِّفات؛ أي: لا مطلب للذَّاكر سوى الله تعالى.

وقد ذكر الإمام الفخر الرَّازي أكثر من ثلاثين وجهًا في «تفسيره» لسورة الفاتحة أثبت فيها أنَّ (هو) اسم من أسمائه تعالى.

ولقد أخطأ سيِّدنا العزُّ بن عبد السَّلام رحمه الله حين اعترض على الذَّاكر بهذا الاسم وقال: لا يشكِّل جملة مفيدة، فقام سيِّدنا الإمام الشَّاذلي بتصحيح هذه القضيَّة للإمام العزِّ رحمهما الله تعالى، وقال: إنَّ سيِّدنا بلالًا كان ينادي وهو تحت العذاب: (أحد، أحد)، فهل يحتاج إلى جملة مفيدة؟!

وتقدَّم الدَّليل عليه في قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾ [الأنعام: ٩١] فإنَّه يأتي مثله هنا، والله أعلم.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثامن والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الذكر بالاسم المفرد

لماذا الذكر[1] بالاسم المفرد؟

---

(١) الذِّكر يعني: ذكر العبد لربِّه عزَّ وجلَّ سواء بالاسم (الله) أو بصفاته سبحانه، أو بأفعاله (يا غفور)، أو أحكامه (يا لطيف)، أو بتلاوة كتابه، أو بسؤاله ودعائه، أو بتقديسه وتوحيده، وحمده وشكره... كلُّه ذكر، لكن يستعمل استعمالًا خاصًا، فكلمة (الذِّكر) المرادة هنا غير تلاوة القرآن، ففي ما أخرجه الطبراني: «**من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السَّائلين**» جعل الذِّكر غير تلاوة القرآن وغير المسألة؛ وهي الدُّعاء، وكل أنواع الذِّكر دواء لأمراض القلوب؛ منها الوارد عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، ومنها الوارد عن الصَّحابة والتَّابعين والعارفين، ولكلِّ صيغة تأثير قلبي خاص، ومن صيغ الذِّكر: الله الله، أو: هو، واسم (الله) مفرد علم موضوع ليدل بالمطابقة على واجب الوجود لا شريك له، فالذَّاكر يقصد به هذا المعنى، وهو منادى حذف منه حرف ندائه، والمنادى من أقسام الكلام المفيد؛ لأنَّهم أوَّلوا حرف النَّداء بمعنى: أدعو، وحذف حرف النِّداء جائز وشائع في لغة العرب، على أنَّ حرف النِّداء يؤتى به للتَّنبيه، والله عزَّ وجلَّ منزَّه عن التَّنبيه، وأكثر أدوات التَّنبيه موضوعة لنداء البعيد، وسبحانه وتعالى قريب من الدَّاعي؛ لذلك حذف أداة النِّداء، وقد ثبت أنَّ سيِّدنا بلالًا كان يقول أثناء التَّعذيب له: أحد أحد، ولم ينهه صلَّى الله عليه وسلَّم. رواه ابن ماجه بسند كله ثقات، والنَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «**لا تقوم السَّاعة حتى لا يقال في**

تكرر من بعض الإخوة السؤال عن سبب اختيار اسم (الله) للذكر عند الصوفية دون سواه؟

أقول وبالله التَّوفيق:

الأرض: الله الله»، وبعض المعترضين يقول لك: غير مأثور هذا عن النَّبيِّ، ونحن نقول: إنَّ ترك رسول الله لهذا الذِّكر لا يعني تحريمه، التَّرك لا يفيد حكمًا شرعيًّا بمفرده، وهذا محلُّ اتفاق بين المسلمين، فمثلًا: إنَّ ترك بعض الصَحابة لصلاة الرَّكعتين قبل المغرب لا يعني التَّحريم أو الكراهة ما داموا لم يصرِّحوا بكراهتها ولم ينقلوا ذلك، وكان الصَّحابة يحدثون ذكرًا في الصَّلاة غير مأثور عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف بكم خارج الصَّلاة؟! صلى الصَّحابة خلف النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا قال: «**سمع الله لمن حمده**». قال صحابي: **ربنا ولك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه**، فأثنى عليه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم وقال: «**رأيت بضعة وثلاثين مَلَكًا يبتدرونها أيُّهم يكتبها أوَّلًا؟**» أخرجه الإمام أحمد والبخاري فهذا داخل الصَّلاة، فكيف بكم خارجها؟! حتى إنَّ الإمام أبا حنيفة يرى أنَّ من قال: (الله) بدل تكبيرة الإحرام؛ يكون قد دخل في الصَّلاة، وأنَّ لفظ (الله) يحصل به التَّعظيم بغير اشتراط أن يكون في جملة مفيدة (الله أكبر)، ونحن نقول: إنَّ اسم (الله) إليه تنسب كلّ المعاني والكمالات، وإليه تنسب الصِّفات العُلا، والخيرات والبركات، فهو مبتدأ لا يفتقر إلى خبر أصلًا، فيه الكفاية والغنى عن كلِّ ما عداه، ولهذا الاسم أسرار وعجائب ليست لغيره؛ ولهذا اتخذه الصُّوفيَّة اسمًا للذِّكر، وهذا هو درس اليوم.

١- الصوفية يذكرون بكل الأسماء بحسب حالة كل صوفي[1]، لكن أصول الأسماء كلها ترجع إلى اسم الذات: (الله)، ولما كان هذا الاسم في الاختصاص بالله تعالى على هذا الوجه؛ وجب أن يكون أشرف الأسماء كلها؛ لأنَّ معناه: المعبود بحقٍّ.

٢- **اسم (الله): هو اسم الله الأعظم** الجامع لكل الأسماء الحسنى والصفات العظمى، الجامع للكمالات كلها، المنزّه عن النقائص كلها، عَلَمٌ على الذات واجب الوجود.

٣- الأصل في الأسماء الحسنى هو اسم (الله) وجميع الأسماء مضافة إليه:

هذا الاسم هو الأصل في أسماء الله سبحانه وتعالى، وسائر الأسماء: "الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار" وبقية الأسماء

---

(١) ناس يذكرون: (يا رحيم) حتَّى قالوا: من ذكره بلا عدد جعل الله عدوه صديقًا، ووجد راحة في بدنه، وبعضهم يذكر: (يا ملك) إذا ذكرته وأنت داخل على ظالم ذلّ في الحال، (يا قدوس) في ذكره يشعر أنَّ جوارحه لا تشتهي معصية وقت ذكره، فلا تنظر عينه إلى الحرام، وأذنه تأبى سماع الأغاني والفواحش، فكأن جوارحه تتحرر من عبودية الشَّيطان؛ يعني: يذهب عنه رجز الشَّيطان، (يا عزيز) يصير ذاكره عزيزًا بين أقرانه وأعزه الله بعد الذُّل، وأغناه بعد الفقر، وأمَّنه بعد الخوف، حتَّى قال السَّهروردي: من قرأه سبعة أيام متوالية أذلَّ الله خصمه، وعطَّف عليه كلَّ من يراه، وهكذا لكلِّ اسم سرٌّ من الأسرار.

مضافة إليه، قال تعالى: ﴿**وَلله الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ**[1] **فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فجميع الأسماء الحسنى أضيفت إلى الله سبحانه وتعالى، ولا محالة أن الموصوف أشرف من الصفة؛ لأنه يقال: " الرحمن الرحيم، الملك، القدوس" كلها أسماء لله تعالى، ولا يُقال: (الله) اسم الرحمن الرحيم، بل الرحمن الرحيم اسم الله، فدلَّ على أن هذا الاسم هو الأصل.

٤- قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

خصص مولانا هذين الاسمين بالذكر، وذلك يدل على أنهما أشرف من غيرهما، ثم إن اسم (الله) أشرف من اسم (الرحمن)، والدليل أنه قدمه في الذكر، قال الله: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ**﴾ لأن اسم الرحمن يدل على كمال الرحمة، ولا يدل على كمال القهر والغلبة والعظمة والقدس والعزة، وأما اسم (الله) سبحانه وتعالى

---

(١) ﴿**يُلْحِدُونَ**﴾ [الأعراف: ١٨٠]: يميلون عن الحقِّ، وإدخال ما ليس من الدِّين في الدِّين، فيسمّون الله بأسماء لم يسمّها نفْسه؛ لأنَّ أسماء الله توقيفيَّة... كما فعل الفلاسفة سمَّوا الإله بالعلَّة، والنَّصارى سمَّوه بالأب.

فهو يدل على كل هذه المعاني؛ لذلك هو اسم الذات الأعظم الجامع لكل الأسماء الحسنى.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس التاسع والخمسون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

شرح حديث: «كل بدعة ضلالة»

يقول عليه الصلاة والسلام: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو ردٌّ**) أي: مردود عليه.

وفي رواية لمسلم: (**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو رد**).

وقال أيضًا: (**ومن سنَّ في الإسلام سنة سيئة؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**).

وقال أيضًا: (**كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**).

كيف فهم الصحابة هذه الأحاديث؟ وكيف فهمها من بعدهم؟

الوهابية فهموا الحديث على إطلاقه، فوقعوا في التبديع والتكفير.. وأما العلماء - أمثال مولانا وقدوتنا الإمام الشافعي رحمه الله تعالى- فقد قالوا: إن حديث «كل بدعة ضلالة» ليس على ظاهره؛ أي: فهمه الناس غلطًا، والمراد منه: ما أحدث ولا دليل عليه من أصل الشرع يكون ضلالة..

يقول مولانا الإمام الشافعي رضي الله عنه:

المحدثات ضربان -أي: نوعان-:

١- ما أحدث يخالف كتابًا أو سنة أو أثرًا أو إجماعًا؛ فهذه بدعة الضلالة.

٢-وما أحدث من الخير لا يخالف شيئًا من ذلك؛ فهذه محدثة غير مذمومة.

والبدعة الممدوحة سماها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة حسنة حين قال: (**من سن في الإسلام سنة حسنة؛ فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة**).

ما رأيكم أن البدعة قد تكون واجبة في الدين؟! نعم واجبة.. وهي ما تناولتها قواعد الوجوب وأدلته من الشريعة؛ مثل كتابة المصحف الذي لجأ إليه سيدنا الصديق الأكبر وسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنهما؛ حفظًا لكتاب الله من التحريف والقضاء عليه بموت الحفاظ.

ومثله نقول في كتابة السنة المطهرة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، وكان قد نهى عن كتابتها حتى لا تختلط بالقرآن.

ومن البدع ما يكون مندوبًا؛ كصلاة التراويح جماعة وجعلها عشرين ركعة وعلى إمام واحد... فقد وحَّدت المسلمين وجمعتهم بعد أن كانوا يصلون مجموعات متفرقة؛ ولذلك لما فعلها سيدنا الفاروق رضي الله عنه ورآهم يقتدون به قال: نعمت

البدعة هذه!. وقد وافقه الصحابة الكرام جميعًا وأثنوا على فعله.. يا ترى نحن نأخذ بثناء الصحابة أم بذم الوهابية؟! نأخذ بالإجماع أم بكلام أفراد لا علم لهم بالدين..!! إن هذا لشيء عجيب!!

ومن البدع الممدوحة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف؛ أخذًا من الإشارة في «صحيح مسلم» وقد سئل نبينا صلى الله عليه وسلم عن سبب صومه ليوم الاثنين فقال: (**ذلك يوم ولدت فيه**). وقد أفضتُ في الحديث عن ذلك فيما تقدم.

ومنها التوسل والتبرك بآثار الصالحين؛ قياسًا على التبرك والتوسل بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم..

وهناك بدع مباحة وما أكثرها في حياتنا!! كالجلوس على الطاولة والكرسي، والأكل بالملعقة، وأزياء اللباس، والتوسع في المباحات.. كلها بدع غير محرمة، فالحديث ليس كما فهمه من لا يفهم..

وهناك بدع مكروهة: كزخرفة المساجد، والزيادة على ما حدده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشرع؛ كالزيادة في عدد التسبيحات عقب الصلوات بقصد الرغبة عن السنة؛ لأن شأن العظماء إذا حددوا شيئًا أن يتوقف عنده..

أما البدع المحرمة وهي المرادة في حديث الضلالة..؛ فهي كل أمر مخالف لصريح القرآن والسنة؛ كالاختلاط، ونزع الحجاب، وحلق اللحى لدى الرجال، وإنكار الاحتجاج بالسنة، أو تقديم العقل على النقل وجعله أصلًا والشرع تابع له.

ومن البدع المحرمة: التشريع بما يخالف الكتاب والسنة، والاجتماع على ما يخالف الدين؛ كالاختلاط بين الجنسين، والعلاقات المنافية لآداب الشرع، وكل ما يهدم الدين أو يهدم أصلًا من أصوله أو يميت سنة أو يحيي بدعة.

وعليه يمكن القول: إن ما فهمه الناس من إطلاق الحديث غير صحيح؛ ولذلك هناك رواية صحيحة للحديث توضح هذا المعنى الذي قررته؛ وهي (**كل بدعةٍ ضلالةٍ**..) بإضافة (بدعة) إلى (ضلالة)؛ أي: كل بدعة فيها ضلالة هي في النار.. وليس كل ما ابتدع ضلالة كما يفهم من الحديث الأول!!

عن بلال بن الحارث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«اعلم عمرو بن عوف». قال: ما أعلم يا رسول الله؟ قال: «**إنه من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي؛ فإن له من الأجر مثلَ من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، ومن ابتدع بدعة ضلالة لا ترضي الله ورسوله؛ كان عليه مثلُ آثام من**

عمل بها لا ينقص ذلك من أوزار الناس شيئًا». أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

فلا يتفلسف فلاسفة الزمان ويقرروا شيئًا لم يقرره سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مدعين المحافظة على الدين، فإن الدين من قولهم بريء.. بريء.. بريء..

اللهم اهدنا من عندك..

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

من سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الثاني

الإمام الحسن البصري

٢١هـ - ١١٠هـ

اعلم أن شيخهم في الخرقة والطريقة، وأستاذهم في البيعة والوثيقة؛ الإمام الورع الزاهد السيد السند البطل الشجاع المجاهد، مقتدى أكابر أهل الله العارفين، المرشد الأكمل، شيخ الكل في الكل، رئيس الطوائف وإمام كل عارف، خليفة ابن عم النبي القرشي، ووارث مضمر العلم، إمام العلماء الصوفية سيدنا أبو سعيد الحسن بن يسار بن مطهر بن غاضرة بن قرهد (وقيل: فرهد بالفاء) العوفي البصري رضي الله عنه.

والده أبو الحسن يسار من سبي ميسان، وهي كورة واسعة عظيمة القرى والنخل، بين البصرة وواسِط من أرض العراق، سكن المدينة المنورة، وكان مملوكًا

فأُعتِقَ وبقي في المدينة، وتزوج فيها، وذلك في خلافة الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه[1].

وولد له سيدنا الحسن في المدينة، لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه؛ أي: سنة (٢١هـ).

تربَّى في بيت النُّبوَّة، كانت أمُّه تنشغل عنه، فيبكي، فترضعه السَّيدة أمُّ سلمة، وتخرجه إلى الصَّحابة، فيدعون له، ودعا له سيِّدنا عمر: «اللهم فقِّهه في الدِّين، وحبِّبه إلى النَّاس»، فحفظ القرآن في العاشرة من عمره، وكان رضي الله عنه إمامًا في الفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن واللغة والأدب والبلاغة والتصوف، وكان من

---

(١) **أستاذه**: سيِّدنا أنس بن مالك، ورأى عددًا كبيرًا من الصَّحابة منهم سيِّدنا جابر وابن عبَّاس، وتتلمذ على الأحنف بن قيس، والزُّبير بن العوام، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسيِّدنا عثمان بن عفان، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، ومن تلامذته: سيدنا قتادة، وواصل بن عطاء الذي انفصل عنه، سأل سيِّدنا الحسن عن عصاة الموحدين، فقال له سيِّدنا الحسن: هم تحت المشيئة، إن شاء الله عذبهم، وإن شاء غفر لهم، فقال واصل: بل هم في منزلة بين المنزلتين، ثم اعتزل حلقته، فقال سيِّدنا الحسن: اعتزلنا واصل، فسُمِّيت فرقته بالمعتزلة.

العظماء، وسيمًا، شجاعًا، قال عنه أستاذ العربية أبو عمرو بن العلاء: ما رأيت أفصح من الحسن البصري!

وفي سَنة ٣٧هـ انتقل إلى البصرة، فكانت بها رحلة التَّلقي والتَّعلم، فقد استمع إلى الصَّحابة الذين استقرُّوا بها، وكان فيها محدِّثًا وقاضيًا، ولبس الخرقة من الإمام سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، كما صحح ذلك الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله[1].

وقد أطبق القوم على أن إمام طريق التصوف من التابعين هو الإمام الحسن البصري رضي الله عنه، وقد انتهت إليه أسانيد الصوفية على الغالب.

سئل سيِّدنا أنس بن مالك عن مسألة، فقال: سلوا مولانا الحسن، قالوا: يا أبا حمزة نحن نسألك تقول: سلوا الحسن، قال: سلوا مولانا الحسن؛ فإنَّه سمع

---

(١) بسبب الخلاف في السَّماع من سيِّدنا علي بين الصَّحابة؛ لأنَّه التقاه وكان عمره ١٤ سَنة يوم بويع بالخلافة، وقال التِّرمذي: لا نعرف للحسن سماعًا من علي بن أبي طالب، والعجيب أنَّهم يقولون: أدركه ورآه، لكن لم يسمع منه!

وسمعت، فحفظ ونسينا، وقال: إنِّي لأغبط أهل البصرة بهذين الشَّيخين؛ الحسن البصري ومحمَّد بن سيرين.

قال محمد بن الحسن: كان الحسن البصري قدوة وإمامًا في الشريعة والطريقة والسنة، وكان لقبه سيِّد التَّابعين، لقبه به سيِّدنا عمر بن عبد العزيز حيث يقول: ولَّيتُ قضاء البصرة سيِّد التَّابعين، والسَّيدة عائشة رضي الله عنها لَمَّا سمعته يتكلَّم قالت: من هذا الذي يتكلَّم بكلام الصِّديقين؟!.

كان له مجلسان للعِلم: مجلس خاص بمنزله، ومجلس عام في المسجد في الحديث، والفقه، وعلوم القرآن، واللُّغة، وكانت حلقته كبيرة.

وكان يقول: من أحب اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمل بما كان عليه أصحابه؛ فليقتدِ بالحسن.

وكان سيدنا الحسن يقول: من لبس الصوف تواضعًا لله زاده الله نورًا في بصره وقلبه، ومن لبسه إظهارًا للزهد في الدنيا والتكبر به على الإخوان في نفسه؛ كُوِّرَ في جهنم مع الشياطين.

وكان يقول: ما كل الناس يصلح للبس الصوف؛ لأنه يطلب صفاءً ومراقبة لله عزَّ وجلَّ.

وكان يقول: بئس الرَّفيقان: الدِّينار والدِّرهم، لا ينفعاك حتَّى يفارقانك.

وكان يقول: نضحك ولا ندري لعلَّ الله قد اطلع على بعض أعمالنا، فقال: لا أقبل منكم شيئًا، ويحك يا ابن آدم! هل لك بمحاربة الله طاقة؟! إنَّ من عصى الله فقد حاربه، والله لقد أدركت سبعين بدريًّا لو رأيتموهم لقلتم: مجانين، ولو رأوا خياركم لقالوا: ما لهؤلاء من خَلاق، ولو رأوا شراركم لقالوا: ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب.

وقيل له مرة: ما سبب لباسك الصوف؟ فسكت فقيل له: ألا تجيب؟ فقال: إن قلتُ: زهدًا في الدنيا زكيتُ نفسي.

عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الحق لومة لائم.

عاش في دولة بني أميَّة، وكان موقفه متحفِّظًا على الأحداث السياسية وخاصة ما جرَّ إلى الفتنة وسفك الدِّماء، فلم يخرج في أيِّ ثورة ولو كانت باسم الإسلام، وكان يرى أنَّ الخروج يؤدِّي إلى الفوضى والاضطراب، وفوضى ساعة يرتكب فيها من المظالم ما لا يرتكب في استبداد سنين؛ لأنَّ النَّاس يخرجون من يد ظالم إلى ظالم.

نصح مرَّة سيِّدنا عمر بن عبد العزيز فكتب له يقول له: فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبدٍ ائتمنه سيِّده واستحفظه ماله وعياله، فبدَّد المال، وشرد العيال، فأفقر أهله، وبدد ماله.

يقول الإمام الغزالي رضي الله عنه: كان الحسن البصري أشبه الناس كلامًا بكلام الأنبياء، وأقربهم هديًا من الصحابة، وكان غايةً في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه، وله مع الحجاج مواقف سلم فيها من أذاه.

لما ولي سيدنا عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانا يعينونني عليه. فأجابه سيدنا الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله.

تلك كلمات بوارق سارت مشرقة ومغربة.

منها قوله: من نافسك على الدنيا فنافسه على الآخرة.

وكان شديد الحزن والبكاء، وحين سئل عن ذلك قال: يحقُّ لمن يعلم أنَّ الموت مورده، وأنَّ السَّاعة موعده، وأنَّ القيام بين يدي الله تعالى مشهده؛ أن يطول حزنه.

سئل عن النِّفاق، فقال: هو اختلاف السِّر والعلانية، والمدخل والمخرج، ما خافه [أي: النِّفاق] إلَّا مؤمن ولا أمنه إلَّا منافق.

توفي في البصرة سنة ١١٠ هجرية. رضي الله عنه وأرضاه وأرضانا معه.

عاش ثمانيًا وثمانين سَنة، وكانت جنازته مشهودة عقب صلاة الجمعة.

هذا رأس السلسلة الصُّوفية وخصوصًا الشَّاذلية، ارفعوا رؤوسكم عاليًا، لأئمَّتكم أئمَّة الهدى وسادة الورى، ولا تلتفوا للنَّاعقين على أهل التَّصوف؛ لأنَّ همَّهم الاعتراض على كلِّ من عداهم.

اعترضُوا وتكلَّمُوا على سيِّدنا عمر، واعترضُوا على المذاهب الأربعة، يريدون هدم الدِّين من أساسه، وأنتم على سبيل هداية، فثقوا بأئمَّتكم؛ ليسلم لكم دِينكم، ولا تردُّوا عليهم، فسيِّدنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم شهد لهم بالخيريَّة، وليس بعد كلام النُّبوة كلام.

اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

مصادر الترجمة:

*تهذيب التهذيب

*وفيات الأعيان

*حلية الأولياء ٢/ ١٣١.

*الأعلام للزركلي ٢/ ٢٢٧.

*المذاهب والأديان في العراق-الحينون ص٦٧.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الحادي والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

من سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الثالث

العارف بالله داود الطائي رضي الله عنه

هو من أكابر القوم الأعيان، وأشياخ الطريق أهل العرفان، مولانا الكبير، الفَقِيهُ، القُدْوَةُ، الزَّاهِدُ، العارف الشهير، خليفة الإمام الحسن البصري: الإمام أبو سليمان داود بن نصير الطَّائِيُّ، الكُوفِيُّ، أَحَدُ الأَوْلِيَاءِ رضي الله عنه.

مولده بَعْدَ المئَةِ بِسَنَوَاتٍ، عاش في أيام المهدي العباسي، ويعدُّ من الطَّبقة السَّابعة من أتباع التَّابعين.

رحل إلى بغداد، فأخذ عن الإمام أبي حنيفة حتى برع، وعاد إلى الكوفة، واعتزل النَّاس، وأَقْبَلَ عَلَى شَأْنِهِ، وَلَزِمَ الصَّمْتَ[1].

كَانَ مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ الفقْهِ وَالرَّأْيِ، وممن شغل نفسه بالعلم، ودَرَسَ الفقه وغيرَه من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العُزلة، وآثر الانفراد والخلوة، ولزم العبادة، واجتهد فيها إلى آخر عمره.

وكان يقول: سبقني العابدون، وقُطِعَ بي، وا لهفاه!!

كان سفيان الثَّوري يعظِّمه ويقول: أبصَرَ داود أمره.

وقال ابن المبارك: وهل الأمر إلَّا ما عليه داود؟!

قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ[1]: رَأَيتُ دَاوُدَ الطَّائِيَّ، وَكَانَ مِنْ أَفصَحِ النَّاسِ وَأَعْلَمِهِم بِالعَرَبِيَّةِ، يَلْبَسُ قَلَنْسُوَةً طَوِيلَةً سَوْدَاءَ.

---

(١) بعد أن أحكم الشَّريعة قال له الإمام أبو حنيفة: يا أبا سليمان! أمَّا الأداة؛ فقد أحكمناها، فقال داود: فأي شيء بقي؟!، قال: بقي العمل به، فنازعته نفسه على الخلوة، فقال لها: حتى تجلسي معهم، فلا تجيبي في مسألة، فبقي سَنة لا يجيب قبل أن يعتزل، انتبهوا لم يعتزل مجالس العِلم حتى أحكم الشَّريعة وأصبح إمامًا، وكان الإمام أبو حنيفة يزوره.

وكان ثقة، من رواة الحديث، في «الحلية» روى له أبو نُعيم نيفًا وعشرين حديثًا عن التَّابعين، من ضمنها حديثٌ أسنده إلى أبي هريرة عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إنَّ لكلِّ نبيٍّ دعوةً مستجابةً، وإنِّي اختبأت دعوتي شفاعةً لأمَّتي**».

كان إمامًا فقيهًا، ذا فنون عديدة، ثمَّ تعبَّد، وآثر الخلوة والوحدة، وأقبل على شأنه، حتى ساد أهل زمانه، فكان ممَّن فقه، ثمَّ عَلِم، ثمَّ عمل.

قال أبو سليمان الداراني: ورث داود الطائي من أمه دارًا، فكان ينتقل في بيوت الدار كلما تخرّب بيت من الدار انتقل منه إلى آخر ولم يعمره، حتى أتى على عامة بيوت الدار. قال: وورث من أبيه دنانير فكان يتقوت بها حتى كُفّن بآخرها.

وَعَنْ حَفْصٍ الجُعْفِيِّ قَالَ: وَرِثَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ مِنْ أُمِّهِ أَرْبَعَ مئَةِ دِرْهَمٍ، فَمَكَثَ يَتَقَوَّتُ بِهَا ثَلَاثِينَ عَامًا، فَلَمَّا نَفِدَتْ جَعَلَ يَنْقُضُ سُقُوفَ الدُّوَيْرَةِ، فَيَبِيعُهَا.

وقَالَ عَطَاءُ بنُ مُسْلِمٍ: عَاشَ دَاوُدُ عِشْرِيْنَ سَنَةً بِثَلَاثِ مئَةِ دِرْهَمٍ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ السَّلُولِيُّ: حَدَّثَتْنِي أُمُّ سَعِيدٍ قَالَتْ: كَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ دَاوُدَ الطَّائِيِّ جِدَارٌ قَصِيرٌ، فَكُنْتُ أَسْمَعُ حَنِينَه عَامَّةَ اللَّيْلِ لَا يَهْدَأُ، وَرُبَّمَا تَرَنَّمَ فِي السَّحَرِ بِالقُرْآنِ، فَأَرَى

---

(١) وكان تلميذه وممَّن حدثوا عنه.

أَنَّ جَمِيعَ النَّعِيمِ قَدْ جُمِعَ فِي تَرَنُّمِهِ، وَكَانَ لَا يُسْرِجُ عَلَيْهِ؛ لذا نُقل عنه أنَّه كان متعبدًا والهًا مستغفرًا بالسَّحر.

زهده وورعه

كان من أئمة الزُّهد في عصره، وكان زهده مصدرًا دائمًا لنصح الآخرين وإرشادهم، فإنَّ الزَّاهد في الدُّنيا لا يحبُّ البقاء فيها.

قال عبد الله بن صالح بن مسلم العجلي: دخلت على داود الطائي في مرضه الذي مات فيه وليس في بيته إلا دَنٌّ مُقَيَّر يكون فيه خبز يابس ومطهرة ولَبِنَةٌ كبيرة على التراب يجعلها وسادة وهي مِخَدَّته!!

وقد ورد في «حلية الأولياء» أن محمد بن بشر قال: دخلت على داود الطائي المسجد فصليت معه المغرب، ثم أخذ بيدي فدخلت معه البيت، فقام إلى دن له كبير فأخذ رغيفًا منه يابسًا فغمسه في الماء ثم قال: ادنُ فكل، قلت: بارك الله لك، فأفْطِرْ، فقلت: يا أبا سليمان؛ لو أخذت شيئًا من ملح، قال: فسكت ساعة ثم قال: إن نفسي

تنازعني ملحًا، ولا ذاق داود ملحًا ما دام في الدنيا، قال: فما ذاقه حتى مات رحمه الله، وكان يقول: حالت وحشة القبر بيني وبين وحشة الدُّنيا[1].

وقد ورد في «صفة الصفوة» عن حماد بن أبي حنيفة قال: قالت مولاةٌ لداود الطائي: يا داود لو طبختُ لك دسمًا، قال: فافعلي، فطبخت له شحمًا ثم جاءته به، فقال لها: ما فعل أيتام بني فلان؟ قالت: على حالهم، قال: اذهبي به إليهم، فقالت له: فديتك إنما تأكل هذا الخبز بالماء، قال: إني إذا أكلته كان في الحَشِّ، وإذا أكله هؤلاء الأيتام كان عند الله مذخورًا، وهذا كثير في سيرته يقدِّم طعامه للفقراء ويبيت طاويًا.

حدَّث رَجل من أهل داود الطائي قال: قلت له يومًا: يا أبا سليمان؛ قد عرفتَ الرحم التي بيننا فأوصني، قال: فدمعت عيناه ثم قال: يا أخي إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زادًا لما بين يديها فافعل، فإن انقطاع السفر عن

---

(١) من كراماته قوله: ماتت امرأة بجواري، ولم يكن لها كبير طاعة، فقيل: يا داود اطَّلعْ في قبرها، فاطَّلعتُ، فرأيت فيه نورًا عظيمًا، وفُرشًا وطيئة، وسررًا عالية، فقلت: بمَ استوجبتْ هذا؟!، فنوديتُ: استأنست بنا في سجدتها، فآنسناها في وحدتها.

قريب، والأمر أعجل من ذلك، فتزود لسفرك، واقض ما أنت قاض من أمرك، إني لأقول لك هذا وما أعلم أحدًا أشد تضييعًا مني لذلك. ثم قام وتركني.

صام داود الطائي أربعين سنة ما علم به أهله، وكان خرازًا، وكان يحمل غداءه معه، ويتصدق به في الطريق، ويرجع إلى أهله يفطر عشاء لا يعلمون أنه صائم، حتى قالوا: لو كان داود في الأمم الماضية؛ لقصَّ الله شيئًا من خبره.

كان محافظًا على صلاة الجماعة، وكان إذا سلَّم من الفريضة؛ أسرع إلى منزله، وكان لا يخرج من منزله حتَّى يقول المؤذِّن: قد قامت الصَّلاة، فيخرج، فيصلِّي؛ خوفًا ومنعًا من الرِّياء.

من أقواله:

توحَّش من الدُّنيا كما تتوحَّش من السِّباع.

وقال مرة: إن كنت لا أشرب إلا باردًا ولا آكل إلا طيبًا ولا ألبس إلا لينًا؛ فما أبقيت لآخرتي؟!

قَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَوْصِنِي. قَالَ: اتَّقِ الله، وَبِرَّ وَالِدَيكَ، وَيْحَكَ![1] صُمِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ المَوْتَ، وَاجْتَنِبِ النَّاسَ غَيْرَ تَارِكٍ لِجَمَاعَتِهِم قال: زدني، قال: لا يراك الله عند ما نهاك عنه، ولا يفقدك عند ما أمرك به، قال: زدني، قال: ارضَ باليسير مع سلامة دِينك؛ كما رضي قوم بالكثير مع هلاك دِينهم.

وقال له آخر: أوصني، قال: عسكر الموت ينتظرونك.

وَعَنْهُ قَالَ: كَفَى بِاليَقِيْنِ[2] زُهدًا، وَكَفَى بِالعِلْمِ عِبَادَةً[3]، وَكَفَى بِالعِبَادَةِ شُغُلًا.

وورد في «صفة الصفوة» عن داود الطائي قال: ما أخرج الله عبدًا مِن ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلاّ أغناه بلا مال، وأعزّه بلا عشيرة، وآنسه بلا بَشَر.

وكان يقول: لا ينبغي للمسلم أن يحزن للمصيبة؛ لأنَّه يعلم أنَّ لكلِّ مصيبة ثوابًا، والله تعالى أعلم بالصَّواب.

---

(١) تُستعمل للتَّوجع، والتَّرحم، وإظهار الشَّفقة، كلمة رحمة مقابل كلمة (ويلك) كلمة عذاب.

(٢) اليقين: اعتقاد راسخ، وثقة تامَّةٌ بأمر واقع، وسرعة تصديق؛ يعني: لا تشك أنَّ الزُّهد خير لك.

(٣) خير العبادة العِلْم، وما عُبِدَ الله بشيء أحبَّ إليه من العِلْم.

وورد في «حلية الأولياء» أن داود الطائي خرج في جنازة بالكوفة، فقعد ناحيةً وهي تدفن، فجاء الناس فقعدوا قريبًا منه، فقال: من خاف الوعيد قصُر عليه البعيد[1]، ومن طال أمله ضعف عمله[2]، وكل ما هو آتٍ قريب.

وفاته

مَنَاقِبُ دَاوُدَ كَثِيرَةٌ، كَانَ رَأْسًا فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَلَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِ جِنَازَتِه[3]، لما حملوه على سرير الموت تكسر لشدة الزحام[1] حَتَّى قِيلَ: بَاتَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مَخَافَةَ أَنْ يَفُوتَهُم شُهُودُهُ، مَاتَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَمئَةٍ[2]، وفي قول: (١٦٢هـ).

---

(١) المؤمن يبقى خائفًا من سوء الخاتمة حتَّى يصبح قريبًا من الموت، فيغلب الرَّجاء في رحمة الله تعالى.

(٢) هناك من يقول لك: أصلِّي فيما بعد، أتصدق فيما بعد، والفتاة تقول لك: لا أضع منديلًا باكرًا، هؤلاء يأملون، فيضعف عندهم العمل الصَّالح.

(٣) سبب وفاته: أنَّه سمع آية فيها ذكر النَّار، فكررها مرارًا في ليلته، فأصبح مريضًا، فوجدوه قد مات ورأسه على لَبِنة، وقبل وفاته رآه أحد أصحابه من الصَّالحين في منامه وهو يعدو، فقيل له: ما لك؟!، فقال: السَّاعة تخلصتُ من السِّجن، فاستيقظ الرَّجل، وإذا بالصِّياح: مات داود الطائي.

رضي الله عنه وأرضاه.

مصادر الترجمة: (بتصرف)

*سير أعلام النبلاء ٧/ ٤٢٤.

*الرسالة القشيرية.

*مجموعة رسائل مولاي العربي الدرقاوي.

*تهذيب الكمال.

*الأعلام خير الدِّين الزِّركلي ١٩٨٠

---

(١) نُقل أنَّهم بدَّلوا ثلاثة أسرَّة، وهي تتكسر من شدَّة الازدحام على جنازته، من «سير أعلام النُّبلاء».

(٢) قام تلميذه ابن السّماك عند دفنه فقال: يا داود؛ كنت تسهر ليلك إذ النَّاس ينامون، فقال القوم جميعًا: صدقت، وكنت تربح إذا النَّاس يخسرون (يعني: في أمور الآخرة)، فقال القوم جميعًا: صدقت، وكنت تسلم إذا النَّاس يخوضون، فقال النَّاس جميعًا: صدقت، حتَّى عدد فضائله كلَّها، «اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَاكُمْ»، وهذه الشَّهادة ضرورية للميت، «أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ»، ثمَّ قام أبو بكر النَّهشلي فقال: يا رب؛ إنَّ النَّاس قد قالوا ما عنده مبلغ، وما علموا، فاغفر له برحمتك، ولا تكله إلى عمله.

*طبقات الشَّاذلية الكبرى

*تاريخ بغداد.

*جامع كرامات الأولياء للنَّبهاني

*حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.

*الطَّبقات الكبرى للشِّعراني

*بحار الولاية المحمَّديَّة في مناقب أعلام الصُّوفيَّة.

*الكواكب الدُّريَّة في تراجم السادة الصوفية للمُناوي.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثاني والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

من سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الرابع

سيدنا معروف بن فيروز الكرخي (ت٢٠٠هـ)

أنقل لكم اليوم الأنباء من بغداد فرج الله عنها حيث نلتقي

مع أكابر القوم العارفين، السالك طريق سيد المرسلين، الزاهد الذي انتهت إليه رئاسة الطريق[١]، خليفة القطب أبي سليمان داود الطائي المعروف[٢]، عربيٌّ أصيل، يكنى أبا محفوظ، كان أبواه نصرانيَّين، فأسلماه إلى مؤدِّبهم وهو صبي.

---

(١) أحد علماء أهل السُّنة والجماعة، ومن أعلام التَّصوف الإسلامي في القرن الثَّاني الهجري في بغداد، وصفه الذَّهبي بعَلَم الزُّهاد، بركة العصر (سير أعلام النُّبلاء).

(٢) تأثر بسيِّدنا داود، وأثَّر بِسيِّدنا السَّري السَّقطي، فداود الطائي أخذ عن الحبيب العجمي، الحسن البصري، عن الإمام علي، وقيل: له طريق آخر، عن الإمام علي الرضا، عن الإمام

قال أخوه عيسى: كنتُ أنا وأخي معروف في الكُتَّاب وكنا نصارى، وكان المعلم يعلم الصبيان أب وابن[1]، فيصيح أخي معروف: أحدٌ أحد، فيضربه المعلم على ذلك ضربًا شديدًا، حتى ضربه يومًا ضربًا عظيمًا، فهرب على وجهه، فكانت أمي تقول: لئن ردَّ الله علي ابني معروفًا لأتبعنَّه على أي دين كان.

فقدم عليها معروف بعد سنين كثيرة فقالت له: يا بُني على أي دين أنت؟ قال: على دين الإسلام. قالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فأسلمت أمي، وأسلمنا كلنا.

عن يحيى بن جعفر قال: رأيت معروفًا يؤذن، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله؛ رأيت شعر لحيته وصدغه قائمًا كأنه زرع.

موسى الكاظم، عن الإمام جعفر الصَّادق، عن الإمام محمَّد الباقر، عن الإمام علي زين العابدين، عن الإمام حسين، عن الإمام علي.

(١) كان المؤدِّب يقول له: قل: ثالث ثلاثة، فيقول: بل هو الأحد الصمد، قيل: أسلم ببركة سيِّدنا علي الرِّضا، فلمَّا تحول إلى باب الإمام أحمد؛ صار قريبًا من السُّنَّة.

لم يشتهر عنه العِلم، لكنَّه رأس في العمل، وصفه أحدهم بأنَّه قصير العِلْم فقال ابن حنبل: أمسك، وهل يراد من العِلْم إلَّا ما وصل إليه معروف؟

وعن عمرو بن موسى قال: سمعنا معروفًا وعنده رجلٌ يذكر رجلًا فجعل يغتابه فجعل معروفٌ يقول له: "اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك، اذكر القطن إذا وضعوه على عينيك"[1].

وكان يقول: ينادي منادٍ يوم القيامة: يا مادح الله! قم، فلا يقوم إلَّا من كان يكثر قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٣].

وقال سري: سألت معروفًا عن الطائعين بأي شيء قدروا على الطاعة لله عزَّ وجلَّ؟ قال: بخروج الدنيا من قلوبهم.

ومن كلامه: قيام اللَّيل نور للمؤمن يوم القيامة، يسعى بين يديه ومن خلفه، وصيام النَّهار يبعد العبد من حرِّ السَّعير.

وكان يحض أصحابه وتلامذته على ترك ما لا يعنيهم

---

(١) أتاه رَجل بعشرة دنانير، فمر سائل، فناوله إياها، وكان يبكي، ثم يقول: يا نفْس كم تبكين؟! أخلصي تخلصي.

فعن إبراهيم البكار قال: سمعت معروفًا الكرخي يقول: إذا أراد الله بعبد خيرًا فتح عليه باب العمل، وأغلق عليه باب الجدل، وإذا أراد به شرًّا أغلق عليه باب العمل وفتح عليه باب الجدل.

ومن كلامه: الدُّنيا أربعة أشياء: المال، والكلام، والمنام، والطَّعام، فالمال يُطغي، والكلام يُلهي، والمنام يُنسي، والطَّعام يسقي.

وقال مرة: ما أبالي رأيت امرأة أو رأيت حائطًا، وكان يقول: غضُّوا أبصاركم ولو عن شاة أنثى، ويقول: إذا كنت لا تُحسن تتقي؛ أكلتَ الرِّبا ولقيت المرأة فلم تغضَّ عنها...

ما أكثر الصَّالحين، وأقلَّ الصَّادقين في الصَّالحين! ومن كلامه: السَّخاء إيثار ما يحتاج إليه عند الإعسار.

أتعرفون كم مرة كان ورد الإمام؟

كان يتلو ورده كل يوم عشرة آلاف مرة وهو يقول: **(وا غوثاه يا ألله)** ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ**﴾ **[الأنفال: ٩]**[1].

كان متسامحًا كريمًا، نزل يتوضَّأ من دجلة، ووضع مصحفه وملحفة، فجاءت امرأة، فأخذتهما، فتبعها وقال: أنا معروف، لا بأس عليك، ألك ولد يقرأ القرآن؟، قالت: لا، قال: فزوج؟، قالت: لا، قال: فهات المصحف، وخذي الملحفة، القيمة العالية التي تركها هي التسامح، فقلبه كان مفتوحًا للجميع.

كان رضي الله عنه من السادات الأجلاء، وشيخًا عظيمًا مبجلًا، وكان كلامه كله حِكمًا وعِبرًا، وكلامه في الزهد والتصوف يأخذ بالقلوب، وأثرت مواعظه في أفئدة الرجال، ترى في كلامه عبارات إنسان عاقل فطن أخذته الشفقة على الخلق، فمن ذلك ما رُوي عن إبراهيم الأطروش قال: كان معروف قاعدًا على دجلة ببغداد إذ مرَّ بنا أحداث في زورق يضربون الملاهي ويشربون، فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء يعصون الله، ادعُ الله عليهم، فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي وسيدي

---

(١) كان كثير الذِّكر، أراد أحدهم قصَّ شارب معروف، فلم يفتر عن الذِّكر، فقال: كيف أقصُّ؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل.

أسألك أن تفرحهم في الآخرة كما فرحتهم في الدنيا، فقال له أصحابه: إنما قلنا لك: ادع الله عليهم، لم نقل: ادع الله لهم، فقال: إذا أفرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضركم بشيء.

هذا هو منهج الإصلاح الذي اتبعه سيدنا معروف في حياته، إنه منهج أخلاقي عظيم، وكان يدعو أصحابه إلى هذا المنهج ويقول: قلوب الطاهرين تشرح بالتقوى وتزهر بالبر، وقلوب الفجار تظلم بالفجور وتعمى بسوء النية.

سئل: ما علامة الأولياء؟ فقال: ثلاثة: همومهم لله، وشغلهم فيه، وفرارهم إليه.

وما يدل على عِظَمِ شأن هذا الشيخ الكبير ما قاله تلميذه السري: هذا الذي أنا فيه من بركات معروف؛ انصرفت من صلاة العيد فرأيت مع معروف صبيًّا شعثًا، فقلت: من هذا؟ قال: رأيت الصبيان يلعبون وهذا واقف منكسر، فسألته: لمَ لا تلعب؟ قال: أنا يتيم، قال سري: فقلت له: فما ترى أنك تعمل به؟ قال: لعلي أخلو فأجمع له نوى يشتري بها جوزًا يفرح به، فقلت له: أعطنيه أغيِّر من حاله، فقال لي: أوَتفعل؟ فقلت: نعم، فقال لي: خذه أغنى الله قلبك، فسويت الدنيا عندي بأقل من كذا.

وكراماته رضي الله عنه كثيرة[1]، فمنها: ما رواه خليل الصياد قال: غاب ابني إلى الأنبار فوَجدَتْ أمُّه وجدًا شديدًا، فأتيتُ معروفًا فقلت له: يا أبا محفوظ؛ ابني قد غاب فوَجدَتْ أمه وجدًا شديدًا، قال: فما تشاء؟ قلت: تدعو الله أن يرده عليها، فقال: اللهم إن السماء سماؤك، والأرض أرضك، وما بينهما لك، فائتِ به. قال خليل: فأتيتُ باب الشام فإذا ابني منبهر، فقلت: يا محمد أين كنتَ؟ فقال: يا أبتِ الساعة كنت بالأنبار[2].

---

(١) سئل: كيف تصوم؟ فغالط السَّائل، وقال: صوم نبينا كان كذا وكذا، وصوم داود كذا وكذا، فألح عليه، فقال: أصبح دهري صائمًا، فمن دعاني أكلت ولم أقل: إني صائم، ومرة مرَّ وهو صائم بسقَّاء يقول: رحم الله من شرب، فشرب رجاء الرَّحمة.

(٢) قيل له: بلغني أنَّك تمشي على الماء، قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور جُمِعَ لي طرفا النَّهر فأتخطاه، ورآه أحدهم وفي وجهه أثر سقطة، فسأله، فقال له:سل عمَّا يعنيك، عافاك الله، فأقسم عليه، فتغير وجهه، ثم قال: صليت البارحة ومضيت، فطفت بالبيت، وجئت لأشرب زمزم، فزلقت، فأصاب وجهي هذا.

اشتهر حتى صار علَمًا من أعلام السُّنَّة، وكان سيِّدنا سفيان بن عيينة يسأل رجالات بغداد: ما فعل ذلك الحبر الذي فيكم ببغداد؟ قالوا: من هو؟ قال: أسد محفوظ معروف، يقولون: بخير، فيقول: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم.

وعن أبي بكر الزجَّاج قال: قيل لمعروف الكرخي في عِلَّتِه: أوصِ، فقال: إذا متُّ فتصدقوا بقميصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عريانًا كما دخلت إليها عريانًا[1].

توفي[2] رضي الله عنه ببغداد[3] وقبره ظاهر[1]، يُستسقى به ويُتبرك، وهو محل إجابة الدعاء كما هو مشهور. وكان إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرَّب؛ أي: لإجابة الدعوة[2].

---

(١) من جميل شِعره في السَّحر وهو ينوح ويبكي:

أيُّ شيء تريد مني الذُّنوب ... شغفت بي فليس عنِّي تغيب

ما يضرُّ الذُّنوب لو أعتقتني ... رحمة بي فقد علاني المشيب

(٢) سَنة ٢٠٠هـ = ٨١٥م.

(٣) حضر جنازته ٣٠٠ ألف، فلمَّا دفنوه تحولوا إلى جنازة أبي نواس وصلَّوا عليه، حتَّى قيل: ببركة معروف غُفر لأبي نواس، فقد رئي أبو نواس في المنام، فقيل: ما فعل الله بك؟!، فقال: غُفر لي بصلاة الذين صلَّوا على معروف وعليَّ.

مصادر الترجمة

*الشخصيات الإسلامية لكاتب هذه الكلمات.

*سير أعلام النبلاء.

*طبقات الأولياء لابن الملقن ص٢١٦.

---

(١) في مقبرة باب الدير العتيقة على جانب الكرخ من مدينة بغداد، وسميت بعدها مقبرة الشيخ معروف، ورغم خراب المغول لبغداد وغيرهم بقي قبره مصانًا إلى الآن.

(٢) له دعاء لا يفتر لسانه عنه، أجمع الصالحون على أنَّه من الكلمات التي لا ترد، ومن الابتهالات التي تفتح لها السبع الطباق، قال لأحد تلامذته: ألا أعلمك عشر كلمات -خمس للدُّنيا وخمس للآخرة- من دعا الله عزَّ وجلَّ بهن وجد الله تعالى عندهنَّ، قلت: اكتبها لي؛ قال: لا، ولكن أرددها عليك كما ردَّدها عليَّ بكر بن خنيس رحمه الله: حسبي الله لدِيني، حسبي الله لدنياي، حسبي الله الكريم لما أهمَّني، حسبي الله الحليم لمن بغى عليَّ، حسبي الله الشَّديد لمن كادني بسوء، (هذه الخمسة لدنياه)، حسبي الله الرَّحيم عند الموت، حسبي الله الرَّؤوف عند المسألة في القبر، حسبي الله الكريم عند الحساب، حسبي الله اللَّطيف عند الميزان، حسبي الله القدير عند الصِّراط، حسبي الله لا إله إلَّا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم، (وهذه الخمسة للآخرة). كتاب «الدَّعوات المستجابة ومفاتيح الفرج» لسيِّدي الغزالي.

*طبقات الصوفية ١/ ٨٣للسلمي ط٣ / ٢٠٠٣

*صفة الصفوة٢/ ٥٩٢.

*حلية الأولياء للأصفهاني ٨/ ٤١٢

*المذاهب والأديان في العراق-الحينون، رشيد ص٦٧

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الثالث والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

من سلسلة رجال الطريقة

الخليفة الخامس

سيدي الإمام السري السقطي

(١٦٠-٢٥١هـ)

شيخ صوفية العراق

وهو مثال تطبيقي لأركان التصوف وآدابه

على بساط الأنس والمشاهدة شرب العارفون من رحيق النور الأزلي، وارتوَوا من معين الوصل الإلهي، فهامت أرواحهم في سرادقات الجلال والجمال، مستغرقة في عظمة المولى، فانية في وجوده، متنعمة بشهوده، إنها أرواح مختصة بالعطاء، وقلوب سجلت لهم العناية مراسيم الولاء، تلك منحٌ وعطايا وهبها الله تعالى لأحبائه الأولياء الذين رضي عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم.

ومن خواص أهل الولاية والاصطفاء والعناية والاجتهاد الإمام العارف والصوفي الشامخ سيدي أبو الحسن السري بن المغلس السقطي، أحد أئمة الصوفية العظام الذين تفجرت عيون مواردهم في المعارف الإلهية، وفاضت مناهل عرفانهم بالنفحات القدسية. وناهيك بمن هو شيخ الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية، فهو خاله وأستاذه، وهو إمام التصوف بالعراق في عصره، وهو كما قال الإمام القشيري في «رسالته»:

(أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد).

ويقول عنه الإمام أبو عبد الرحمن السلمي في «طبقاته»:

(وهو أول من تكلم ببغداد في لسان التوحيد وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته).

فالإمام السري إذن يعد رائد عصره في كشف حقائق التصوف وعلومه، ثم هو إمام زمانه في أحوال القوم وأخلاقهم ومناهجهم السلوكية التي ترتقي بالعبد إلى قمة الوصول.

والعارف أبو الحسن السري بغدادي المولد كما أنه بغدادي الوفاة؛ إذ توفي في سنة إحدى وخمسين ومئتين هجرية، ومقامه بالشونزية ظاهر يزار وتلتمس منه البركات..

تلقى القطب السري طريقته عن قطب عصره الإمام العارف **سيدي معروف الكرخي**[1] الذي يعد شيخ التصوف بالعراق في زمنه، وتلقى بدوره الطريق عن سليل البيت النبوي سيدي علي بن موسى الرضا.

وقد استمد الإمام السري المدد الصوفي من سيدي معروف ليسري إليه نور هذه السلسلة المنتهية إلى بيت النبوة، ثم منه إلى الإمام أبي القاسم الجنيد الملقب بسيد الطائفة الصوفية.

وعن قصة البداية في الطريق الصوفي للإمام السري مع شيخه سيدي معروف: يروي الإمام القشيري بسنده عن أبي العباس بن مسروق يقول: (بلغني أن السري السقطي كان يتجر في السوق – وهو من أصحاب معروف الكرخي – فجاءه معروف يومًا ومعه صبي يتيم فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال سري: فكسوته. ففرح به معروف وقال: (بغَّض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه)، قال: فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إلي من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

---

(١) حدث عن الفضيل بن عياض.

وعلى إثر هذا الحادث واستجابةً لدعوة سيدي معروف توجه الإمام السري إلى الله، وترك تجارة الدنيا ليشرع في تجارة الآخرة، بل ليستقبل عهده مع الله في محراب العبادة والعبودية، يعبده تقربًا إليه لا طمعًا في ثوابه ولا خوفًا من عذابه كما هو الشأن في عبادة الأحرار.

ولقد سلك الإمام السري طريق القوم على تعطش للعبادة والمعرفة، فأقبل على الطاعات بروح توَّاقة شَغوفة بالتحرر من الآنية والغيرية، دؤوبة على الخدمة والعكوف بباب المولى حتى يؤذن لها بالدخول.

وكان يقول: أربع خصال ترفع العبد: العلم، والأدب، والفقه، والأمانة.

وإنَّ أخبار عبادات الإمام السري تثير العجب وتفوق الخيال: يقول الإمام الجنيد: (ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمانٍ وتسعون سنة ما رئي مضطجعًا إلا في علة الموت).

أي طراز هذا من الرجال؟؟

إنه الطراز الملائكي الذي يقتات من العبادات ويتنفس بالطاعات؛ كما قال تعالى في حق الملائكة: ﴿**يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٠].

وهذا هو دأب العارف السري، وقد كان يوصي به أصحابه ومريديه، ولقد سمعه الإمام الجنيد يقول: (إني أعرف طريقًا يؤدي إلى الجنة قصدًا، فقيل له: ما هو يا أبا الحسن؟ فقال: (أن تشتغل بالعبادة وتقبل عليها حتى لا يكون لك فيها فضل).

لقد فسر هو بنفسه معنى قوله: (حتى لا يكون لك فيها فضل) عمليًّا، وذلك بعبادته المتصلة ثمانية وتسعين عامًا أمضاها بين صيام وقيام وذكر وفكر، حتى لقد كان يقول: (إذا فاتني جزء من وردي لا يمكن أن أقضيه أبدًا).

وعلل ذلك الإمام الجنيد قائلًا: (لأن السري كان متصل التنفل).

وكان يقول: (من قام بين يدي الله في الظلام؛ نُشِرت له يوم القيامة الأعلام)[1].

ولقد كان المنهج السلوكي عند العارف السري ذا جوانب متعددة عميقة الغور والأبعاد، وكانت تلك الجوانب في مجموعها تمثل حلقات متصلة تفضي في النهاية إلى بلوغ قمة النضج الروحي حيث تحلق الروح في سماء المعرفة والولاية.

---

(١) مدح الله عباده: ﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا**﴾ [الفرقان: ٦٤]، ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران: ١٧]، ﴿**إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا**﴾ [المزمل: ٦]، ﴿**وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

ففي مجال النفس مثلًا: تطالعنا عند الإمام السري صفحات مضيئة يكاد سنا برقها يذهب بالأبصار، يقول: (إن نفسي تطالبني منذ ثلاثين سنة أو أربعين سنة أن أغمس جزرة في دبس – أي: عسل التمر وعسل النحل – فما أطعتها).

إنها مجاهدة النفس في شهوة حلال من أجل قطع مآربها؛ لكي يصفو الجو للروح فتنطلق إلى معاريج الوصول.

إنَّ ترك المباح يؤدي أن يكون تاركه صاحب خلق عظيم، فافعله؛ لذا كان الصوم عبادة.

ولقد دخل عليه الإمام الجنيد يومًا فقال له: يا جنيد؛ عصفور يجيء كل يوم أفتُّ له الخبز في يدي فيأكله، فنزل الساعة ولم يسقط على يدي، فتذكرت أني أكلت ملحًا بأبزارٍ فآليت ألا آكله بعدها.. فعاد كما كان) .

ولطالما تحرى الإمام السري الحلال مع شدة الورع حتى تحمل في ورعه الكثير والكثير، وكان يقول دائمًا: (**آه على لقمة ليس لله فيها تبعة**[1] **ولا لمخلوق فيها مِنَّة**)!!

---

(١) مؤاخذة.

هناك ربط بين فروض الشَّريعة ونوافلها، الفروض وحدها لا تكفي للوصول إلى الله تعالى، ولذلك صلَّى الله عليه وسلَّم كان تنفله أكثر من فروضه، بل كان يقوم بعبادة ربِّه حتَّى تتورم قدماه الشَّريفتان، رغم أنَّ الله قال له: ﴿**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا**﴾ [النساء: ١١٣] كان يقول: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟!**».

ومن تلك الوقائع التي تجلى فيها ورع سيدي السري ما رواه الإمام الشعراني في «طبقاته» إذ قال: وقال علي بن الحسين: بعثني أبي للسري بشيء من حَبِّ السُّعال لسعالٍ كان به، فقال لي: كم ثمنه؟ فقلت له: لم يخبرني بشيء. فقال اقرأ عليه السلام وقل له: نحن نعلِّم الناس منذ خمسين سنة ألَّا يأكلوا بأديانهم، أفتراني اليوم آكل بديني؟؟؟ ولم يأخذ منه شيئًا!!!.

فكان لا يأكل بدينه، وهذه تعلمتُها من والدي رحمه الله، كان إذا وصَّى أحدًا أن يشتري له شيئًا دفع ثمنه ولو سامحه، ويعلِّمه أنَّ الإسلام أمر بهذا، وبهذا تدوم المحبَّة...

ويؤكد صاحب «الحلية» هذا المرتقى السامي عند الشيخ السري قائلًا: (وسمعت أبا علي الحسن البزاز[1] يقول: سألت أبا عبد الله أحمد ابن حنبل عن السري بعد قدومه من الثغر[2] فقال: أليس الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء؟ قلت: بلى. قال: هو على سيره عندنا قبل أن يخرج).

ثم يقول الإمام أبو نعيم: وقد كان السري يعرف بطيب الغذاء وتصفية القوة وشدة الورع حتى انتشر ذلك عنه، وبلغ أبا عبد الله أحمد ابن حنبل فقال: (الشيخ الذي يعرف بطيب الغذاء) وقد كان منهج السري في الورع منطويًا على جواهر الحكم السلوكية الصوفية، فها هو ذا يقول: (**لا يقوى على الشهوات إلا من ترك الشبهات**).

ويؤيده ما ورد في الحديث الشريف في «الصحيحين»: (**فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه**) الشُّبهات: الأمور المتردِّدة بين الحِل والحرمة، وتركها مندوب،

---

(١) بائع أقمشة أو ملابس، ضرب من الثِّياب؛ لذا يقال: أمتعة البزَّاز.

(٢) كلُّ فرجة في جبل، أو بطن واد، أو طريق مسلوك، والثغرة: مواطن الضعف من الحدود، ومنه: (أنت على ثغر من ثغور الإسلام، فلا يؤتينَّ من قبلك).

والسَّبب اختلاط الحلال والحرام في الأطعمة والأشربة، فمن اتقاها؛ فقد فعل الأَولى، وحصَّل البراءة لدِينه من الذَّم الشَّرعي، وصان عِرضه عن كلام النَّاس فيه.

وأيضًا كان العارف السري يقول: (تصفية العمل من الآفات أشد من العمل) .

وأخرج الإمام أحمد قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**إنَّ أَخْوَفَ ما أخافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ**» وقال تعالى في صفة المنافقين: ﴿**يُرَاءُونَ النَّاسَ**﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ**﴾ [الماعون: ٦]، فكلُّ رياء شرك، وفخ من عند الشَّيطان للمؤمنين، والتَّعلُّق بالدُّنيا يجرُّ العبد للوقوع بهذا الفخِّ، والمرائي مشرك؛ لأنَّه يعبد أكثر من معبود واحد.

ثم إلى جانب الزهد والورع كانت المراقبة في أعلى درجاتها متمثلة في سلوك الإمام السري، والمراقبة هي إحدى مرتبتي الإحسان الوارد معناه في الحديث الشريف؛ إذ قال سيد الوجود: (**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**)، فالشق الأول للمشاهدة والثاني المراقبة.

والمراقبة عند العارفين لها درجات ومنازل، ولقد تربع سيدي السري في قمة المراقبة والحضور، يقول: (تلوتُ وردي ليلة فمددت رجلي في المحراب، فنوديت: يا سري؛ كذا تجالس الملوك؟! قال: فضممت رجلي ثم قلت: وعزتك لا مددت رجلي أبدًا!!)

إنه نداء المراقبة من قبل الحضرة العلية للعارف السري، ولقد عُرِف نفس النداء مع سيدي أبي يزيد البسطامي وسيدي إبراهيم بن أدهم، رضوان الله تعالى عنهم.

ومع المراقبة هناك التوكل والرضا، ولكلٍّ مفهومه عند العارف السري، فهو يعرِّف التوكل أنه: (الانخلاع من الحول والقوة) .

ثم يقول عن الرضا والورع والعبادة والشكر: (رأس الأعمال الرضا عن الله، وعمود الدين الورع[1]، ومخ العبادة الجوع، وضبط اللسان حصن حصين، ومَن شكر الله جرى في ميدان الزيادة).

ويرى الإمام السري السقطي أن التجرد لله تعالى هو أقرب ما يوصل إلى الحضرة الإلهية، فلقد سئل يومًا: كيف الطريق إلى الله؟ فقال: (إن أردت العبادة فعليك بالصيام والقيام، وإن أردته فاترك كل ما سواه تصل إليه).

أي: أن هناك طريقين موصلين إلا أن أقربهما للوصل هو ترك السوى، ولقد ترك الإمام السري كل ما سوى الله فوصل إلى الله، وصل إليه على جناحي المحبة والشوق.

---

(١) ترك ما لا بأس به خشية مما به بأس.

وللمحبة عند العارف السري مقام لا يرام بالكلام، ولا يسطر بالأقلام، يقول الإمام الجنيد: (سألني السري يومًا عن المحبة فقلت: قال قوم: هي الموافقة، وقال قوم: الإيثار، وقال قوم: كذا.. فأخذ السري جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد، ثم قال: وعزته لو قلتُ: إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقتُ. ثم غشي عليه فصار وجهه كأنه قمر مشرق، وكان السري به أدمة؛ أي: سُمرة).

ومصداقًا لمنطق هذه الواقعة رفع السري إلى الإمام الجنيد يومًا رقعة وقال له: انظر ما فيها؟ فإذا فيها:

إذا ما شكوتُ الحب قال: كذبتَني فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا

فلا حبَّ حتى يلصق الجلدُ بالحشا وتذبل حتى لا تجيب المناديا

ولقد جاء رجل وقال يومًا للعارف السري: كيف أنت؟

أجابه قائلًا:

من لم يبت والحب حشوُ فؤاده..

إنها محبة العبد لسيده ومولاه، هي القوت والغذاء، وهي الخمر وهي الكأس، وهي النعيم وهي السرور، فاعْجبْ لنعيم يفتتت الأكباد ويذيب المهج ويلصق الجلد بالحشا ويقطع المحب عن كل شيء سوى محبوبه.

ولقد ارتفع سيدي السري بمحبته إلى درجة العشق، حتى إنه مرض يومًا ولم يُر عليه تغير. فأخذ الإمام الجنيد بوله فذهب به إلى طبيب نصراني، فتأمله وقال: هذا بول عاشق!! فصعق الإمام الجنيد وأغمي عليه، ثم أخبر شيخه السري فقال: قاتله الله! ما أخبره! ما كنت أظن أن الحب يظهر في هذا!!!.

وما من شك في أن غاية المحب ومناه في الوصال.

وكان الإمام السري يتضرَّع إلى ربه ويناجيه قائلًا: (اللهم مهما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذلِّ الحجاب)؛ لذلك الحجاب عن المحبوب هو أشد ما يعانيه المحب من العذاب، إن الأولياء ينشدون الوصال دائمًا، فهو مطلبهم الأسمى، ومع الوصال يكون الأنس والرضا والهيبة والجلال، وكلها مقامات لها شأنها عند أهلها، وقصارى ما يمكن أن نصل إليه هو المدلول النظري عن طريق التعرف والبحث.

نحن لا نستطيع أن نرى ونحسّ هذه المقامات إلَّا بما ينقل إلينا من الكتب، فنحن ما وصلنا إلى مقاماتهم حتَّى نعرفها حقَّ معرفتها.

أما الإدراك الصوفي العملي[1] فهو وقف على أهله الذين اصطفاهم ربهم واجتباهم، وقد أوجد البون الشاسع بين النظر والتطبيق عقبة منيعة في التصديق[2]، ولكن لا يسعنا إلا نشدان الحقيقة والتعرف إليها من أي الوجوه والزوايا.

وفي مقام الأنس والهيبة[3] يقول الإمام السري: (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف .....
لا يشعر[1]).

---

(١) لمن ذاقها وعرفها من الصُّوفية.

(٢) وبين معرفتنا النَّظرية لها وشهودها عند الله مسافة كبيرة، فتعالوا نتعرفها ولو معرفة نظرية من أيِّ وجه كان.

(٣) مقامات الطَّريق والسُّلوك عند الشَّاذلية أكثر من تسعة، وهذه المقامات آخر مرحلة يجتازها الصُّوفي في الوصول إلى الله، بعد المجاهدة ترقٍّ وقطع مقامات، ويقول عنها ابن عطاء الله: لا يصحُّ واحد من هذه المقامات إلَّا بإسقاط التَّدبير مع الله والاختيار، ومن أراد أن يترقى بنفسه فقد دبَّر واختار، فسيِّدنا السَّري يحدثنا عن هذا المقام الذي وصل إليه في الأنس والهيبة، وماذا كان شعوره.

ويعلق الإمام الجنيد على كلام شيخه قائلًا: (وكان في قلبي منه شيء حتى بان لي الأمر كذلك؛ وذلك لأن الهيبة والأنس حالتان فوق القبض والبسط[٢]).

والقبض والبسط فوق الخوف والرجاء، فالهيبة مقتضاها الغيبة[٣] والدهشة، فكل هائب غائب حتى لو قطع قطعًا لم يحضر من غيبتها إلا بزوال الهيبة عنه؛ أي: لا يشعر حتى تزول عنه هيبته؛ كما حصل مع سيدنا ابن الزُّبير لما قطعوا رِجله وهو في الصَّلاة لم يشعر.

---

(١) في هذين المقامين من شدَّة سروره وأنسه نسي كلَّ شيء، وغاب إحساسه عن كلِّ شيء، حتَّى لو ضُرب بالسَّيف لا يشعر...

(٢) القبض والبسط حالتان تتعاقبان على القلوب تعاقب اللَّيل والنَّهار، فإذا غلب حال الخوف على العبد؛ كان مقبوضًا، وإذا غلب حال الرَّجاء عليه؛ كان مبسوطًا، وهذا حال السَّائرين، أمَّا الواصلون (كإمامنا)؛ فقد اعتدل خوفهم ورجاؤهم، فلا يؤثر فيهم قبض ولا بسط؛ لأنَّهم مالكو الأحوال، قال الإمام القشيري: إذا كاشف العبدَ بنعت جماله؛ بسطه، وإذا كاشفه بنعت جلاله؛ قبضه، فالقبض يوجب إيحاشه، والبسط يوجب إيناسه.

(٣) يغيب عن كل شيء من هيبته.

والأنس مقتضاه الصحو والإفاقة، ثم إنهم يتفاوتون في الهيبة والأنس، وقيل: أدنى مرتبة في الأنس أنه لو ألقي في النار ما تكدر أنسه، ألا ترى إلى قول السري: (يبلغ العبد من الهيبة والأنس إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر) وذلك لأن الأنس يتولد من السرور بالله، ومن صح أنسه بالله استوحش مما سواه.

فهذه مقامات العارفين السابحين في بحار القرب، الفائزين برضا الرب، الناعمين بالولاية الربانية، المجتبين للمعرفة الإلهية، وللمعرفة علامات أبان عنها العارف السري إذ قال: (من علامة معرفة الله القيام بحقوق الله، وإيثاره على النفس فيما أمكنت فيه القدرة).

فإذا أردت أن تعرف أنَّك مؤمن حقيقة فانظر في قيامك بحقوق الله وإيثاره على نفسك، هل أنت تقوم الليل؟ هل تصدقَّت وبقيت بلا طعام؟ يحكى عن الشيخ يحيى الصباغ أنه كان يحمل الطبخة كلها ويتصدق بها وهو أحوج ما يكون إليها.

والإيثار بصفة عامة خلق من أخلاق الكمَّل من الرجال، وقد بلغ الإمام السري منه الغاية القصوى، وهي الفتوة في الطريق، وحمل أثقال المسلمين وتقديم مصلحتهم على الجانب الشخصي، فلقد أُثر عن سيدي السري أنه كان يقول: (وددت أنَّ أحزان الخلق كلها علي).

إنه يريد أن يتحمل وحده عناء الخلائق وأحزانهم؛ شفقة منه عليهم، وإيثارًا لهم على نفسه، وذلك هو عين المشرب المحمدي، فأنعِمْ به من مشرب.!

ومن النماذج التطبيقية لخلق الفتوة عند الشيخ السري ما ذكره الإمام القشيري في «رسالته» قائلًا: ويحكي السري أنه قال: (منذ ثلاثين سنةً وأنا في الاستغفار من قولي: (الحمد لله) مرة، قيل: وكيف؟

فقال: وقع ببغداد حريق فاستقبلني رجل فقال: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله! فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت حيث أردت لنفسي خيرًا مما حصل للمسلمين.

لله درك أيها العارف! هذه هي أخلاق المسلم التي ارتفع بها صرحُه وساد العالمين، وبها تتحقق ذاتية المسلم الكامل الوارث لأخلاق النبوة.

إن هذا السمو الأخلاقي هو وليد التربية الصوفية التي تنزع من العبد نفسه الأمارة بالسوء، وتمحو منه أنانيته؛ لكي يصفو ويسمو حتى يحلق في أجواء الحب النقي الطاهر لله الواحد الأحد.

ولقد وضع أقطاب الصوفية في مناهجهم السلوكية أكمل المبادئ والأسس الأخلاقية التي ترتقي بالعبد إلى مصافِّ الأبرار المقربين، فكيف أصبح مثل هؤلاء الأبرار صوفيين؟ تعالوا نأخذ الجواب من سيدنا السَّري:

يقول الإمام السري: (ثلاث من أخلاق الأبرار: القيام بالفرائض، واجتناب المحارم، وترك الغفلة، وثلاث من أخلاق الأبرار يبلغن بالعبد رضوان الله: كثرة الاستغفار، وخفض الجناح[1]، وكثرة الصفات[2]، وثلاث من أبواب سخط الله: اللعب[3]، والمُزاح، والغِيبة[4]، والعاشر من هذه الثلاث: عمود الدين وذروة سنامه: حسنُ الظن بالله[5]).

---

(١) لا تتعالَ على من حولك.

(٢) تحقَّق بالصِّفات الخيِّرة جهدَ استطاعتك.

(٣) بيده الجوال يلعب به، تناديه أمه أو أبوه، ولا يرد!!

(٤) مربٍّ يقول لولده: ألا تقوم اللَّيل؟ فيجيبه: فلان لايفعل، فقال: لو قمت ليلتك كلَّها ما سدَّت مسدَّ غيبتك لأخيك!.

(٥) «**إنَّ حسن الظَّنِّ بالله عزَّ وجلَّ من حسن عبادة الله**» رواه الإمام أحمد، وهو حديث حسن (١٦/ ٢٨٩)، «**لا يموتنَّ أحد منكم إلَّا وهو يحسن الظَّنَّ بالله**» رواه ابن ماجه (٣٣٧٨) وهو حديث صحيح.

إنها مدارج الكمال، ومعاريج الاتصال، يصفها العارف سيدي الإمام السري[1] كما يحدثنا عن عقبات الوصول ووسائل الاتصال بالله تعالى قائلًا: (انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بأربع خصال: فأما من انقطع عن الله فبخصلتين: يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض[2]، والثانية: عملٌ بظاهر الجوارح لم يواطئ عليه صدق القلوب[3]، وأما الذي اتصل به المتصلون: فلزوم الباب[4]،

---

(١) الإمام السَّري لا يتحدث عن نظريات، بل يتحدث عن أخلاقه التي وصل بها إلى الله، وهنا تكمن عظمته، فهو ليس منظِّرًا، وإنَّما يتكلَّم على تجربته الشخصية في الوصول إلى الله.

(٢) قضايا جوهريَّة لا بدَّ أن تُعرف، أيُّ عمل يأتيك فاعرضه على كتاب الله وسُنَّة رسوله، مثلًا: رفيقك اتصل بك يريدك، وأمك أو أبوك طلبوا منك شيئًا، أو زوجتك، نفذ أمرهم على طلب رفيقك، هذا مثال واحد.

(٣) والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «**الرِّيَاءُ شِرْكٌ**»، فإن لم تعمل عملًا في إخلاص لله؛ فستنقطع عن الله، وأنت خُلقت لترضي الله ورسوله، لا لترضي النَّاس، فإن أردت رضاهم فخذ أجرتك ممَّن أشركت مع الله: ﴿**لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ**﴾، ﴿**وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [الزمر: ٦٥].

(٤) بالدُّعاء والذِّكر وأداء حقوق الله تعالى.

والتشمير في الخدمة[1]، والصبر على المكاره[2]، وصيانة الكرامات[3]).

ولمعنى الصبر تحليل جميل عند العارف السري، إذ يقول: (معنى الصبر أن تكون مثل الأرض؛ تحمل الجبال وبني آدم وكل ما عليها، لا تأبى ذلك؛ كذلك الصابر يحتمل كل ما كرهته النفوس، لا يأبى ذلك ولا يسميه بلاءً، بل يسميه نعمة وموهبة من الله سبحانه وتعالى[4]).

ثم لقد تعرض العارف السري لبيان أخلاق الصديقين، فقد قال الإمام الجنيد: (دخلت يومًا فقال لي: ما أوائل أحوال الصديقين؟ قلت: لا أدري.

---

(١) بعمل الطَّاعات وأداء حقوق النَّاس.

(٢) لأنَّها من الله.

(٣) لا تتحدث عن حالك مع الله، اجعلها بينك وبينه؛ كقيام الليل والصدقة.

(٤) الآن عرفتم كيف وصل هؤلاء إلى مقامهم العالي عند الله، وفي الحديث: «**إذا أحبَّ الله عبدًا ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن رضي اصطفاه**»؛ لذلك يسمُّون البلاء نعمة.

وفي حديث: «**إذا أحبَّ الله عبدًا؛ ألصق به البلاء، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يريد أن يصافيه**»، **وفي حديث آخر**: «**إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أحبَّ عبدًا ابتلاه ليسمع صوته**».

قال: ثلاثة: أن يكونوا بما في أيديهم مع إخوانهم سواء[1]، ويطالبوا نفوسهم بما للناس عليهم[2]، وإذا عرض أمران لله فيهما رضًا حملوا أنفسهم على أصعبهما وأشدهما وإن كان فيه تلفُ نفوسهم[3].

وبعد ذلك ترى كيف يعقد الإمام السري مقارنة صوفية بين الأبرار والمقربين قائلًا: (قلوب المقربين معلقة بالسوابق؛ ماذا سبق من الله لنا؟[4]).

وأما عن أخلاق الأبدال من الأولياء فيقول: (أربع من أخلاق الأبدال: استقصاء الورع، وتصحيح الإرادة، وسلامة الصدر للخلق، والنصح لهم[1]) .

---

(١) يقسمون ما معهم بينهم وبين إخوانهم، فإذا اشترى شيئًا ومعه صديقه يشتري له أيضًا، سعره بسعرك.

(٢) أداء الحقوق، تجده مشغولًا كيف يرد حقَّ فلان عليه.

(٣) وهكذا يعرف أنَّه يخالف نفْسه التي تحب دائمًا أن تميل إلى الدَّعة والرَّفاهيَّة: وخالف النَّفْس والشَّيطان واعصهما...

(٤) هل نحن من السُّعداء أم لا؟ يخافون أن يكونوا من الأشقياء في عِلْم الله تعالى.

تلك إشارات نورانية ولطائف رقيقة اتصف بها قوم في الذروة العليا من الصفاء والطهر والنقاء، وتكلم بها إمام في المعرفة تفجرت في قلبه ينابيع الحكمة فتحدث عن موارد القلوب[٢]، يقول الإمام الجنيد: (بعثني السري يومًا في حاجة فأبطأتُ عليه، فلما جئتُ قال لي: (إذا بعث بك رجل يتكلم في موارد القلوب في حاجة؛ فلا تبطئ عليه فإنك تشغل قلبه).

---

(١) فهم يعملون للحاضر، ويقومون بواجب الإسلام، إذا عملت خيرًا فأنت على خير إذن، قم بواجبك وما عليك من الخاتمة، البدايات تدلُّ على النِّهايات.. من أشرقت بدايته أشرقت نهايته.

(٢) الواردات: التي ترد على القلوب فيطمئنُّ إليها العارفون بالله؛ لأنَّها تأتيهم بلا طلب، والوارد: هو الحال الذي يرد على قلب المريد من المعارف الرَّبانيَّة، والعلوم الوهبية، فكأنَّه رسول من قبل الله تعالى له، فهناك وارد مَلَكي (روحي عبادي)، وارد رحماني ووارد شيطاني، فالملكي: يورد بردًا، ويحدث لذة، ولا يترك ألمًا.

إنه إمام فذٌّ في عصره، فريد من طرازه، وقد كانت نظرة عصره إليه نظرة المأموم للإمام، فلقد روى صاحب «الحلية» أن الإمام الجنيد سمع الحسن البزار[1] يقول: (كان أحمد ابن حنبل ههنا، وكان بشر بن الحارث ههنا، وكنا نرجو أن يحفظنا الله بهما، ثم إنهما ماتا وبقي السري، وإني أرجو أن يحفظنا الله بالسري).

وقد كان للإمام السري مع الإمام أحمد ابن حنبل – في حياته – شأن جليل في أمور الحقائق، ومن ذلك ما ذكره الإمام الغزالي قائلًا: وأرسل السري إلى أحمد ابن حنبل شيئًا فردَّه.

فقال له: احذر آفة الرد؛ فإنها أشد من آفة الأخذ.

فقال: أعِدْ عليَّ ما قلتَ، فأعاده.

فقال: ما رددت إلَّا لأنَّ عندي قوتًا، فاحبسْه عندك وأرسلْه بعد شهر.

---

(١) الحسن بن الصَّباح بن محمَّد البزار الزعفراني، فقيه، حدث عن طبقة الإمام أحمد، وسفيان بن عيينة، وخرَّج له خ-د-ت، كان راويًا للإمام الشَّافعي، يقال: لم يكن في وقته أفصح منه، ولا أبصر باللُّغة، توفي (٢٥٩هـ).

لقد تلاقى علم الشريعة وعلم الحقيقة في أعلى قمتين شامختين في العصر كله، واتفقت الكلمتان وتوحدتا وما كان لهما أن تختلفا أو تتفرقا أبدًا برغم ما يقوله أهل الزور من أعداء الصوفية الذين عميت بصائرهم عن رؤية الحقيقة، ولقد أوضح الإمام السري الحقيقة بجلاء في قوله: (من ادعى باطن علمٍ ينقضه ظاهر حُكمٍ فهو غالط[1]).. ولنعم ما قاله أهل الله تعالى: (الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقصده[2]، والحقيقة أن تشهده[3])!

ولكن ما ذنب الشمس في أن يُحجب عنها أعمى أو لا يحس بها فاقد لجوهر الحياة؟؟!

فليبكِ المحجوبون على أنفسهم بدلًا من أن يصبوا أحقادهم على المتنعمين بشهود الجمال القدسي، فالذين رفعت لهم أعلام الولاية؛ لن يضيرهم عِدَاء أهل الظُّلْمة

---

(١) ليكن ظاهرك مثل باطنك، فالحقيقة لا تتغيَّر، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهًا.

(٢) وذلك الإخلاص.

(٣) وهو خالق كلِّ شيءٍ سبحانه.

والغِواية. وبعد هذه الجولة السريعة في جوانب حياة الإمام السري الصوفية[1] أنتقل بكم إلى جانب الكرامات عند قطب الأقطاب العارف المعرِّف سيدي السري السقطي، ولن نضع في حسباننا الذين ينكرون على الأولياء كراماتهم رغمَ ورودها في الكتاب وصحيح السنة.

-يروي لنا صاحب «الحلية» بسنده عن علي بن عبد الحميد الغضائري يقول: (سمعت سريًّا السقطي ودققت عليه الباب، فقام إلى عضادتي الباب فسمعته يقول: «اللهم اشغل مَن شغلني عنك بك» فكان من بركة دعائه أن حججتُ أربعين سنة مِن حلب على رجلي ماشيًا ذاهبًا وجائيًا)[2].

-ومما ذكره الإمام النبهاني في «جامع الكرامات» قال: (وحكي أنَّ السري السقطي لما ترك التجارة كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها، فأبطأت يومًا، فقال لها الإمام السري: لم أبطأت؟

---

(١) تذكروا أنَّه من أعلام التَّصوف السُّني في القرن الثَّالث الهجري، وإمام البغداديين، وشيخهم في وقته، وتذكروا أنَّه خال الإمام الجنيد، وأنَّه توفي سَنة (٢٥١هـ).

(٢) استجابة الدُّعاء للأولياء ثابت في الكتاب والسُّنَّة، فآصف بن برخيا دعا الله باسمه الأعظم، فحضر عرش بلقيس أمام سيِّدنا سليمان، وفي الحديث القدسي الصحيح: «**ولئنْ سألَني لأُعْطِينَّهُ**».

فقالت: لأن غزلي لم يشتر، وذكروا أنه مخلط.

فامتنع الإمام السري عن طعامها؛ [للغش الذي في غزل أخته].

ثم إن أخته دخلت عليه يومًا فرأت عجوزًا تكنس بيته وتحمل كل يوم إليه رغيفين، فحزنت أخته وشكت إلى الإمام أحمد ابن حنبل، فقال الإمام أحمد للإمام السري فيها، فقال: «لما امتنعتُ عن أكل طعامها قيَّض الله لي الدنيا لتنفق عليَّ وتخدمني[1]»).

وقال أحمد بن خلف: دخلت يومًا على السري فرأيت في غرفته كوزًا جديدًا مكسورًا.

فقال: أردت ماءً باردًا في كوز جديد، فوضعته على هذا الرواق ونمت، فرأيت في منامي جارية مدنية فقالت: يا سري؛ من يخطب مثلي يُبرّد الماء!؟، ثم رمته برجلها، فاستيقظت من نومي فإذا هو مطروح مكسور.

---

(١) أكل الحلال أحد أسباب الفلاح والفتوح، وسيِّدنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم يقول: «أطب طعمتك تستجب دعوتك».

قال الإمام الجنيد: فرأيت الخزف المكسور لم يمسسه ولم يرفعه حتى عفى عليه التراب، وعلمت أن مخالفة النفس وقمع الشهوات واللذات من دواعي الوصول وشواهد المشاهد.

ولقد فلسف العارف السري نظرته للكرامات بقوله: (**من أطاع من فوقه أطاعه من دونه**[1]) كما فلسف من قبل نظرته للمحبة الإلهية إذ قال: (**لا تكمل محبة بين اثنين حتى يقول كلٌّ للآخر: يا أنا**).

والصوفية لا يعرفون المحبة إلا لله أو في الله؛ لأن قلوبهم ممحضة لله تعالى.

إنهم عباد إلهيون ربانيون، اجتمعت قلوبهم في محراب الخصوصية والاصطفاء؛ لتنال من الله وافر العطاء[2].

وبعد؛ فقد أمضينا هذه الرحلة النورانية مع قطب من أقطاب الصوفية الأمجاد، وإمام من أئمة الولاية الأفراد، من هذه السلسلة الذهبية من رجال الطريقة سيدي

---

(١) ورد: يا دنيا من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه.

(٢)﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى...**﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

الإمام العارف السري السقطي شيخ الإمام الجنيد[1] وإمام التصوف في عصره، وقد اقتبسنا منه هذه النفحات المباركات زادًا لأرواحنا ونورًا لقلوبنا؛ علَّنا نقتفي الأثر ونسير على الدرب ونسلك السبيل.

رضي الله عنك يا مولانا السري، وأمدَّنا منك بالمدد الأعلى، وشرَّفنا معك بالصحبة المباركة ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

فماذا يقول أعداء التصوف بعد هذا البيان..!!؟

---

(١) وصيَّته رحمه الله كما في «الرسالة» للإمام القشيري: يا معشر الشَّباب! جدوا قبل أن تبلغي مبلغي، فتضعفوا وتقصِّروا كما قصَّرت، فكان اجتماعه بالإمام السَّري مهمًا جدًّا فقد بلغ الإمام الجنيد الإمامة العظمى في الدِّين؛ ولهذا يقول الإمام القشيري في «رسالته»: سمعت أبا علي الدَّقاق يقول: الشَّجر إذا نبت بنفْسه ولم يستنبته أحد؛ يورق، ولكنه لا يثمر، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به؛ لا يجيء منه شيء؛ لذا كان كلُّ إمام يحدِّث عن أشياخه الذين أخذ عنهم.

المصادر:

*كتاب بحار الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية للأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي. ص ٢٦٣-٢٧٥.

*وفيات الأعيان ٢/ ١٠١.

*حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ١٠/ ١١٦.

*طبقات الصوفية: ٤٨.

*مرآة الجنان ٢/ ١٥٨.

*شذرات الذهب ٢/ ١٢٧.

*الرسالة القشيرية

* تاريخ بغداد ٩/ ١٨٧.

*صفة الصَّفوة ٢/ ٣٧١.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الرابع والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

من سلسلة رجال الطريقة

الخليفة السادس

سيد الطائفة الصوفية

الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد

٢٢٠هـ - ٢٩٧هـ

على طريق النور تمضي مواكب العارفين إلى غايات الغايات، حيث تنعم الأرواح التي شربت من ينابيع المحبة والصفاء حتى لم تبق فيها لغير الله بقية، فهي دائمًا وأبدًا مع الله وبالله، إنها أرواح الصفوة الأولياء، الذين اصطفاهم الله تعالى لهداية خليقته، فهم الضياء المنبعث في أرجاء هذه الحياة الذي يغمر سناه آفاق الإنسانية فيجذب الأرواح التائقة إلى النور، فمن رضي الله عنه التقى بهم وأخذ عنهم.

وعلى طريق النور نلقى قمة شامخة من قمم التصوف؛ إنه الإمام الجنيد، فهو أحد أركان الطريق الصوفي الذي يشار إليه بالبنان، وهو إمام أئمة السلوك الذين ارتفعت

على أيديهم منارات المعرفة واليقين، وشربت من منابعهم العذبة أرواح المريدين والسالكين، هذه المعاني اتفق عليها أهل الله جميعًا في هذه الشخصية الفذة.

ولو ذهبنا نلتمس كلمة أو عبارة نستوحي من خلالها مكانة الإمام الجنيد؛ لما وجدنا خيرًا من عبارة الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي إذ قال فيه: (هو سيد هذه الطائفة)، ولقد صارت هذه الكلمة اصطلاحًا لدى الصوفية على شخصية العارف الجنيد، بجانب ما قيل فيه من أنه شيخ التصوف على الإطلاق، وإمام أهل الخرقة، ومقدم الجماعة، وشيخ الطَّائفتين الحقيقة والشَّريعة.

وهو الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج القواريري، أصله من نهاوند، ومولده (سنة220) ومنشؤه بالعراق، وقد تفقه على مذهب أبي ثور من أصحاب الإمام الشافعي وراوي مذهبه القديم، وكذا مذهب سفيان الثوري، وكان الجنيد يفتي بحضرته وهو في العشرين من عمره، فذاعت شهرته في مختلف الأوساط العلمية ببغداد.

سيدنا الإمام شيخ الطائفتين أبو القاسم الجنيد البغدادي من آل بيت سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا نسبه الشريف:

١-سيِّدنا الجنيد ابن السيد محمد الزجاج.

٢- ابن السيد الجنيد.

٣-ابن السيد الإمام موسى الثاني.

٤-ابن السيد الإمام إبراهيم المرتضى.

٥-ابن السيد الإمام موسى الكاظم.

٦-ابن السيد الإمام جعفر الصادق.

٧-ابن السيد الإمام محمد الباقر.

٨-ابن السيد الإمام علي زين العابدين.

٩-ابن السيد الإمام السبط الحسين ابن أمير المؤمنين سيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

١٠-وابن السيدة فاطمة الزهراء البتول بنت سيدنا رسول الله محمد صلَّى الله عليه وسلَّم.

إذن بينه وبين النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عشرة رجال، وهذا النسب معلق في الغرفة التي فيها مقامه الشريف.

واعلم أن الإمام الجنيد البغدادي هو الذي بيَّن مذهب أهل التصوف ومهَّد طريقًا يوصل الناس إليه، وهو الذي أخذ الطريقة ولبس الخرقة من خاله السري

السقطي الذي أخذها من شيخه معروف الكرخي الذي أخذها ولبسها من شيخه داود الطائي، وهو أخذها من سيدنا الحسن البصري الذي أخذ الطريقة ولبس الخرقة من الإمام الغضنفر والسيد الأشهر جدي المطهر سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو الذي أخذ العلوم والأسرار والمعرفة والأنوار من مولانا سيد الثقلين سيدنا محمد رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم.

أما عن تربيته الصوفية؛ فقد أخذ الطريق من خاله السري السقطي[1] وهو من أئمة رجال التصوف في عصره، وقد قال عنه الإمام القشيري: (كان أوحد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم الوحي) فتلقى عنه أصول الطريق، كما صحب كلًّا من الحارث المحاسبي وأبي العبَّاس بن سريج[2]، ومرةً تكلم الإمام أبو العبَّاس، فعجبوا من كلامه، فقال: ببركة مجالستي لأبي القاسم الجنيد وغيره، ومن أساتذته بشر بن الحارث الحافي.

قال عنه الإمام أبو عبد الرَّحمن السُّلمي: (هو من أئمَّة القوم وسادتهم، مقبول على جميع الألسنة).

---

(١) شيخ الحسين بن منصور الحلاج، وأبي بكر الشِّبلي.

(٢) ابن سريج المزني، الأنماطي، القاضي، إمام الشَّافعية، وفقيه العراقيين في عصره، ومجدِّد المئة الثَّالثة من السِّلسلة الذَّهبية، ٢٤٩-٣٠٦.

ويقول الإمام المناوي في «طبقاته»: إنه صحب من هذه الطائفة أربع طبقات، كل طبقة ثلاثون رجلًا، وانتهت إليه الرئاسة، هذا ويؤرخ لوفاته بسنة سبع أو ثمان وتسعين ومئتين هجرية.

وقال عنه الإمام أبو نُعيم في «حلية الأولياء»: (كان الجنيد رحمه الله ممن أحكم علم الشَّريعة).

وقال الحافظ الذهبي في «تاريخ الإسلام»[1]: كان شيخ العارفين، وقدوة السَّائرين، وعَلَم الأولياء في زمانه رحمة الله عليه.

وقال السُّبكي: سيد الطائفة، ومقدَّم الجماعة، وإمام أهل الخرقة، وشيخ طريقة التَّصوُّف، وعَلَم الأولياء في زمانه.

والمتصفح لتاريخ الإمام الجنيد يقف في كل جانب على سر من الأسرار التي توحي بجملتها أن هذا الطراز من الرجال قد أعدته العناية الإلهية ليحمل مشعل الهداية لبني أمته، وليقدم لها ميزان العبودية الصادق الذي تزن به نفسها في إطار علاقتها مع الخالق جل شأنه، ونرى الإمام الجنيد يعد منذ صغره لتحمل هذه الأمانة، انظر إليه وهو يقول: كنت بين يدي السري ألعب وأنا ابن سبع سنين

---

(١) «تاريخ الإسلام» (٢٢/ ٧٢).

والجماعة يتكلمون في الشكر، فقال: يا غلام ما الشكر؟ قلت: ألَّا يعصى الله بنعمه. فقال: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك! فلا أزال أبكي على هذه الكلمة.

أجل؛ لقد أحدثت هذه الكلمة في نفس الجنيد من خاله السري دويًّا هزَّ أركان نفسه؛ إذ خشي أن يكون حظه من التصوف مجرد الكلام فيه وترديد عباراته، وأن يحرم من التحقق بمضمونه فعمل من ساعته على أن يكون صوفيًّا بالحقيقة والحال، لا باللسان والمقال.

وحين تصدُقُ من العبد الإرادة ويصحبُها من الله العونُ والتوفيق؛ فَقُلْ من الخير ما شئت. فهذا هو الإمام الجنيد يقبل على مولاه إقبالًا يغنيه عن نفسه وعن وجوده. وهو يصور معنى هذا الإقبال ودرجته قائلًا: لو أقبل صادقٌ على الله ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة؛ كان ما فاته أكثر مما ناله!!). أستغفر الله العظيم

إنه يرى أن لحظةً تفوت العبد مع ربه فيها فوات مغنم تودي خسارته بكل مكاسب العمر! أرأيت همة أرقى من هذه الهمة؟! وهل وقفت على تعبير يصور ما صورته من معان؟ لذا مكث أربعين سَنة لا يأوي إلى فراشه!

ولكن التساؤل الآن: بم تكون معية الخلق لخالقهم؟؟ كيف يقبل العبد على مولاه؟

وما الصفات التي تؤهل العبد للإقبال على ربه وترفعه إلى مصاف المقربين؟

فصل الخطاب في ذلك إنما هو **اتباع منهج الشريعة المحمدية اتباعًا كليًا**، ليس بالأشباح فقط، وإنما بتطويع النفس لطاعة الله، وبمكابدة النفس بأنواع المجاهدات درجة فدرجة حتى يساير هوى النفس مقصود الشارع الحكيم، وحتى تصير الطاعات عاداتٍ تألفها النفس وتتوق إليها(١)، وأساس ذلك كله صدق النية في اتباع الشريعة المحمدية اتباعًا مبنيًّا على علم، فلا وصول إلا من هذا الباب(٢)؛ ولذا يقول الإمام الجنيد:

(الطرق كلها مسدودة عن الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول واتبع سنته ولزم طريقته.)

---

(١) يصير من أَلِف قيام اللَّيل يقوم عند الوقت، فيجد نفسه مستيقظًا بلا ساعة أو منبه، وكأنَّ ملَكًا يوقظه، وعلَّمنا الوالد دعاء نقوله ليوقظنا الله عند ساعات التَّجلي: اللهم لا تؤمنِّي مكرك...

(٢) ليس عندنا جدبة ودروشة، بل عندنا عِلْم يوافقه عمل، وسروري بطلبة العِلْم بيننا لا يعدله سرور، والإمام مالك له عبارة في ذلك: مَن تصوَّف ولم يتفقَّه؛ فقد تزندق، ومن تفقَّه ولم يتصوَّف؛ فقد تفسَّق، ومن جمع بينهما فقد تحقَّق.

ومن أقواله: مَن لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث؛ لا يقتدى به في هذا الأمر[1].

وبعد أن بيَّن معالم السبيل بصراحةٍ لا لبس فيها؛ تجده يربط بإحكام بين منبع الطريق الصوفي ومصبه؛ فالمنبع: هو الشريعة المحمدية ممثلةً بهدي الكتاب والسنة، والمصب: هو الحقيقة التي يصل إليها العبد باتباعه لمنهاج الشريعة المستقيم[2].

الشَّريعة هدفها الحقيقة؛ بالتَّعرف إلى الله، وعبادته، والتخلُّق بأخلاق الشَّريعة.

وهنا يقول: **(مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة)** وهذا التقييد إنما هو من قبيل تقييد النتيجة بالمقدمة[3]. وهو بلا جدالٍ قاطعٌ لأي منافاة بينهما.

---

(١) سيِّدنا الإمام محمَّد بن يلس شيخ الطَّريقة الأوَّل، لَمَّا جاء إلى دمشق صار يحضر دروس الشَّيخ محمَّد بدر الدِّين الحسني المحدِّث الأكبر؛ ليعلم تلامذته ما قاله الإمام الجنيد.

(٢) المثال الذي أضربه لكم؛ لتوضيح الصِّلة بين الشَّريعة والحقيقة هو الصَّلاة، فالإتيان بشرائطها وأركانها وسننها شريعة، والحضور فيها مع الله حقيقة، إنها جسد وروح لا غنى لأحدهما عن الآخر.

(٣) المقدِّمة: الكتاب والسُّنَّة، ونتيجته: الطَّريقة الصُّوفيَّة، فأنت تصدر عن الأصل لتصل إلى فرع...، وتصوُّفنا صادر عن قال الله وقال رسوله، وهذا معنى الرَّبانيَّة، ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾ [آل عمران: ٧٩].

ثم تعال معي لننظر إلى مدى بعد الرؤية عند الإمام الجنيد: لقد أدرك هذا العارف بالله الذي كان يعيش في القرن الثالث الهجري ورأى ببصيرته التي نوَّرها الله أن ثمة دعاوي سيلفقها أعداء التصوف ويلصقونها به بعد حين من الزمن؛ وهي القول بخروج التصوف عن الشريعة، ودعوى أن الصوفية يسقطون الأعمال والتكاليف[1]، فقطع عليهم الطريق وقطع ألسنتهم، فقد ذُكِر أمامه أن شخصًا قال: (إن أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات – أي: الأعمال – من باب البر والتقرب إلى الله) فقال الإمام الجنيد: (إن هذا قول قومٍ تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها)[2].

---

(١) يترك الصَّلاة والعبادة، ويقول لك: صرت بروفسورًا وقدوة، فلا حاجة لي بالعبادة، أنا وصلت!!

(٢) بعض النَّاس من طلبة العِلْم يقول لك: لا أحتاج إلى أوراد... فالعِلْم مقدَّم على الورد، وهذا القول ينافي ما عليه الأولياء والعلماء، بل كلَّما ازداد العبد علمًا؛ ازداد شكرًا وذكرًا لله تعالى.

سيِّدنا الجيلاني رأى غمامة ونورًا، فناداه منها صوت: يا عبد القادر! قد أحللت لك المحرَّمات؛ فقال سيِّدنا الجيلاني: أعوذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم، وإذا بالغمامة تصير دخانًا؛ إذا هو إبليس يجيبه: قد نجوتَ منِّي بعلمك وبحفظ ربِّك...

لذا كان يقول: لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال، فاتَّفق قول الجيلاني مع قول الإمام الجنيد.

وقال أبو نُعيم الأصبهاني بسنده: سألت الجنيد: ما علامة الإيمان؟، فقال: علامته طاعة من آمنت به، والعمل بما يحبُّه ويرضاه، وترك التَّشاغل عنه بما ينقضي ويزول[1].

هذا هو قول سيد الطائفة الصوفية الرجل الذي أقام عشرين سنة وورده من النوافل في كل يوم ثلاث مئة ركعة، وثلاثون ألف تسبيحة.

كان يدخل حانوته، فيسبل السِّتر، ويصلِّي.

إلى جانب مجالسه العلمية التي كانت ببغداد حيث الرائح والغادي، وكان يؤمها الأدباء لينهلوا من بلاغته وروعة أسلوبه، والفقهاء ليأخذوا من فتاواه واستنباطاته، والفلاسفة لدقة نظره وسمو أفكاره، والمتكلمون لبراعته وتحقيقه، والصوفية

---

(١) ومن أقواله: مَن خالفت إشارته معاملته؛ فهو مدَّع كذَّاب.

لإشاراته وحقائقه، حتَّى كان يقول في المسألة الواحدة وجوهًا كثيرة لم تخطر للعلماء ببال.

ثم هو القطب الصوفي الذي كان آية عصره علمًا وتحققًا، فأوضح منهاج التصوف للمريدين، وأبرز معالمه وآدابه للسالكين حيث قال[1]:

(التصوف جامع لعشر خصال:

١-التقلل من كل شيء في الدنيا مع القدرة عليه (حقيقة).

٢-واعتماد القلب على الله سبحانه وتعالى مع عدم السكون إلى الأسباب (حقيقة).

٣-والرغبة في الطاعة بما استطاع منها (شريعة).

٤-والصبر عند فقد الدنيا عن المسألة والشكوى (حقيقة).

٥-والتميز في الشبهات والحلال (شريعة).

٦-والشغل بالله تعالى عمن سواه (حقيقة).

٧-ودوام الذكر بالقلب واللسان (شريعة وحقيقة).

٨-وتحقيق الإخلاص مع الصدق (حقيقة).

---

(١) تريدون تعلُّم التَّصوُّف تعالوا وانظروا.

٩-واستواء السريرة والعلانية (شريعة: ما يكون منا منافق).

١٠-ودوام العافية لله مع السكون إليه في جميع الأحوال (حقيقة) [التَّسليم المطلق لله].

(فإذا اجتمعت هذه الخصال؛ كان الصوفي في أول مراحل المحبة، ثم يرقى إلى حال المشاهدة، فيؤخذ منه إليه، ويبقى معه في ميدان المحبة والدهشة).

كان يقول: سألت الله ألَّا يعذِّبني بكلامي، وربَّما وقع في نفْسي أنَّ زعيم القوم أرذلهم.

هذه هي آداب التصوف التي بها يدنو العبد من باب الحضرة الإلهية حيث الأنس والمشاهدة.

ومن أقواله: إنَّما اليوم -إن عقلتَ- ضيفٌ نزل بك، وهو مرتحل عنك، فإن أحسنتَ نُزُله وقِراه؛ شهد لك، وأثنى عليك بذلك، وصدق فيك، وإن أسأت ضيافته ولم تحسن قِراه؛ شهد عليك، فلا تبعِ اليوم ولا تعدله بغير ثمنه، واحذر الحسرة عند نزول السَّكرة، فإنَّ الموت آت، وقد مات قبلك من مات.

اعلم ابن آدم أنَّ طلب الآخرة أمر عظيم لا يقصِّر فيه إلَّا المحروم الهالك، فلا تركب الغرور وأنت ترى سبيله، وأخلص عملك، وإذا أصبحت فانتظر الموت، وإذا

أمسيت فكن على ذلك، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

ويقول: (إن الله يُخلِص إلى القلوب من بره بحسب ما تخلص إليها القلوب من ذكره، فانظر ماذا خالط قلبك؟)[1].

وها هو ذا يندد بالغفلة عن الله قائلًا: (**الغفلة عن الله أشد من دخول النار**)[1].

---

(١) فالذَّاكر الغافل ثوابه قليل، فإذا أردت نيل ثواب الذِّكر؛ فلا تكن غافلًا عند ذكرك، عندما تقول: لا إله إلَّا الله؛ فاجعل قلبك يقول: لا معبود بحقٍّ إلَّا الله، وكذا عندما تقول: الحمد لله؛ فاعرف معنى الحمد والثناء، واستحضر من تحمده. وفي «سنن ابن ماجه» حدَّثهم رسول الله: أنَّ عبدًا من عباد الله قال: يا رب! لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فعضلت بالمَلَكين، فصعدا إلى السَّماء، وقالا: يا ربنا! إنَّ عبدك قد قال مقالة لا ندري كيف نكتبها... قال: اكتباها كما قال عبدي حتَّى يلقاني فأجزيه بها، وأوَّل آية في القرآن بإجماع العلماء: ﴿**الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الفاتحة: ٢] أتعرفون لماذا ذكرها الله تعالى؟ لَمَّا عَلِم سبحانه عجز عباده عن حمده حمد نفسه بنفسه لنفسه في الأزل؛ ولذا سيِّدنا محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك»، و(الحمد) وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتَّعظيم.

وفي تصوره لمعنى الشوق والمحبة يقول: (بلغني أن يونس بكى حتى ابيضت عيناه، وقام حتى انحنى، وصلى حتى أقعد، ثم قال: (وعزتك لو كان بيني وبينك بحر من نار لخضته شوقًا إليك) .

ويقول: ما أخذنا التَّصوُّف عن القيل والقال، بل عن الجوع وترك الدُّنيا، وقطع المألوفات.

يريد: قطع أكثر المألوفات، وترك فضول الدُّنيا، وجوع بلا إفراط، أمَّا من بالغ في الجوع كما يفعله الرُّهبان، ورفض سائر الدُّنيا، وترك مألوفات النَّفْس من الغذاء والنَّوم والأهل؛ فقد عرَّض نفْسه لبلاء عريض، وربَّما خولط في عقله، وفاته بذلك كثير من الحنيفيَّة السَّمحة، والسَّعادة في متابعة السُّنن.

---

(١) هل نحن منهيون عن الغفلة عن الله؟ نعم؛ نعى الله على المنافقين أنَّهم لا يذكرون الله إلَّا قليلًا، وقال: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا**﴾ [طه: ١٢٤]؛ لذلك يجب أن نعرف أنَّ كلَّ ما نهى عنه الشَّرع المطهَّر فيه شر مستطير، والجنيد عبَّر عنه بقوله: (أشدُّ من دخول النار)، ومصداقه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا**﴾ [الجن: ١٧].

ثم يوضح ماهية التصوف قائلًا:

(**التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى**، وأصله الصرف عن الدنيا؛ كما قال حارثة: صرفتُ نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري).

ثم في شرحه لمفهوم العبودية لله تعالى يقول: (إنك لن تكون له على الحقيقة عبدًا وشيءٌ مما دونه لم يُسْتَرَقَّ، وإنك لن تصل إلى صريح الحرية وعليك من حقوق عبوديته بقية [عبودية الدُّنيا وشهواتها] فإذا كنت له وحده عبدًا كنت مما دونه حرًّا) . فلا تسعَ خلف الدُّنيا وتنسى الآخرة، وتترك صلة الرَّحم والعِلْم والطَّاعات، وتؤذي النَّاس، وتدَّعي أنَّك عبد لله وحدَه!!

يا ابن آدم دِينك دِينك، إنَّك موقوف بين يدي الله، ومرتهن بعملك، فخذ مما في يديك لما بين يديك، وعند الموت يأتيك الخبر، إنَّك مسؤول، ولا تجد جوابًا، إنَّك لا تزال بخير ما دمت واعظًا لنفْسك محاسبًا لها، وإلَّا فلا تلومنَّ إلَّا نفْسك.

هذه هي حكمة الإمام الجنيد في إشراقها وعمق مغزاها.

وأما عن جانب الكرامات والخوارق؛ فإننا نجتزئ من كثرتها بهذه الكرامة مثالًا، يسوق لنا الإمام الجنيد هذه الواقعة فيقول: (كان السري يقول لي: تكلم على الناس، وكان في قلبي حشمة – أي: حياء- من الكلام على الناس، وكنت أتهم نفسي في

استحقاق ذلك حياءً، فرأيت النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام ليلة جمعة قال لي: تكلم على الناس، فانتبهت وأتيت باب السري قبل أن أصبح، ودققت عليه الباب فقال – قبل أن يسمع منه شيئًا-: لم تصدِّقنا حتى قيل لك ذلك؟!.

فقعد الإمام الجنيد للناس في الجامع بالغداة، فانتشر في الناس أن الجنيد قد يتكلم على الناس، فوقف عليه غلام نصراني، وقال: أيها الشيخ؛ ما معنى قول الرسول: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[1] فأطرق الإمام الجنيد رأسه ثم رفعه فقال: أسلِمْ فقد حان وقت إسلامك. فأسلم الغلام وقطع الزنَّار).

ذلك يسمَّى بالفراسة؛ وهي القدرة على معرفة بعض الأحوال الباطنة ببعض العلامات الظَّاهرة، والشُّعور القلبي أهم من النظر بالعين: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج: ٤٦] أهل الفراسة قال الله عنهم: ﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ**﴾ [الحجر: ٧٥]، وفي حديث: «إنَّ لله عبادًا يعرفون النَّاس بالتَّوسُّم»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي والطبراني.

(٢) أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

الفراسة: ما يوقعه الله في قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض النَّاس ، وليست من ادعاء عِلْم الغيب، بل نوع من الكرامات، وإصابة الظَّن والحدس، وإنما تعلم بالدَّلائل والتَّجارب والخُلُق، قال تعالى لنبيِّه: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ**﴾ [محمد: ٣٠]، واللَّحن ضربان: صواب وخطأ، فالفراسة نور يقذفه الله في قلب عبده يفرِّق به بين الحقِّ والباطل، والصادق والكاذب، فهي من خواطر الإيمان.

كان شاه الكرمانيُّ حادّ الفراسة لا يخطئ، ويقول: من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشَّهوات، وعمَّر باطنه بالمراقبة، وظاهره باتِّباع السُّنَّة، وتعوَّد أكل الحلال؛ لم تخطئ فراسته[1].

---

(١) قال ابن مسعود: أفرس النَّاس ثلاثة: العزيز في يوسف، قال لامرأته: ﴿**أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ [يوسف: ٢١]، وابنة شعيب قالت لأبيها في سيِّدنا موسى: ﴿**اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ**﴾ [القصص: ٢٦]، وسيِّدنا أبو بكر في عمر حين استخلفه، وزيد عليها امرأة فرعون حين قالت: ﴿**قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا**﴾ [القصص: ٩]، وكان سيِّدنا أبو بكر أعظم الأمَّة فراسة، ما قال لشيء: (أظنُّه كذا) إلَّا كان كما قال.

هذا هو نور البصيرة الذي يمنحه الله لمن اجتباه وجعله من خواص عباده ﴿**وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [البقرة:١٠٥].

ونظر إليه أحدهم فرأى بين يديه سبحة فقال له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال: طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه.

نِعْم المذكِّر السُّبحة، كان يذكر الله كل يوم ثلاثين ألف تسبيحة، هذا ورده من الذِّكر.

فلم يصل بالعلم فقط بل بالذكر أيضًا، تذاكر أصحابه بين يديه أهل المعرفة والعِلم، وما استهانوا به من الأوراد والعبادات بعدما وصلوا إليه، فقال الجنيد: العبادة على رؤوس العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك.

وقال: رأيت النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في المنام فقلت له: ماتقول في السماع [الأناشيد والحضرة] الذي نفعل ويحصل منا الحركات فيه؟ فقال: **ما من ليلة إلا وأحضر معكم، ولكن ابدؤوا بالقرآن واختموا به.**

وبعد:

فهذا هو الإمام الجنيد سيد الطائفة الصوفية، الإمام الرباني والعالم اللدني الذي قال: (ما أخرج الله إلى الأرض علمًا وجعل للخلق إليه سبيلًا إلا وقد جعل لي فيه حظًّا).

وقد شهد له أبو العباس ابن عطاء الله قائلًا: (إمامنا في هذا العلم ومرجعنا والمقتدى به الجنيد، إنه مقدم الجماعة، وإمام أهل الخرقة، وشيخ التصوف الذي كان لا يغفل عن الله طرفة عين) إذ كان يقول: (الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار).

هذا هو إمام أهل الحقيقة وعَلَم الأولياء في زمانه الذي كان يناجي مولاه قائلًا: (يا من هو كل يوم في شأن؛ اجعلني من بعض شأنك).

وهو الذي تكلم في المحبة – وهو شاب – في موسم الحج بمكة على كبار المشايخ إذ قالوا له: هات ما عندك يا عراقي، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال واصفًا من تحقق بالمحبة: (عبد ذاهل عن نفسه، متصل بربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، وقد أحرق قلبَه الأنوارُ الإلهية، وصفا شربُه من كأس ورده، وانكشف له الحق من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فمن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ومع الله).

فبكى المشايخ، وقالوا: ما على هذا من مزيد، جبرك الله يا تاج العارفين!!

وفي آخر ليلة له سنة ٢٩٧ رآه أصحابه يصلي ويبكي، ويسجد ويبكي، حتى ختم القرآن، فقالوا: ارفق بنفسك يا أبا القاسم، فقال: ما رأيت أحدًا أحوج إليه في هذا الوقت مني، وهاهو ذا تطوى صحيفتي.. ثم بدأ ختمة جديدة فلما وصل إلى قوله في سورة البقرة: ﴿**إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ**﴾ [**البقرة**: ٧٠] نظروا إليه فإذا هو قد فاضت روحه إلى بارئها.

وضجت بغداد بوفاة سيدها بعد أن عاش ستًّا وسبعين سنة قضاها بين الشريعة والحقيقة.

ورُئي في المنام، قال محَّمد بن إبراهيم: رأيت الجنيد في النوم، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات، وفنيت تلك العلوم، ونفِدت تلك الرُّسوم، وما نفعنا إلَّا ركعات كنا نركعها في الأسحار.

صلَّى عليه ولدُه، ودفن بمقبرة معروف الكرخي في بغداد عند خاله السري السَّقطي، ثمَّ قام الملك غازي بتعمير قبره وتوسعته، وفي ١٩٨٠م أعيد بناؤه وترخيمه، وبني معه جامع كبير مساحته ٢٥٠٠م مربع، يعرف اليوم باسم جامع الجنيد البغدادي.

إنه الرجل الذي اكتملت فيه ولاية الله تعالى، وفاضت من ينبوع معرفته لطائف الحِكَم؛ لترتوي بها أرواح العارفين، وهو الإمام الذي ضرب بعلمه وحاله وسلوكه أروع المثل، وقدم من جوهر صوفيته وتحققه أنصع البراهين وأقوى الحجج على أن التصوف يمثل أعلى قمة في الإسلام يظلِّل لواؤها صفوة عباد الله.

فسلام عليه في الخالدين، وسلام عليه مع النبيين والصديقين، ونفعنا بمدده وبركاته دنيا وآخرة، اللهم آمين.

بناء على ما تقدَّم من تراجم السَّادة الأعلام أخاف على من يجرح الصُّوفيَّة ويقدح في حقهم أن يدخل في حديث: «من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأغضب لأوليائي»[1].

والحقُّ أنَّ أولياء الله هم المؤمنون المتقون، سواء سمِّي أحدهم فقيرًا، أم صوفيًّا، أم فقيهًا، أم عالمًا، أم تاجرًا، أم جنديًّا، أم صانعًا، أم أميرًا، وفقًا للقاعدة المعروفة: (العبرة بالمسميات لا بالأسماء) أو (العبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين).

---

(١) «شرح السنة» للبغوي.

المصادر:

*رسائل الجنيد ت د. جمال رجب ٢٠٠٥م، وبلغت رسائله ٣١ رسالة.

*بحار الولاية في مناقب أعلام الصوفية: الأستاذ الدكتور جودة محمد أبو اليزيد المهدي.

*الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي طبعة ١٩٩٩م.

*صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ٦٥٢

*شرح الرسالة القشيرية.

*سير أعلام النبلاء ١٤/ ٦٦ - ١١/ ٤٣ طبعة١٩٨١م.

*طبقات الحنابلة١/ ١٢٧

*وفيات الأعيان ١/ ٣٧٣

*تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٨/ ١٦٨

*طبقات الصوفية للسلمي ١٥٥.

*الشخصيات الإسلامية لكاتب هذه الكلمات غفر الله له ولوالديه وأشياخه.

*شذرات الذَّهب في أخبار من ذهب لابن العماد ج٣ ص٤١٨ دار ابن كثير.

*حلية الأولياء للحافظ أبي نُعيم.

*تاريخ الإسلام للذَّهبي.

*الطَّبقات الكبرى لابن السُّبكي.

*البداية والنِّهاية لابن كثير ١٤/ ١٧٦٨.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس الخامس والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الطريقة التيجانية

شيخ الطريقة الإمام أحمد التيجاني.

وغايتها وهدفها الوحيد هو التوحيد ومعرفة الله تعالى.

واعتُرض على سالكيها أنهم يعدون (صلاة الفاتح) إذا قرئت بإخلاص أفضل من ستة آلاف ختمة بغير إخلاص.

من أقوال الإمام التيجاني: المراقبة هي علم القلب باطلاع الرب عليه في كل لحظة، وبدوامها تقع المشاهدة.

قيل له: أيُكذب عليك؟ قال: نعم. إذا سمعتم عني شيئًا فزنوه بميزان الشرع، فإن وافق فاعملوا به، وإن خالف فاتركوه.

قال: إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم رؤيا مباشرة.

أركان الطريقة التيجانية:

إن الطريقة التيجانية هي طريقة العلماء، فهي طريقة علم وعمل ومعرفة وإخلاص، وأهلها هم من أجلة العلماء.

تقوم الطريقة التيجانية على ثلاثة أركان، وهي:

١-الاستغفار.

٢-الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

٣-الهيللة (لا إله إلا الله).

والأذكار اللازمة في هذه الطريقة الجليلة هي: وردا الصباح والمساء، والوظيفة، وذكر الجمعة. وكلها تقوم على هذه الأركان الثلاثة كلها أو بعضها.

وهذه الأذكار اللازمة هي أسُّ الطريقة وأساسها، وليس وراءها ذكر لازم، ومدار الطريقة في المداومة على أذكارها اللازمة بشروطها وآدابها. ومن آكد هذه الشروط وأعظمها: المحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها، بإتمام أركانها وأدائها على حدودها المحدودة لها شرعًا، في جماعة غير مبتدعة، وامتثال الأوامر واجتناب النواهي، بقدر الوسع والإمكان. كل ذلك مع بذل الجهد في إخلاص النية، وتطهير الطوية، والصدق في معاملة الحق والخلق، والتخلي عن كل مذموم، والتحلي بكل محمود، وعدم الأمن من مكر الله.

والطريقة التيجانية هي أسهل الطرق على الإطلاق، وهي طريقة شكر، جارية على طريقة السلف الصالح من الصدر الأول القائمة على الشكر والفرح بالمنعم سبحانه وتعالى، وعلى الرياضة القلبية. فطريقة الشكر التي كان عليها قلوب الأصفياء من الصحابة وغيرهم هي عبادة الله تعالى بإخلاص العبودية والبراءة من جميع الحظوظ، مع الاعتراف بالعجز والتقصير في توفية الربوبية حقها، وسكون ذلك في القلب على الدوام.

فسير طريقة الشكر هو سير القلوب، بالنظر في أحوال القلب وما يصلحه وما يفسده، على سنن الاعتدال والتقيد بالشريعة المطهرة والسنة الشريفة وآدابها، من غير إفراط ولا تفريط.

روى البخاري عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»**.

فضائل أركانها الثلاثة:

١- فضل الاستغفار:

قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت عليًّا يقول: إني كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني به، وإذا حدثني رجل من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وإنه حدثني أبو بكر -وصدق أبو بكر- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له**» ثم قرأ هذه الآية: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥]. أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان.

٢- فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بالصيغة التالية:

اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله وصحبه حق قدره ومقداره العظيم.

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وعن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه قال: أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا طيب النفس، يُرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله أصبحت اليوم طيب النفس يُرى في وجهك البشر، قال: «أجل، أتاني آتٍ من ربي عز وجل فقال: من صلى عليك من أمتك صلاةً كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها» رواه أحمد في «مسنده» والترمذي، والمَلَك هو جبريل كما في رواية النسائي واالطبراني.

٣- فضل الهيللة (لا إله إلا الله):

قال الله تعالى: ﴿**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [آل عمران: ١٨]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله؛ من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله: «**لقد ظننت يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه أو نفسه**» رواه البخاري.

إمام الطريقة التيجانية

الشيخ أحمد التيجاني

أبو العباس أحمد التيجاني: هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني، جزائري متصوف.

وهو مؤسس الطريقة التيجانية الصوفية والزاوية التيجانية، وما زال مقامه وزاويته يزاران بعين ماضي إلى يومنا هذا. قضى حياته في كل من: الجزائر، وموريتانية، والسودان، والحجاز، وتونس، ومصر والمغرب، إلى أن توفي في المغرب سنة (١٨١٥م) بعد أن هاجر إليها بسبب استيائه من الحكم التركي في الجزائر.

ولادته ونشأته وتحصيله:

ولد أحمد بن محمد التيجاني عام ١١٥٠ هجرية الموافق ١٧٣٧ ميلادية بقرية عين ماضي الجزائرية بولاية الأغواط الجزائرية، مقر أسلافه.

حفظ القرآن حفظًا جيدًا وهو ابن سبع سنوات من رواية الإمام ورش تلميذ الإمام نافع ابن أبي نعيم، على يد المقرئ محمد بن حمو التيجاني الماضوي الذي تتلمذ في حفظ القرآن وقراءته على شيخه عيسى بوعكاز الماضوي التيجاني. وكان رجلًا صالحًا مشهورًا بالولاية. وبعد حفظ القرآن اشتغل أحمد التيجاني بطلب العلوم

الأصولية والفرعية والأدبية. واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبةً أهَّلته للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس. فأفتى ودرّس وعمره لم يتجاوز ١٦ ربيعًا.

ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل والتعبد وقيام الليل، حتى إذا بلغ زوجه والده. وصار يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقد والديه إثر توفيهما بسبب تفشِّي وباء الطاعون عام ١١٦٦ في المنطقة، فخلَّفه سكان بلدة عين ماضي لوالده في رئاسة الزاوية رغم صغر سنه، فقد كان يبلغ آنذاك ستة عشر سنة. ومارس تدريس القرآن والسنة وعلوم إسلامية أخرى لمدة خمس سنوات.

رحلاته:

لم يكتف أحمد التيجاني بالرصيد الفقهي والصوفي الذي حصل عليه في مسقط رأسه في المغرب الأوسط، فشد الرحال إلى مدينة فاس سنة ١١٧١ هجرية الموافق ١٧٥٨ ميلادية. وفاس هي المدينة الإدريسية ذات الأهمية العلمية والرمز التاريخي. فغادر أحمد التيجاني عين ماضي في أول رحلة له إلى مدينة فاس وعمره ٢١ سنة. وخلال هذه المدة التي قضاها بها كان يحضر مجالس العلم ويحاور ويساجل كبار علمائها، إلا أن اهتمامه الأكبر كان منصبًّا على الجانب الروحي أكثر من أي شيء آخر، ويظهر ذلك من نوعية الأشخاص الذين التقى بهم وشد الرحال إليهم داخل المدينة وخارجها:

التقى في مدينة وزان بالطيب بن محمد بن اليملحي العلمي الوزاني القائم آنذاك بأمور الطريقة في الزاوية الوزانية خلفًا لأخيه الشيخ التهامي الوزاني. وقد كان الطيب ذائع الصيت، وأذن لأحمد في تلقين ورده، لكنه امتنع لاشتغاله بنفسه.

وفي جبل الزبيب ببني وأنجل تعرف إلى محمد بن الحسن الوانجلي.

والتقى في مدينة فاس بعبد الله بن محمد العربي بن أحمد بن عبد الله مَعْن الأندلسي، أحد أعلام الأسرة العبدلاوية المعنية بمدينة فاس، وتكلم معه في عدة أمور، ودعا له ثلاثًا بأن يأخذ الله بيده.

ثم انتقل أحمد التيجاني إلى بلد الأبيض في ناحية الصحراء حيث زاوية الشيخ الشهير عبد القادر بن محمد الأبيض، فاختارها منزلًا، وانقطع فيها للعبادة والتدريس لمدة خمس سنوات من أوائل سنة ١١٨١ هجرية. وكانت تأتيه الوفود للزيارة والأخذ عنه، فكان يمتنع عن ذلك كل الامتناع، ويقول: كلنا واحد في الانتفاع، فلا فضل لأحد على الآخر في دعوة المشيخة إلا سوء الابتداع. وقد زار خلال هذه المدة بلدة زمزم مسقط رأسه ودار آبائه وأجداده.

رحلته إلى الحج وزيارة النبي الكريم:

ومن زاوية الشيخ بالصحراء ارتحل أحمد التيجاني إلى تلمسان، مدينة الجدار، ثم غادرها عام ١١٨٦ هجرية الموافق ١٧٧٢ ميلادية، قاصدًا زيارة بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

فلما وصل إلى بلاد إزواوى؛ سمع بالشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، فزاره وأخذ عنه الطريقة الخلوتية.

ولما وصل إلى تونس في السنة نفسها؛ لقي بعض الأولياء بها؛ منهم عبد الصمد الرحوي. ومكث أحمد التيجاني سنة بين مدينة تونس العاصمة ومدينة سوسة، فأفتى بها وأجاب عن كثير من الأسئلة، ودرس عدة علوم وكتب، وفي مقدمتها كتاب «الحكم». فذاع صيته وبلغ خبره إلى أمير البلاد، فطلب منه الإقامة بالديار التونسية للتدريس والإفادة من علومه، وأعطاه دارًا وخصص له أجرة مهمة للعمل.

غير أن أحمد التيجاني لما جاءه كتاب الأمير أمسكه وسكت، وتهيأ من الغد للسفر بحرًا إلى مصر.

وعندما وصل إلى مصر القاهرة بحرًا التقى بشيخها في ذلك الوقت: محمد الكردي المصري دارًا العراقي أصلًا ومنشأً.

ومن مصر توجه إلى بيت الله الحرام، وكان وصوله إلى مكة في شهر شوال عام ١٧٧٣م الموافق ١١٨٧ هجرية، فسمع بها بالشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الهندي، الذي لم يكن له إذن بملاقاة أحد، ورغم ذلك أخذ عنه أحمد التيجاني الإذن عن طريق رسول خاص.

وبعد أن أكمل شعائر الحج وزيارة قبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ توجه للقاء محمد بن عبد الكريم السمان.

العودة من المشرق إلى المغرب والرحلة الثانية إلى فاس:

ثم عاد إلى القاهرة مع ركب الحجيج، وعند وصوله ذهب لزيارة الشيخ الكردي والسلام عليه تأدبًا، فرحب به وطلب منه أن يعود لزيارته كل يوم، فامتثل لرغبته، وتطور هذا اللقاء اليومي بينهما إلى جلسات علمية ومناظرات، وذاع صيته بمصر، ووفد عليه كثير من العلماء.

ثم عاد إلى تونس، ولم يمكث بها طويلًا، فارتحل إلى تلمسان عام ١١٨٨هجرية الموافق ١٧٧٤ ميلادية، فقضى فيها حوالي ثلاث سنوات، وفي سنة ١١٩١ هجرية الموافق ١٧٧٧ ميلادية عاد أحمد التيجاني ثانية من تلمسان إلى فاس، قاصدًا زيارة إدريس الأزهر، والتقى في هذه الرحلة بكاتبه محمد بن المشري الحسني السباعي السائحي التكرتي الدار. ومنذ التقائه به صار يؤم به وبأهله في الصلاة، ويقوم مقامه في كتابة الأجوبة حتى سنة ١٢٠٨ هجرية، الموافق ١٧٩٤ ميلادية، وهي السنة التي بدأ فيها أحمد التيجاني القيام بالإمامة بنفسه.

وفي مدينة وجدة وهو قافل إلى فاس التقى بعلي حرازم الفاسي لأول مرة، فتوجها معًا إلى مدينة فاس.

وبعد زيارة ضريح إدريس أخبر تلميذه علي حرازم بأنه عازم على العودة إلى تلمسان، فودع تلميذه في السنة نفسها التي وصل فيها إلى فاس، وطلب منه ملازمة العهد والمحبة وصدق التوجه الله.

ومكث أحمد التيجاني في تلمسان مدة، ثم غادرها إلى قصر الشلالة وأبي سمغون، حيث ضريح الولي الذي سمي القصر باسمه، وحل أحمد التيجاني بقصر أبي سمغون سنة ١١٩٦ هجرية الموافق ١٧٨١ ميلادية، وبها أنشأ الطريقة التيجانية، وصارت فاس المركز الأول لهذه الطريقة، ومنها خرجت الدعوة لتنتشر في إفريقية عامة.

ثم انتقل من أبي سمغون في بلاد الصحراء، في السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هجرية، ودخل فاس في السادس من ربيع الثاني في العام نفسه.

وبعد أن ركز أحمد التيجاني أسس الزاوية استمر في نشر الطريقة والإذن في الأوراد، فانطلقت الطريقة التيجانية لتعم المغرب الأقصى والصحراء والسودان الغربي، وقد برز أحمد التيجاني شيخًا جعل حياته للتربية الروحية والأخذ بيد السالكين، خصوصًا بعد هجرته إلى فاس للإقامة بها بصفة نهائية إلى أن لقي ربه في

صبح يوم الخميس السابع عشر من شوال سنة ١٢٣٠ هجرية الموافق ١٨١٥ ميلادية، وله يومئذ ثمانون سنة رحمه الله ورضي عنه.

وقد أكرمني الله تعالى فالتقيت بشيخها في تماسين الجزائر: الشيخ الدكتور محمد عيد التماسيني، وبايعني على الخلافة في الشام، وقلدني الخرقة المباركة.

مقام المشاهدة ومقام المراقبة

وهي رسوخ القلب في العرفان حتى يكون الغيب كالعيان.

هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الدين المفصلة في حديث سيدنا جبريل، وهي أعلى مراتب الدين وأعظمُها خطرًا، وأهلها هم المستكملون لها السابقون بالخيرات، المقربون في علو الدرجات.

وقد قدمنا أن الإسلام هو الأركان الظاهرة عند التفصيل مقترنًا بالإيمان،

والإيمان إذ ذاك هو الأركان الباطنة،

وأمَّا الإحسان؛ فهو تحسين الظاهر والباطن،

ولكن عند الإطلاق كلٌّ منها يشمل دين الله كله.

وقد تقدم معنا حديث جبريل عند البخاري ومسلم الموضح لأركان الدين الثلاثة.

وقد جاء ذكر الإحسان في القرآن في مواضع كثيرة، تارة مقترنًا بالإيمان، وتارة بالتقوى، وتارة بهما معًا، وتارة بالجهاد، وتارة بالإسلام، وتارة بالعمل الصالح مطلقًا.

فمقام الإحسان يدخل في جميع الأعمال الظَّاهرة والباطنة، كما روى مسلم: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**»، فالإحسان في الإتيان بالواجبات الظَّاهرة والباطنة

على وجه كمال واجباتها، هذا القدر واجب، وأمَّا الإحسان فيها بإكمال مستحباتها؛ فليس بواجب، بل مستحب.

والإحسان في ترك المحرمات بالانتهاء عنها، وترك ظاهرها وباطنها، فهذا القدر واجب، وأمَّا الإحسان في الصَّبر على هذه المقدورات؛ فأن يصبر عليها من غير تسخُّط ولا جزع.

وهكذا يقال في كلِّ الواجبات والمحرَّمات، وأجلُّ أنواع الإحسان: أن تحسن إلى من أساء إليك: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [المؤمنون: ٩٦]، لكنَّ المراد من هذا الدَّرس الإحسان في عبادة الله؛ أي: الإخلاص فيها والخشوع فيها، ومراقبة المعبود سبحانه، «**أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قال الله تبارك وتعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [المائدة: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا**﴾ [الكهف: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقال تعالى: ﴿**بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**﴾ [لقمان:٢٢].

وتارة الإحسان بالإنفاق في سبيل الله، وهو من الجهاد، كقوله تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقد فسره سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم تفسيرًا لا يستطيعه أحد من المخلوقين غيره صلى الله عليه وسلم؛ لما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

أخبر صلى الله عليه وسلم أن مرتبة الإحسان على درجتين، وأن للمحسنين في الإحسان مقامين متفاوتين؛ كما أنَّ للإسلام خمسة أركان وللإيمان ستَّة أركان، فللإحسان **مقامان هما** ركنان:

المقام الأول: -وهو أعلاهما- **مقام المشاهدة**:

(أن تعبد الله كأنك تراه).

وهذا مقام المشاهدة يعني: أن يعمل العبد على مقتضى مشاهدته لله عزَّ وجلَّ بقلبه، وهو أن يتنور القلب بالإيمان، وتنفذ البصيرة في العرفان؛ حتى يصير الغيب كالعيان[1]، فمن عبد الله عزَّ وجلَّ على استحضار قربه منه، وإقباله عليه، وأنه بين يديه كأنه يراه؛ أوجب ذلك له الخشية والخوف والهيبة والتعظيم،

وفي حديث سيدنا حارثة المرسل:[2] (أن سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «ياحارثة، كيف أصبحت؟».

قال: أصبحت مؤمنًا حقًّا.

قال: «**انظر ما تقول؛ فإن لكل قول حقيقة**».

---

(١) ما غاب عنك كأنَّك تشاهده بعينك.

(٢) رواه البزار والبيهقي في «الشُّعَب» مرفوعًا، «مجمع الزَّوائد» (١/ ٦٢)، والمرسل أصح، روي من طرق متَّصلة ومرسلة، وانظر«ميزان الاعتدال» للذهبي (٤/ ٤٦٩).

قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر أهل الجنة في الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار كيف يتعاوَوْنَ فيها.

قال: «**أبصرتَ فالزم، عبدٌ نوَّر الله تعالى بصيرته**»[1].

المقام الثاني: مقام الإخلاص (المراقبة):

وهو أن يعمل العبد على استحضار مشاهدة الله إياه، واطِّلاعه عليه، وقربه منه، فإذا استحضر العبد هذا في عمله وعمل عليه؛ فهو مخلص لله تعالى؛ لأن استحضاره ذلك في عمله يمنعه من الالتفات إلى غير الله وإرادته بالعمل، وهذا المقام هو الوسيلة الموصلة إلى المقام الأول؛ ولهذا أتى به سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم تعليلًا للأول،

---

(١) من هنا أخذ العلماء نور البصيرة لمن يسير على هدى من ربِّه، فلا تختلط عليه الأمور؛ كما قال تعالى: ﴿**نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**﴾ [النور: ٣٥]، البصيرة: أعلى درجات العِلْم، عبَّر عنها الحديث بالمشاهدة، يصل إليها العبد بالصَّلاة، وتلاوة القرآن، والأذكار، والدُّعاء، وتقوى الله، والخوف منه، ومحبَّته، وعبَّر عنها القرآن بالفرقان: ﴿**إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا**﴾ [الأنفال: ٢٩]، الفرقان: هو من نتائج البصيرة.

فقال: «**فإن لم تكن تراه؛ فإنه يراك**»، وفي بعض ألفاظ الحديث: «**فإنك إلا تكن تراه فإنه يراك**».

فإذا تحقق في عبادته بأن الله تعالى يراه ويطلع على سره وعلانيته، وباطنه وظاهره، ولا يخفى عليه شيء من أمره؛ فحينئذ يسهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني؛ وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله تعالى من عبده، ومعيته حتى كأنه يراه.

فالمقام الثَّاني مقدِّمة وتوطئة للمقام الأوَّل، فجهودك أن تتحقق بالمقدِّمات لتصل إلى النَّتائج.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى هذا المعنى في غير ما موضع من القرآن؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** *[1] **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي**

---

(١) يخبر الله نبيه أنَّه يعلم أحواله وأحوال أمَّته في كلِّ آنٍ ولحظة حتَّى حركة الأشجار، ﴿**وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا**﴾ [الأنعام: ٥٩]، نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون، «**فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**».

الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦١-٦٤]، وقال تبارك وتعالى: **﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾** [البقرة: ١٨٦].

وقال تبارك وتعالى: **﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠]، وغير ذلك من الآيات.

فهل تعرفون من يصل إلى مرتبة الإحسان؟ أحتاج منكم إلى سماع واستماع؛ لأنَّ المعاني التَّالية رفيعة المستوى في شأن هذه المرتبة...:

أولياء الله هم المتقون المحسنون، هم الذين آمنوا بالله عزَّ وجلَّ وبإلهيته وربوبيته، وبأسمائه وصفاته، وأفردوه بالعبادة محبة وتذللًا وانقيادًا، وخوفًا ورجاءً، ورغبة ورهبة، وخشيةً وخشوعًا، ومهابة وتعظيمًا، وتوكلًا عليه، وافتقارًا إليه، واستغناءً به عما سواه[1]، واتقوه بامتثال أوامره ومحبة مرضاته، وترك مناهيه وموجبات سخطه،

(١) مراقبة لله في جميع الأحوال، فيا هناءهم وسعادتهم في هذا المقام!!

سرًّا وعلنًا، ظاهرًا وباطنًا، قولًا وعملًا واعتقادًا[1]، واستشعرت قلوبهم ونفوسهم إحاطة الله عزَّ وجلَّ بهم علمًا وقدرة، ولطفًا وخبرة، بأقوالهم ونياتهم، وأسرارهم وعلانياتهم، وحركاتهم وسكناتهم، وجميع أحوالهم، كيف عملوا؟ وأين عملوا؟ ومتى عملوا؟[2]، فكان عملهم خالصًا لله، موافقًا لشرعه، مناطًا بما جاءت به رسله ونطقت به كتبه، مستحضرين ذلك بقلوبهم، نافذة فيه بصائرهم، فأخلصوا لله العمل، وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه؛ لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم، ويرى حالهم، ويسمع مقالهم[3]، فطرحوا النفوس بين يديه، وأقبلوا بكليتهم عليه، والتجؤوا منه إليه، وعاذوا به منه، وأحبوه من كل قلوبهم، فامتلأت بنور معرفته،

---

(١) هذا من ثمار المراقبة: العمل بالشَّريعة بالأوامر وترك النَّواهي، وقلت لكم: الحقيقة تلازم الشَّريعة، فترك العبادات زندقة، وارتكاب المحظورات معصية تبعد عن المراقبة والمشاهدة.

(٢) فكيف يعمل من عَلِم أنَّ الله مطَّلع عليه ومشاهد له؟ حتمًا سيُخْلِص في عمله، كان أرباب المعامل يُطلُّون على الموظفين من غرفة خاصة، يضعون لها زجاجًا ينظرون منه، فكان العمال يعملون بدأب وهمَّة، وهم يقولون: ربُّ العمل يرانا، واليوم يضعون كاميرات مراقبة، فما بالكم بربِّ العالمين الذي لا تخفى عليه خافية؟!

(٣) ماذا يفعل العبد عندما يعلم ذلك ؟ اسمعوا النَّتيجة...

فلم تتسع لغيره، فبه يبصرون، وبه يسمعون، وبه يبطشون، وبه يمشون، وبرؤيتهم يُذكر الله تعالى، وبذكره يُذكرون. (مقام رفيع).

الدَّليل على هذا الكلام ذكره البخاريُّ في «صحيحه» والتِّرمذي في «سننه»: قال البخاري رحمه الله تعالى: حدثنا عمر بن حفص: حدثنا أَبِي: حدثنا الأعمش: سمعت أبا صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني**[1]**، فإن ذكرني في نفسه؛ ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبرًا؛ تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا؛ تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي؛ أتيته هرولة**»[2].

---

(١) هناك معية عامة ومعية خاصَّة، فالمعية العامة ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ [الحديد: ٤] مع المؤمن والكافر، أمَّا هنا فالمعية خاصة؛ أي: أنا معه بالحفظ والتَّوفيق والتَّأييد، والفقيه يسأل: إذا كان معك فمن عليك؟ وإذا كان عليك فمن معك؟ إذا كان الله معك خدمك عدوُّك مقهورًا، وإذا كان الله ليس معك تطاول عليك أقرب النَّاس إليك: ﴿**وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ**﴾ [الحج: ١٨].

(٢) هكذا التَّعامل مع الله، فإيَّاك والغفلة عنه تكن من الخاسرين، إيَّاك وأن تشهد غيره،

وَدَعِ العنى لا أنت في هذا الوجود ولا أنا

وقال رحمه الله تعالى: حدثني محمد بن عثمان بن كرامة: حدثنا خالد بن مخلد: حدثنا سليمان بن بلال: حدثني شَرِيك بن عبد الله بن أبي نَمِر[1] عن عطاء، عن أبي هريرة قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن الله تعالى قال: من عادى[2] لي وليًّا[3] فقد آذنته بالحرب[4]، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه[5]، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل[6] حتى أحبه[1]، فإذا أحببته[2] كنت سمعه الذي**

---

(٢) المدني، المحدث.

(٢) آذى أو أبغض أو أغضب.

(٣) الوليُّ: العالِم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته، فطريق الولاية منه ليس سوى محبَّة الله ورسوله وطاعتهما، ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾ [المائدة: ٥٥].

(٤) أي: أعلمته أني محارب له وتعرَّض لإهلاكي إيَّاه، فأطلق الحرب وأراد لازمه، فغاية الحرب الهلاك، ومن حاربه الله أهلكه، والله لا يغلبه غالب، ثمَّ ذكر الله أسباب الولاية.

(٥) وفي رواية للبخاري (٦٥٠٢): «**افترضته عليه**»، فما الرَّابط بينهما؟ أنَّ الإتيان بالفرائض وامتثال الأمر فيه احترام الآمر وتعظيمه، والانقياد إليه، وإظهار عظمة الرُّبوبيَّة وذلِّ العبوديَّة، فكان التَّقرب بذلك أعظم العمل، فمن ادَّعى الولاية بغير هذه الطَّريق فهو كاذب في دعواه.

(٦) ما زاد على الفرائض.

يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها[٣]، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني[٤] لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». هذا أشرف حديث رُوي في صفة الأولياء.

ذكروا الله تعالى فذكرهم، وشكروه فشكرهم، وتولوه ووالوا فيه فتولاهم، وعادوا أعداءه لأجله، فآذن بالحرب من عاداهم، وأحسنوا عبادة ربهم، فأحسن جزاءهم وأجزله، عبدوه على قدر معرفتهم به، فجازاهم بفضله وزادهم، ﴿**لِلَّذِينَ**

---

(١) هذا جواب من اجتهد بالتَّقرب إلى الله بالفرائض والنَّوافل، يرقِّيه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله كأنَّه يراه.

(٢) هنا تظهر آثار محبَّة الله له.

(٣) هناك رواية صحيحة أخرى: «فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي»، فإذا بلغ هذه المرتبة؛ صار مستجاب الدَّعوة، فَلَا يَسْأَل اللهَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ، وهناك معنى آخر: أنَّ الله يجعل سلطان حبِّه عليه؛ حتَّى لا يرى ولا يسمع ولا يفعل إلَّا ما يحبُّه الله؛ عونًا له على حماية هذه الجوارح وصيانتها عمَّا لا يرضاه.

(٤) طلب العوذ والالتجاء والاعتصام بي من كلِّ ما يخاف منه.

﴿أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، ولما ذكر أهل الجنة وما وعدهم به من النعم؛ وصفهم أن ذلك جزاء إحسانهم، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذاريات: ١٥، ١٦]، ثم فسر إحسانهم بقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٧ - ١٩].

والحسنى التي وعد الله عزَّ وجلَّ المحسنين هي الجنة، والزيادة هي النظر إلى وجه الله عزَّ وجلَّ؛ كما رواه مسلم عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فلما كانوا يعبدون الله عزَّ وجلَّ في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة، كأنهم يرونه بقلوبهم، وينظرون إليه في حال عبادتهم إياه؛ كان جزاؤهم على ذلك النظر إلى وجهه تبارك وتعالى في الآخرة عيانًا بأبصارهم.

فاحذروا ألَّا تراقبوا الله في الدُّنيا، وتستحضروا عظمته أثناء العبادة، فالغافل ينساه الله؛ أي: يتركه، كما قال تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] ويقول ابن عطاء الله: (أفضل الطَّاعات مراقبة الحقِّ على دوام الأوقات).

الإمام الغزالي عقد في كتابه «إحياء علوم الدِّين» في الجزء السادس كتابًا سمَّاه (كتاب المراقبة والمحاسبة)، ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى**﴾ [العلق: ١٤]، ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١].

ابن المبارك قال لرَجل: راقب الله تعالى، فسأله: كيف؟ قال: كن أبدًا كأنَّك ترى الله تعالى.

وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فقال تعالى فيهم: ﴿**كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾ [المطففين: ١٥]، لما كان حالهم في الدنيا التكذيب، وأعقبهم ذلك التكذيب؛ تراكم الران على قلوبهم، حتى حُجبت قلوبهم عن معرفته ومراقبته في الدنيا، فكان جزاؤهم على ذلك أن حُجبوا عن رؤيته في الآخرة، وذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى**﴾ [النجم: ٣١][1] ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة: ٢٠١].

---

(١) أنت بين خيارين: إمَّا أن تخاف الله، وإمَّا أن تخاف من لا يخاف الله، فاختر لنفسك إمَّا أن تكون عبدًا لله، وإمَّا أن تكون عبدًا لعبد لئيم، لا بدَّ أن تكون تابعًا لجهة، فكن تابعًا لأشرف جهة، كن عبدًا لله،

قيمة الحديث (حديث جبريل):

قال ابن رجب رحمه الله تعالى في «شرح الأربعين» بعد كلامه على مراتب الدين في هذا الحديث[1]، قال: فمن تأمل ما أشرنا إليه مما دل عليه هذا الحديث العظيم؛ علم

ولا تكن عبدًا لشهواتك وبطنك، ولا تكن عبدًا لخميصتك، «**تعس عبد الدِّينار، تعس عبد الدِّرهم، تعس عبد الخميصة**». تعس عبد البطن، تعس عبد الفَرْج، إن لم تراقب الله في معاملة عباده؛ ظلمتهم واحتلت عليهم وغششتهم، هنا يخيفك الله من أضعف خلقه، ويملأ قلبك خوفًا ورعبًا، هذا قانون الله

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنَّا منحنا بالرضا من أحبنا

ولُذ بحمانا واحتم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

المؤمن يشعر بمراقبة الله له؛ لذلك يخاف الله، ويتأدَّب معه، فينضبط بشرع الله.

قصة كان يقصها علينا سيِّدنا الشَّاغوري: أنَّ شيخًا له تلامذة بعضهم كبار في السِّن، وله تلميذ صغير السِّن يحبه حبًّا جمًّا، فعاتبه الكبار، فقال لهم: ليذبح لي كلٌّ منكم طيرًا في مكان لا يراه أحد فيه، وليأتِ به إليَّ، فكلُّهم ذبحوا الطَّير (هذا وراء جدار، هذا في غرفة) إلَّا الشَّاب قال: والله يا سيدي لم أجد مكانًا إلَّا والله يراقبني فيه، فقال: هذا هو الذي امتاز به عليكم؛ شعوره أنَّ الله معه دائمًا.

(١) ذكرها كلَّها: إسلام، وإيمان، وإحسان، فالدِّين هذه المراتب، والآن يتحدَّث لنا ابن رجب عن قيمة هذا الحديث.

أن جميع العلوم والمعارف يرجع إلى هذا الحديث ويدخل تحته، وأن جميع العلماء من فرق هذه الأمة لا تخرج علومهم التي يتكلمون فيها عن هذا الحديث وما دل عليه مجملًا ومفصَّلًا، فإن الفقهاء إنما يتكلمون في العبادات التي هي من جملة خصال الإسلام، ويضيفون إلى ذلك الكلام في أحكام الأموال والأبضاع والدماء، وكل ذلك من علم الإسلام كما سبق التنبيه عليه، ويبقى كثير من علم الإسلام من - الآداب والأخلاق وغير ذلك- لا يتكلم عليه إلا القليل منهم، ولا يتكلمون على معنى الشهادتين، وهما أصل الإسلام كله.

والذين يتكلمون على أصول الديانات يتكلمون على الشهادتين، وعلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

والذين يتكلمون على علم المعارف ومقامات العباد يتكلمون على مقام الإحسان، وعلى الأعمال الباطنة التي تدخل في الإيمان أيضًا؛ كالخشية والمحبة والتوكل والرضا والصبر ونحو ذلك.

فانحصرت العلوم الشرعية التي يتكلم عليها فرق المسلمين في هذا الحديث، ورجعت كلها إليه، ففي هذا الحديث وحده كفاية، ولله الحمد والمنة. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السابع والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

القول الفصل في مقام المشاهدة

كثر الكلام في مشاهدات القوم، وقد تواترت مشاهدات العارفين، حتى قال الإمام أحمد ابن حنبل: (رأيت الله أكثر من سبعين مرة)[1].

---

(١) يراه من غير صورة، ولكن يرى أنَّه يكلمه ربه، أو يسمع صوتًا بلا صورة، وثبتت رؤية الأنبياء لله تعالى، وجاء من عدَّة طرق **أن نبيَّنا رأى الله تعالى، ووضع يده بين كتفيه حتَّى أحسَّ بردها بين ثدييه**، وألَّف الحافظ ابن رجب رسالة في ذلك، وحينما سئل رسول الله: **هل رأيت ربك؟، قال: «نور، أنى أراه؟!»**، وفي رواية لمسلم أيضًا: «**رأيت نورًا**».

أريدكم أن تعرفوا أنَّه لا يرى أحد الله تعالى يقظة في الدُّنيا للحديث الذي رواه مسلم: «**لن يرى أحد منكم ربَّه عزَّ وجلَّ حتَّى يموت**» حتَّى سيِّدنا موسى لم يره، ففي الحديث: «**حِجابُهُ النُّورُ -أو قال: النَّار- لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

رؤيته ممكنة، ولكن لم تحدث في الدُّنيا، وأمَّا في المنام فجائزة، حتَّى قال الإمام القاضي عياض في «إكمال المُعلِم»: ولم يختلف العلماء في جواز صحَّة رؤية الله في المنام؛ لأنَّها رؤية بالأرواح لا بالأشباح، وقال ابن حجر: ويراه على حسب إيمانه، وفي الأحاديث الصَّحيحة: «**رأيت ربِّي في أحسن صورة**» رواه الترمذي، وعند أحمد -وصححه- وغيره: «**رأيت ربِّي في صورة شاب أمرد له وفرة، جعد قطط، عليه حلَّة خضراء**»، و(جعد قطط)؛ يعني: قصير شَعْره ومتجمع.

وجاء سيدنا عبد الله بن الزبير يخطب بنت سيدنا عبد الله بن عمر وكان في طواف فقال: أوتحدثني بالدنيا ونحن يتراءى لنا الله؟!

قال شيوخ التصوف:

العلامة الآلوسي رأى ربه ثلاث مرات، رآه نورًا وكلمه، والإمام الذهبي يقول: جاءت رؤية المنام من وجوه متعددة مستفيضة، وممن رآه يزيد بن هارون، يقول يزيد بن هارون (ثقة متقن عابد): رأيت ربَّ العزَّة في المنام، فقال لي: يا يزيد! تكتب من حريز بن عثمان، فقلت: يا ربِّ ما علمت منه إلَّا خيرًا، فقال: يا يزيد! لا تكتب منه؛ فإنَّه يسبُّ عليًّا، وكذلك الإمام الأوزاعي رأى ربه، وأبو يزيد البسطامي رآه وقال: يا رب! كيف الطَّريق إليك؟، فقال: اترك نفسك وتعال، قال أبو يزيد: فانسلخت من نفْسي كما تنسلخ الحيَّة من جِلدها.

ووالدي رآه نورًا آخر حياته، وقال: يا شيخ سهيل! هذا النُّور لك، ومنهم سريج بن يونس الحافظ الثقة العابد، قال: رأيت ربَّ العزَّة في المنام، فقال لي: يا سريج! سل حاجتك، فقلت: رحماك سر بسر (يعني: رأسًا برأس) إسناده صحيح، وقال الإمام الذَّهبي: كان سريج من الأئمة العابدين، له أحوال، وكان رأسًا في السُّنَّة، له كرامات، (ت٢٣٥) ببغداد، ولقد أخلف هذا العابد إمامًا من أحفاده اسمه أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج المجدِّد لقرنه من الشَّافعية، يقال له: الباز (ت٣٠٦).

لأولياء الله رؤية قلبية في الدنيا تسمى مشاهدة، هي عربونٌ معجَّل ونموذجٌ لرؤيا الآخرة[1].

قال الشيخ ابن تيمية غفر الله له: (الصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يُرى في الآخرة عيانًا، وأن أحدًا لا يراه في الدنيا بعينه، لكن يُرى مناما، وقد يحصل لبعض القلوب من المكاشفات والمشاهدات ما يناسب حالها).

وهناك قصيدة للإمام علي كرم الله وجهه فيها:

رأيت ربي بعين قلبي وقلت لا شك أنت أنت

على أن الصواب في هذه المسالة أنهم رضي الله عنهم يرون الله في عالم الخيال، لا في عالم المثال[2]، .....

---

(١) قال الإمام ابن سيرين: (من رأى ربَّه في المنام دخل الجنَّة)، وقال ابن قتيبة الدِّينوري (ت٢٧٦هـ) في كتابه «تعبير الرُّؤيا»: قال المفسرون: من رأى الله عزَّ وجلَّ بمكان شمل العدل ذلك الموضع، وأتى أهله الخصب والفرح والخير، وإن رآه ينظر إليه؛ فهي رحمته له، وإن رآه معرضًا عنه؛ فهو تحذير للذُّنوب، وإن أعطاه شيئًا؛ فهو عزٌّ وابتلاء.

(٢) لا حقيقة، لكن الإمام النَّووي في «شرح مسلم» يقول: واتفق العلماء على جواز رؤية الله تعالى في المنام وصحَّتها وإن رآه الإنسان على صفة لا تليق بحالهِ من صفات الأجسام؛ لأنَّ ذلك المرئي غير ذات الله تعالى؛ إذ لا يجوز عليه سبحانه وتعالى التَّجسُّم ولا اختلاف الأحوال.

يرونه متجلِّيًا تجلي الصفات، لا تجلي الذات؛ كما أقره في «المدارج» ابن قيم الجوزية[1].

حتى تعقَّبه بعضهم قائلًا: (إنَّ الشَّيطان يتمثَّل به تعالى دون النَّبي، والفرق أنَّ النَّبي بشر، فيلزم من التَّمثل به اللَّبس، بخلاف المولى فأمره معلوم).

صور: -فتح بن شخرف (ت٢٧٣هـ) (عابد خراسان، ما أخرجت خراسان مثله!! على ما قال الإمام أحمد): رأيت ربَّ العزَّة تعالى في النَّوم فقال: يا فتح! احذر لا آخذك على غِرة، قال: فتهت في الجبال سبع سنين.

-أبو بكر ابن مجاهد المقرئ البغدادي (ت٣٢٤هـ) شيخ القرَّاء في عصره: رأيت ربَّ العزَّة في المنام، فختمت عليه ختمتين، فلحنت في موضعين، فاغتممت لذلك فقال لي: يا بن مجاهد! الكمال لي الكمال لي.

-الإمام القشيري: رأيت ربَّ العزَّة عزَّ وجلَّ في المنام، وهو يخاطبني وأخاطبه، فكان في أثناء ذلك أن قال الرَّب تعالى: أقبل الرَّجل الصَّالح، فالتفتُّ؛ فإذا أحمد الثَّعالبي مقبل.

-النَّجم بن خلف أقضى القضاة أحمد بن محمَّد بن خلف له كتاب «الجمع بين الصَّحيحين» إمام حافظ (ت٦٣٨هـ) رأى الله تعالى إحدى عشرة مرَّة، يقول عنه الذَّهبي: رأى الحقَّ تعالى عشر مرات، ورأى النَّبي بضعًا وأربعين مرَّة، منها يقول: كأنِّي أسمع كلامه سبحانه يقول: إنَّ سهامنا ستصيب من أرادك بسوء، ومرَّة سمعه يقول: ادنُ منِّي، مرحبًا بالحاكم الفاضل، ومرَّة سمعه يقول: أنا عنك راضٍ، فهل أنت عنِّي راض؟. «تاريخ الإسلام» (٤٦/ ٣٦٢).

(١) لابن أبي الدُّنيا المحدَّث كتاب اسمه «الرؤية»، ولابن رجب الحنبلي رسالة «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الأعلى».

الدرس الثامن والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

القول الفصل في مقام المراقبة

وهو الذي قال عنه رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك**»؛ أي: فراقبه.

تقدم مقام المشاهدة، والآن مقام المراقبة، فإذا حققهما العبد تولد منهما مقامان: الأنس بالله والخلوة لمناجاته وذكره[1].

•المراقبة أساس للسلوك السوي الحق، وتعبير عن استقامة خُلقية نفسية ومعنوية، فلا يفلح من لم يراقب تصرفاتِه وأفعالَه، ولا يصل إلى مبتغاه إلا من يقوم بمراقبة سلوكه وقلبه، وعاتب نفسه على التقصير.

فإذا حصلت لك المراقبة؛ حصل القرب من الله، والقرب منه يوجب الأنس به، والهيبة منه، والمحبَّة له، وكلَّما كنت منه أقرب كان أنسك به أقوى، وكلما كان القلب

---

(١) لماذا نفصل الكلام في هذا المقام؛ مقام المشاهدة والمراقبة؟ سؤال مهم، أجاب عنه الأولياء فقالوا: للوصول إلى الأنس بالله تعالى ومحبَّته والقرب منه.

منه أبعد كانت الوحشة بينه وبين ربِّه أشدَّ، احفظوا القواعد: كلُّ طائع مستأنس، وكلُّ عاصٍ مستوحش.

سئل أحد العارفين: هل يجد طعم العبادة من يعصي الله؟، قال: لا، ولا من يهمُّ بالمعصية.

من أراد السَّعادة الأبديَّة؛ فليلزم عتبة العبوديَّة، وأول رتبة في العبودية هي القرب من الله، وتعني: القرب من طاعته، والتزام عبادته في جميع الأوقات والأحوال، فقرب العبد من الله أولًا بإيمانه وتصديقه، ثم قربه بإحسانه وتحقيقه[1]، وقرب الحق سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا بالعرفان[2]، وفي الآخرة كرم الشهود والعيان[3]، ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعد قلبه عن الخلق، وهذه من صفات القلوب دون

---

(١) فاحرص على بلوغ منزلة الإحسان وفق العِلْم الأثري والهدي النَّبوي؛ حتَّى ترزق الأنس عند الطَّاعات.

(٢) أن تعرفه حقَّ المعرفة.

(٣) تراه بعينك الباقية

عبدوا الإله على اعتقاد حضوره فتبوءُوا في منزل الإحسان

أحكام الظواهر والكون[1]، وقرب الحق سبحانه وتعالى يكون بالعلم والقدرة وهو أمر عام لجميع الناس[2]، وباللطف والنصرة وهو أمر خاص بالمؤمنين، وبالأنس وهذا خاص بالأولياء المقربين، قال الله تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[3] [ق: ١٦]، وقال تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة: ٨٥].

صدِّقوني هذه الآية ينعم المؤمن بها بالأمن والأمان، وتتغلَّب النَّفْس بها على نزعات الهوى والشَّيطان، فما أكثر ما أقضَّت مضاجع الصَّالحين، وأرَّقت جفونهم، وأسالت دموعهم على خدودهم!! فمراقبة الله من أعظم العبادات، ألم تسمعوا: ﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا**﴾ [النساء: ١] اسمعوا وتدبَّروا: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٣٥] وروى أحمد: «**يَا أَبَا ذَرٍّ: أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي سِرِّ أَمرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ**».

---

(١) هذه المنزلة تحتاج إلى تدريج للنُّفوس شيئًا فشيئًا، فما يزال العبد يبتعد عن القيل والقال ومخالطة الرِّجال حتى تنجذب نفْسه لله تعالى، فيعيش العبد قرير العين بربِّه، فرحًا مسرورًا بقربه.

(٢) يعني: ليس قرب ذات، بل قرب بعِلْم وقدرة، فهو سبحانه معنا بعِلْمه وقدرته بحسب فهم العوام.

(٣) فكلٌّ طبقة بحسبها...

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ [الحديد: ٤].

وقال تعالى: ﴿**مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ [المجادلة: ٧].

وقال سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم مخبرًا عن الحق سبحانه:"**إذا تقرب العبد إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإذا تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة**"(١) رواه البخاري.

وغيره من الأحاديث؛ كحديثه القدسي: " **من عادى لي وليًّا فقد آذنته بحرب مني، وما تقرب لي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي بها، وإذا سألني لأعطينه، وإذا استغفرني لأغفرن له، وإذا استعاذني أعذته**). وتقدَّم شرحه.

وَيُرْوَى عنْ سيدنا عُمَرَ بنِ الْخَطّابِ قَالَ: "حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا".

---

(١) هذا من التَّمثيل وتصوير المعقول بالمحسوس لزيادة إيضاحه، ومعناه: أنَّ من أتى شيئًا من الطَّاعات ولو قليلًا؛ أثابه الله بأضعافه، وأحسن إليه بالكثير، وإلَّا فقد قامت البراهين القطعيَّة على أنَّه ليس هناك تقرب حسي ولا مشي ولا هرولة من الله سبحانه، تعالى عن صفات المحدثين.

فالمراقبة أساس المحاسبة، والمحاسبة أساس التزكية، والتزكية أساس السلوك والإحسان[1].

•ومقام المراقبة مقام جليل، فمن شهد أن ربّ العزّة والجلال مطلع عليه، ناظر إليه؛ فإنه لن يفعل إلا ما كان طيبًا وحسنًا، وسيستحي أن يرتكب الخطأ والعيب تحت نظر سيده ومولاه، فإن الحياء لا يكون شعبة من الإيمان إذا كان حياء من الناس فقط، بل إذا كان حياءً من الله الذي يراقب كل شيء ولا يخفى عليه شيء.

إن كان عمر لا يرانا؛ فربُّ عمر يرانا، ما أبلغه من درس! قوم تيقظوا وما غفلوا، وأصلحوا سرائرهم، ففاح عبير فضلهم وطيبهم، وما زلنا نذكرهم حتى السَّاعة.

وللمراقبة مراتب:

أولها: مراقبة النفس في الأعمال والأفعال حتى ينهاها صاحبها عن المعاصي، ويأمرها بأفعال البر والخير.

---

(١) بإمكانك أن تعتذر ما دمت حيًّا، وبإمكانك أن تقدِّم ما يعوض تقصيرك، وبإمكانك أنَّ ترأب الصَّدع، وبإمكانك أن تلمَّ الشَّمل ما دام القلب ينبض، فكلُّ شيء ممكن، كان والدي رحمه الله يأخذنا في العيد إلى المقابر؛ لنعرف قيمة الحياة، والمحاسبة طريق النَّجاة من عذاب الله.

سيِّدنا ابن عمر رأى مع أصحابه راعي غَنَم في طرف مكَّة، فقال له: بعني شاة، قال: إنِّي مملوك، وهذه الغَنَم لها سيِّدها، فأراد أن يختبر الرَّاعي وأمانته، فقال: قل لصاحبها: أكلها الذئب، فقال الرَّاعي وقد رفع رأسه إلى ابن عمر: فأين الله؟! فبكى ابن عمر، ثم سار وهو يقول: فأين الله؟! ثمَّ غدا إلى المملوك، فاشتراه من مولاه وأعتقه، واشترى الغَنَم وأهداها للرَّاعي، وقال: لقد قلت كلمة أعتقتك من الرِّق، وأرجو أن تعتق رقبتك في الآخرة.

والمرتبة الثانية: مراقبة القلب في استحضار النية الصادقة والخالصة لله تعالى في كل فعل وعمل؛ كي لا يدخل عليه الشرك الخفي من أبواب الرياء والسمعة والشهرة، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى**﴾؟! [العلق: ١٤][1].

---

(١) إيَّاك أن تظن أنَّ الله لا يراك ولا يسمعك، فما أعظم كفرك إن كنت تعلم أنَّه يراك ويسمعك ويطَّلع عليك ويراقبك، ثم ترتكب الجرأة على الله!! الغفلة سم زعاف يدسه الشَّيطان؛ ليحجب قلبك عن مراقبة الله، فإذا راودتك نفْسك بمعصية الله؛ فذكرها بالله

وإذا خلوت بريبة في ظلمة ... والنَّفْس داعية إلى الطُّغيان

فاستحي من نظر الإله وقل لها: ... إنَّ الذي خَلَق الظَّلام يراني

أما المرتبة الثالثة: فهي مراقبة السر[1]؛ وهي ألا يلتفت العابد في عبادته إلى ما يلهيه عن مقصوده، ولا يشتغل باطنه بما يشغله عن مشاهدة معبوده، وهو ما يشار إليه بمقام المراقبة، وهو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: **"أن تعبد الله كأنك تراه"** وهي مرتبة خواص الخواص.

فتعسًا لمن يدَّعي الصَّلاح في الملأ، وينتهك حرمات الله في الخطوات، ويضيع الحسنات، ويكتسب السَّيئات، أخرج ابن ماجه عن سيِّدنا النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عزَّ وجلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا**»، قَالَ ثَوْبَانُ: صِفْهُمْ لَنَا؛ أَلَّا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا**».

---

(١) مراقبة الخواطر: تراقب الله في خواطرك التي لا تليق بك فلا تتخيل المعاصي...لماذا هذه المراقبة؟! لأنَّ الخاطرة قد تنقلب إلى فكرة، والفكرة قد تنقلب إلى عزيمة، والعزيمة قد تقترب إلى الشَّهوة، والشَّهوة يأتيها الإصرار، فتكون فعلًا، والفعل إذا داومت عليه يصبح عادة، ومن أصعب الحالات مفارقة العادات.

والمرتبة الرابعة: مراقبة لا تتعلق بالطاعات فقط، وإنما تلزم في أغلب الأحوال والأوقات، وفي كل الأعمال واللحظات والخطرات؛ لأنه محال أن تراه وتشهد معه غيره، وهي مرتبة خاصة جدًّا، وقد حدد النبي صلى الله عليه وسلم للإحسان معنى دوام المراقبة لله في الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فقال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: " كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإحسان؟ قال: «**أن تعبد اللهَّ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

هذا الإمام أحمد يسمع أبياتًا من الشِّعر، فيترك مجلس العِلْم، ويدخل غرفته، ويغلق بابه، وهو يردِّد باكيًا:

إذا ما خلوت الدَّهر يومًا فلا تقل: خلوتُ ولكن قل: عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أنَّ ما تخفي عليه يغيب

ويؤكد السَّرَّاج الطُّوسي[1] أن معنى الإحسان الوارد في الحديث هو المعنى عند أهل الله الصوفية، وأن معنى قوله: (**أن تعبد اللهَّ كأنك تراه**) يكون بدوام المراقبة

---

(١) أبو نصر، عبد الله بن علي السَّرَّاج الطُّوسي، (ت٣٧٨هـ)، يلقب بطاووس الفقراء، شيخ الصُّوفيَّة، أستاذ أبي عبد الرَّحمن السُّلمي، زار البلاد، وكان يختم القرآن في التَّراويح خمس مرات في الشَّهر،وله

والمشاهدة بالإيمان واليقين، ويشير إلى أنه من أعظم النعم التي اختُصَّ بها أهلُ الله دوامُ المراقبة؛ وهي التحقق بمقام الإحسان، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾ [الحديد: ٤]، وهو المسمَّى عند أهل الله مقام المراقبة، وهو دون مقام الشهود، وهو مقام يكون فيه العبد بحسب استعداده من حيث قوّة شعوره ورقّة وجدانه، والله يتقرّب من عبده بحسب منزلته.

وأهل الله مجمعون على أن مراقبة الله تعالى في الخواطر سبب للحفظ في حركات الظواهر، فمن راقب الله في سره حفظه الله في حركاته في سره وعلانيته[1]، والمراقبة

كتاب «اللُّمع»، وهو موسوعة في تاريخ التَّصوُّف الإسلامي، وطبقات الصُّوفيَّة وعلومهم، وهو مؤلف «طبقات الصُّوفية» الذي تتلمذ عليه القشيري، جاء كتابه مطابقًا لما جاء من أحكام القرآن والسُّنَّة، ومبتعدًا عن الغلو في التَّصوُّف، فلقد رسم الصُّورة النَّقية للتَّصوُّف تعبِّر عن روح التَّنزيل القرآنيِّ، وجوهر ما أمر به سيِّدنا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومدرسته تعدُّ الثَّانية في التَّصوُّف بعد مدرسة الجنيد ببغداد، وكان أبو نصر في نيسابور، ووضع التَّصوف في كتابه «قواعد ذهبيَّة للتَّصوف والصُّوفيَّة»، قرأه لنا سيِّدنا الشَّيخ عبد الرَّحمن الشَّاغوري في الورد.

(١) أعلى مرتبة في الإيمان (ذروة الإيمان) أن تشعر أنَّ الله معك دائمًا، نحن نراقب ظاهر الإنسان، لكنَّه جلَّ جلاله يراقب ظاهره وباطنه، احفظوا عنِّي: (من راقب الله في خواطره؛ عصمه في حركات جوارحه)، المراقبة: خلوص السِّر والعلانيَّة له عزَّ وجلَّ.

عندهم هي التعبد بأسمائه: "الرقيب – الحفيظ – العليم- السميع -البصير"، فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها؛ حصلت له المراقبة.

قال الجنيد: من تحقَّق في المراقبة؛ خاف على فوات لحظة من ربِّه لا غير، ومن علامة المراقبة إيثار ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، مقياس دقيق، ﴿**وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ [الحج: ٣٢] إن لم تعظِّم هذه الشَّعائر؛ فأنت لا تراقب الله، والشَّيء الذي ذمَّه الله ينبغي أن يكون عندك صغيرًا، الدُّنيا عند الله صغيرة.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته، فذكر الذوق والوجد وعلاقته بالإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: "**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا**".

وللوصول إلى مقام المراقبة لا بد من توفر عاملين أساسيين؛ هما:

*دوام المجاهدة من جهة

*والسلوك على يد شيخ مرشد من جهة أخرى، وهو ما يسميه أهل الله بالصحبة التي هي عماد المراقبة ومحور التزكية والسلوك الحق؛ ولذلك قالوا:

ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح[1]؛ لأن النفس بطبيعتها السيئة تعرف كيف تتخلص وتراوغ وتسوغ لمن يريد مراقبتها وحده[2].

وختامًا:

من ثمار مقام المراقبة الخوف والحياء من الله تعالى، ثم محاسبة النفس على تقصيرها، ثم اشتعال جذوة الفكر في القلب؛ لأن المراقبة باب التفكر، وهو تردد

---

(١) مفتاح السُّلوك إلى الله وأقرب السُّبل أن تبحث على من يدلُّك على المولى عزَّ وجلَّ، وصدق الله حين قال: ﴿**الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا**﴾ [الفرقان: ٥٩]، ﴿**وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**﴾ [لقمان: ١٥]، ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (٢٩)... اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١)... كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا**﴾ [طه: ٢٩ - ٣٤].

والله يا سادة من صحَّت تبعيَّته للرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم ألبسه درعًا وخوذة، وقلَّده بسيفه، أو نَحله من أدبه وشمائله وأخلاقه، وجعله نائبًا له في أمَّته، وهؤلاء أفراد نادرون أقل من كلِّ قليل، وكفى به قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: «**الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مِنْ يُخَالِلْ**»، رتبة المشيخة الحقيقيَّة عالية نادرة عزيزة الوجود، اللَّهم دلَّنا على من يدلُّنا عليك، الحمد لله الذي جمعنا بهم.

(٢) فيسأل الشَّيخ وهو طبيب القلوب: كيف يعالجها ويتخلَّص من تسلطها عليه؟، هذا دواء من الإمام البوصيري:

والنَّفْس كالطِّفل إن تهمله؛ شبَّ على ... حبِّ الرَّضاع وإن تفطمه ينفطم

القلب بالنظر؛ للاستدلال والاعتبار والاتعاظ، وأعلى ثمار مقام المراقبة الوصول إلى مقامَي المشاهدة والقرب.

فأيُّ معنى للحياة إذا غابت مراقبة الله، وبارز العبد مولاه، وهتك السِّتر بينه وبين الله؟!

فيا من تجرَّأت على الله ومعصيته؛ لِمَ جعلتَ الله أهونَ النَّاظرين إليك؟!

يا فاعل الذَّنب أمَّا تستحي والله في الخلوة ثانيكا

غرَّك من ربِّك إمهالُه وسترُه طولَ مساويكا

فهل هناك من مهربٍ أو مفرٍّ؟ ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾ [الحديد: ٤].

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس التاسع والستون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

مراتب الولاية في الفكر الصوفي

الأولياء.. الأبدال.. النقباء.. النجباء.. الرجال.. الأوتاد.. الأقطاب.. القطب الغوث..

هذه مراتب في الولاية لله تعالى[1].

---

(١) وهؤلاء جميعًا دون الأنبياء، ومهما وصل الولي في المراتب لا يلحق أبدًا رتبة النُّبوة، فلو أنَّ وليًّا تقدَّم إلى العين التي يأخذ منها الأنبياء والرُّسل لاحترق من حينه. «اليواقيت والجواهر» للشعراني (مبحث ٤٢).

وأريدكم أن تعرفوا أنَّ هذه المراتب هي بعد الأنبياء والرُّسل والصَّحابة، فأفضل الأولياء المحمَّديِّين بعد الأنبياء هم الصَّحابة، وأفضل الجميع الصِّدِّيق الأكبر، ثمَّ الفاروق، ثم سيِّدنا عثمان، ثم سيِّدنا علي؛ كما دلَّت عليه الأحاديث والآيات، وعملنا مع عملهم كطيران النَّحلة من سرعة طيران الحمام، فقد حازوا السَّبق بصحبة سيِّد الوجود صلَّى الله عليه وسلَّم.

وهي مصطلحات صوفية لا تصف مكانة عباد الله في موالاة الله فقط، ولكنها أيضًا تصف مدى حبهم وتعلقهم بالله ومدى علمهم ومعرفتهم به سبحانه.

الوليُّ عند الصُّوفيَّة من تولَّاه الحقُّ سبحانه بظهور أسمائه وصفاته عليه عِلْمًا وعينًا وحالًا؛ يعني: الوليّ من تولَّاه الله بكثيرٍ ممَّا تولَّى به النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم؛ من حفظ وتوفيق وتمكين واستخلاف وتصريف، وقد وكَّله الله بوظائف لأهل الأرض كما أعطى الله رؤساء الملائكة وظائف يتصرَّفون فيها بأمره، فكما أنَّ كل مَلَك موكَّل على شيء؛ فكذا الأولياء في الأرض، وإذا اختص الله عبدًا واصطفاه جعله وليًّا[1]..

---

(١) وهو عبد لا يضرُّ ولا ينفع بذاته كباقي البشر، وهو دون الأنبياء في المرتبة والمنزلة؛ إذ لا أحد يصل إلى مرتبة الأنبياء مهما ارتقى في مراتب الولاية...؛ لذلك الولي ليس بمعصوم عن الخطأ إلَّا من عصمه الله تعالى، والدَّليل قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، فالمتَّقون هم أولياء الله، والدَّليل في السُّنَّة: «**من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب**» أخرجه البخاري.

أحب أن أؤكد أن هذا العلم يتعلق بالصوفية المختصين بحب الله وقربه ومعرفته وكذا ولايته.. فكان من الطبيعي أن تكون لهم مصطلحاتُهم مثل غيرهم من العلوم والتخصصات؛ كالأطباء والمهندسين والفلاسفة وغيرهم..

ومن هنا أنكر الجاهلون هذه المصطلحات.. حين أثبتها العلماء الربانيون، فمن كان جاهلًا بلغة القوم.....

فلا يقرأنَّ هذا العلم[1].

وقد تحدث العلماء عن هذه المصطلحات الصوفية، ومنهم الإمام القشيري في «رسالته».. والإمام ابن عربي في «فتوحاته المكية».. والقاشاني في «مصطلحاته الصوفية».. والإمام السيوطي في «رسالته: الخبر الدالّ، على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال».. و«التعريفات» للجرجاني[2]..

---

(١) لأنَّ هناك أقوامًا أنكروا حديث الأبدال وضعفوه، ثم قالوا: بنيتم على حديث ضعيف في الأبدال دولة من مراتب الأولياء!! من أين لكم هذا؟ هكذا كان السُّؤال لَمَّا كتبت هذه المقالة على الواتس أب، وستأتي حلقة خاصة للأدلة على هذا البحث.

(٢) هذه مصادر هذا البحث لمن أراد الرُّجوع إليها، هناك دولة من الأولياء تسيِّر الكون بأمر الله ربِّ العالمين، أخي أحبَّ أن يدرس هندسة في ألمانية، وكلَّما تقدم بطلب رفض، حتَّى ذكر

مراتب الأولياء:

جعل الصُّوفيَّة الأولياء على مراتب، وذلك بحسب اجتهادهم في دقائق التَّقوى، وبحسب توفيق الله لهم، فليس كلُّ المتَّقين على درجة واحدة، ويجب أن نعلم أوَّلًا: أنَّ كلَّ أهل الإيمان بالله ورسوله أولياء، ولكنَّ قربهم من الحقِّ جلَّ جلاله على قدْر معرفتهم به، وإنما يرتقي الولي في طبقات الولاية الخاصَّة بعد الولاية العامَّة.

وفي كل بلد أولياء أبرار، ففي الشام أبدال وهم أربعون.. وفي مصر نقباء وهم سبعون.. وفي الغرب النجباء وهم ثلاث مئة.. وفي العراق رجال وهم عشرة..

والأقطاب سبعة أركزهم الله بالقارات السبع[1]، والأوتاد في جهات الكعبة الأربعة، وقد يطلق عليهم: الأقطاب الأربعة.

أمام والدي هذه المسألة، فقال له مولانا الوالد: هل استأذنت أهل الله في خروجك؟! تقرأ الفاتحة لهم وتستأذن ثم تصلي ركعتي الاستخارة وتطلب من الله أن يختار لك الخير، فقام أخي بذلك، فسهَّل الله تعالى له ذلك خلال شهر على نحو عجيب.

(١) مشغولون بحمل أثقال الخلق، فلا ينظرون إلَّا في الحقِّ، ولهم أعمال ظاهرة: الفتوة، والتَّواضع، والأدب، وكثرة العبادة، وأعمال باطنة: الصَّبر، والرِّضا، والشُّكر، والحياء...

والقطب الغوث[1] واحد[2] أقامه الله بمكة المشرفة، وهو الواضع لقدمه فوق عنق الكل؛ مِن مريدٍ إلى الرجال ثم إلى الأقطاب، مرورًا بجميع الأولياء في زمانه وجميع الرتب[3].

وهؤلاء الأبرار لولا ركوعهم وسجودهم لارتفعت الأمطار، وتعطلت الزروع والثمار، فهم في دائرة إرادة الله، ليس لهم عن مراقبة حضرته غفلة ولا قرار؛ كما في الحديث الآتي: «**فبِهِم يسقون وبهم ينصرون؟**»، وسئل النَّبيُّ: أنهلك وفينا

---

(١) أو قطب الأقطاب أو الفرد الجامع.

(٢) لا يكون في كلِّ عصر إلَّا واحد، وهو الخليفة عن رسول الله لحفظ العالَم بالنيابة عنه صلَّى الله عليه وسلَّم، «اليواقيت والجواهر» للشِّعراني (مبحث ٤٥).

(٣) ذكر سيِّدنا أبو الحسن الشَّاذلي خمس عشرة علامةً له؛ منها: أن يُمدَّ بمدد الحفظ، والرَّحمة، والخلافة، والنِّيابة، ومدد حملة العرش، ويكرم بكرامة الحِلم، والفضل، وعِلم الإحاطة بكلِّ معلوم. وفي «الفتوحات المكِّية» (باب٢٧٠): وهو عبد الله الجامع المنعوت بالتَّخلُّق والتَّحقُّق بمعاني الأسماء الإلهية بحكم الخلافة، وهو مرآة الحقِّ تعالى، ومجلى النُّعوت المقدَّسة، ومحلُّ المظاهرالإلهية، وصاحب الوقت؛ أي: المتصرِّف في الخلق، وعين الزَّمان، والغالب عليه الخفاء، «اليواقيت والجواهر» (٢/ ٧٩).

الصالحون؟ قال: «**نعم، إذا كثر الخبث**»، معناه: إذا كثر الصالحون كانوا سببًا في عدم الهلاك وانتظام النِّعمة من الله تعالى؛ كما قال: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الأعراف: ٩٦].

يقول سيدنا علي الخواص[1]: أكملُ البلاد البلد الحرام، وأكملُ البيوت البيت الحرام، وأكمل الخلق في كل عصر القطب.

والأقطاب هم الأمة الجامعون لوراثة سيدنا رسول الله، النائبون عنه استخلافًا لقوله تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ [البقرة: ٣٠] فهم ملوك الديوان، وأمراء الإيوان، تسري في عروقهم هذه الوراثة كسريان الدم في العروق، كل لحظة هم فيها بالله لا يخرجون عن مقام العبودية. وقد عدهم الشيخ الأكبر اثنا عشر قطبًا على عدد الأبراج، ولهم علاماتٌ ذكرها الإمام مولانا وسيدنا عبد القادر الجيلاني، والإمام أبو الحسن الشاذلي، وغيرهما رضي الله عنهم.

---

(١) هو شيخ الإمام الشعراني، من علماء القرن العاشر في التَّصوُّف، كان عالمًا وفيًّا، جمع له الإمام الشعراني كلامه في كتاب سمَّاه «درر الغواص في فتاوى سيدي الخواص» (ت٩٤٩هـ) له مقام في مصر، كان يقول: أنا شيخي رسول الله، فكان الإمام الشعراني يقول: بيني وبين رسول الله شيخٌ واحد في التَّربية.

فالقطب الغوث أو قطب الأقطاب وريث النبوة الكاملة في علمي الشريعة والحقيقة، وهو الذي يجمع الأقطاب للحضرة في كل سنة، ويسمى غوثًا لالتجاء الملهوف إليه، وهو محل نظر الله في كل زمان، أعطاه الله التصرف الأعظم من لدنه في الأشياء، والغالب عليه الخفاء[1].

---

(١) لكن اشتهر منهم سيِّدنا الإمام الجيلاني، وسيِّدنا الإمام الرِّفاعي، وسيِّدنا الإمام أحمد البدوي، وسيِّدنا الإمام إبراهيم الدُّسوقي، ثمَّ يلي الغوث الإمامان، وهما كالوزيرين له، ثمَّ الأربعة الأوتاد الحافظون لجهات الأرض، ثم السَّبعة النُّجباء الحافظون للأقاليم السَّبعة، والنُّقباء وهم اثنا عشر نقيبًا في كلِّ زمان، لا يزيدون ولا ينقصون، جعل الله بأيديهم علوم الشَّرائع المنزلة، ولهم عشرة أعمال: أربعة ظاهرة: وهي كثرة العبادة، والزُّهد، والتَّجرد عن الإرادة، وقوَّة المجاهدة، وستة باطنة: التَّوبة، والإنابة، والمحاسبة، والتَّفكر، والاعتصام، والرِّياضة.

ثمَّ الأبدال الأربعون السَّاعون في قضاء حوائج المسلمين وهم في الشَّام، وهناك مراتب أخرى؛ منها التِّسعة والتِّسعون الذين هم مظاهر أسماء الله الحسنى، وأهل هذه المراتب لا بدَّ من وجودهم في كلِّ زمان إلى نزول سيِّدنا عيسى عليه السَّلام، وطريقهم مقيَّدة بالكتاب والسُّنَّة، ومبنيَّة على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء؛ يعني: التَّصوف زبدة عمل العبد بأحكام الشَّريعة إذا خلا من العِلل وحظوظ النَّفْس.

والأقطاب جمعُ (قطب) وهو الذي عليه مدار الوجود، وهو الحقيقة المحمدية، قطب العالم، لا يموتون بل ينتقلون إلى البرزخ، ويتم استبدالهم في البرزخ إلى أقطاب ترقية كلٌّ بحسب مكانته.

هناك أحاديث وآثار وأقوال للعلماء الربانيين في الاستدلال على مراتب الأولياء؛ منها:

*حديث الطبراني والإمام أحمد في «مسنده» عن سيدنا أنس قال: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لن تخلو الأرض من أربعين رجلًا مثل خليل الرحمن، فبهم يسقون وبهم ينصرون، ما مات منهم أحد إلا أبدل الله مكانه آخر**» «مجمع الزوائد» للهيثمي بإسناد حسن.

*رواية الإمام أحمد عن سيدنا علي: (**الأبدال بالشام وهم أربعون رجلًا، كلما مات منهم رجل أبدل الله مكانه رجلًا يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم البلاء**).

*ومثله عن ابن عساكر بسند منقطع.

*وروى ابن أبي الدنيا عن سيدنا علي: سألت رسول الله عن الأبدال فقال: «**ليسوا بالمتنطعين[1] ولا بالمبتدعين[2] ولا بالمتعمقين[3]، لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكن بسخاء الأنفس وسلامة القلوب والنصيحة لأئمتهم**».

*وللطبراني وابن عساكر عن سيدنا علي: (**لا تسبُّوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال، وسُبُّوا ظلمتهم**) وأخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبي في «مختصره».

*ولابن عساكر عن سيدنا علي حين قام رجل من الخوارج فلعن أهل الشام فقال: (**ويحك لا تعمِّم فإن منهم الأبدال ومنكم العُصَب**) جمع (عَصَبة): قرابة الرَّجل، وفي الفرائض: العَصَبات.

*وعنه: (**الأبدال بالشام والنجباء بالكوفة**) .

---

(١) التَّكلف والتَّشدد فيما لا ينبغي؛ مثل الغلو في العبادة والمعاملة حتى يؤدِّي إلى المشقَّة الزَّائدة، وأخرج مسلم عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «**هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ**» ثلاثًا (٢٦٧٠).

(٢) بتحريم ما لم يحرِّمه الله ورسوله، واستحداث صور في العبادات لم تكن على عهد النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، مثل شهر رمضان، يقول لك: لو مدَّ لي الشَّهر لواصلتُ الصِّيام! مع الجوع المفرط الذي يضرُّ بالعقل والجسم.

(٣) الغالون المتجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

*ولابن عساكر من طريق أخرى: (إذا قام قائم آل محمد جمع الله له أهل المشرق وأهل المغرب، فيجتمعون كما يجتمع قزع الخريف، **فأما الرفقاء فمن أهل الكوفة، وأما الأبدال فمن أهل الشام**).

*ولابن عساكر عن سيدنا علي: (**قبة الإسلام بالكوفة، والهجرة بالمدينة، والنجباء بمصر، والأبدال بالشام، وهم قليل**).

*وعنه: (**الأبدال من الشام، والنجباء من أهل مصر، والأخيار من أهل العراق**).

وفي رواية ابن عدي عن الأبدال: (**فإذا جاء الأمر قُبِضُوا كلهم، فعند ذلك تقوم الساعة**)[1].

* ولأبي نعيم في «الحلية» عن ابن عمر رفعه: «**خيار أمتي في كل قرن خمس مئة، والأبدال أربعون، فلا الخمس مئة ينقصون ولا الأربعون...**»[2].

* وعن سيدنا معروف الكرخي: (من قال في كل يوم: اللهم ارحم أمة سيدنا محمد؛ كتبه الله من الأبدال).

---

(١) «جمع الجوامع» للسيوطي (١٢٠٨٢)- «كشف الخفا» للعجلوني (١/ ٢٦) - «كنز العمال» (٦٤٦٠٩)- «إتحاف السادة المتقين» (٨ / ٣٨٥).

(٢) «حلية الأولياء» (١/ ٨)- «كنز العمال» (٣٤٥٩١) - «إتحاف السادة المتقين» (٦/ ٢٩٤).

* وفي «الحلية» بلفظ: (من قال في كل يوم عشر مرات: اللهم أصلح أمة محمد، اللهم فرج عن أمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد؛ كتب من الأبدال).

يقول الإمام الشعراني: قال الشيخ محيي الدين: وقد اجتمعتُ بالخضر عليه السلام وسألته عن مقام الشافعي، فقال: كان من الأوتاد الأربعة.

فالأوتاد إذن أربعة في كل زمان، وهم العمد في حكم الجبال في الأرض؛ ولذا سُمُّوا أوتادًا.

ويقول ابن عربي: إن الأوتاد يكونون على قلوب الرسل: إدريس وإلياس وعيسى والخضر، هؤلاء جميعًا يرجعون في الأخذ من القطب الأكبر (الغوث) ويرجعون في أحكامهم للقطب الغوث.

وقال في «الفتوحات المكية»: (والمراد به أن العالم لا يخلو زمانًا واحدًا من قطب يكون فيه).

وسمي قطبًا لجمعه جميع المقامات والأحوال. والنجباء فوق النقباء ودون الأبدال.

لكن الشيخ ضياء الدين أحمد النقشبندي في كتاب «جامع الأصول في الأولياء وأنواعهم وأوصافهم» يفصل هذه المراتب والدرجات، ويجعل الأقطاب كثيرة، فإن كل مقدم قوم قطبُهم.. وأما القطب الغوث الفرد الجامع فهو واحد.

ويتحدث عن النقباء بأنهم ثلاث مئة.. وعن النجباء بأنهم أربعون وقيل: سبعون.. ثم يذكر أعمال كل منهم.

وفي «تاريخ بغداد» للخطيب عن الكتاني -وهو عبد العزيز بن أحمد، ومحدث ومؤرخ (٣٨٩-٤٦٦هـ)[1]- قال: **النقباء ثلاث مئة، والنجباء سبعون، والبدلاء أربعون، والأخيار سبعة، والعمد أربعة، والغوث واحد**... فمسكن النقباء المغرب، ومسكن النجباء مصر، ومسكن الأبدال الشام، والأخيار سياحون في الأرض، والعمد في زوايا الأرض، ومسكن الغوث مكة. فإذا عرضت الحاجة في أمر العامة ابتهل فيها النقباء ثم النجباء ثم الأبدال ثم الأخيار ثم العمد، فإن أجيبوا وإلا ابتهل الغوث، فلا يُتِمُّ مسألته حتى تجاب دعوتهُ)[2].

---

(١) «الأعلام» (٤/ ١٣) - و«شذرات الذهب» (٤/ ٣٢٥).

(٢) انظر القسطلاني على شرح المواهب.

ومن أجمل ما قاله الإمام ابن عجيبة: (القطب هو القائم بحق الكون والمكوِّن)، ويمكن أن يتعدد، لكن إن أريد به المقام الذي لا يتصف به أحد عُبِّرَ عنه بالغوث، وهو الذين يصل منه المدد الروحاني إلى دوائر الأولياء؛ من نجيب ونقيب وأوتاد وأبدال، وله الإمامة والإرث والخلافة الباطنة، ويشار إليه بمنزلة إنسان العين من العين.. لا يعرف ذلك إلا من له قسطٌ ونصيب من سر البقاء لله، وأما تسميته بالغوث فمن حيث إغاثته العوالم بهادته ورتبته الخاصة. فالقطب الغوث عالمٌ بعلمي الشريعة والحقيقة.

وقال سيِّدي الإمام ابن حجر الهيتمي في جوابه عن الدَّليل على وجود أهل الغيب كما في «فتاويه الحديثية»: وقع لي في هذا المبحث غريبة مع بعض مشايخي؛ هي: أنِّي رُبِّيت في حجور بعض أهل هذه الطَّائفة -أعني: القوم السَّالمين من المحذور واللَّوم- فوقر عندي كلامهم؛ لأنَّه صادف قلبًا خاليًا فتمكَّن، فلمَّا قرأت العلوم الظَّاهرة وسنِّي نحو أربع عشرة سَنة؛ فقرأت «مختصر أبي شجاع» على شيخنا أبي عبد الله الإمام المُجمَع على بركته ومنسكه وعلمه الشَّيخ محمَّد الجويني بالجامع الأزهر بمصر المحروسة، فلازمته مدَّة، وكان عنده حدَّة، فانجرَّ الكلام في مجلسه يومًا إلى ذكر

القطب والنُّجباء والنُّقباء والأبدال وغيرهم ممَّن مرَّ، فبادر الشَّيخ إلى إنكار ذلك بغلظة، وقال: هذا كلُّه لا حقيقة له، وليس فيه شيء عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم.

فقلت له -وكنت أصغر الحاضرين-: معاذ الله، بل هذا صدق وحقٌّ لا مرية فيه؛ لأنَّ أولياء الله أخبروا به، وحاشاهم من الكذب، وممَّن نقل ذلك الإمام اليافعي، وهو رَجل جمع بين العلوم الظَّاهرة والباطنة، فزاد إنكار الشَّيخ وإغلاظه عليَّ، فلم يسعني إلَّا السُّكوت، فسكتُّ وأضمرتُ أنَّه لا ينصرني إلَّا شيخنا شيخ الإسلام والمسلمين وإمام الفقهاء والعارفين أبو يحيى زكريا الأنصاري، وكان من عادتي آتي أقودُ الشيخ محمَّد الجويني؛ لأنَّه كان ضريرًا، وأذهب أنا وهو إلى شيخنا المذكور؛ أعني: شيخ الإسلام زكريا يسلِّم عليه.

فذهبت أنا والشَّيخ محمَّد الجويني، فلمَّا قربنا من محلِّه؛ قلت للشيخ الجويني: لا بأس أن أذكر لشيخ الإسلام مسألة القطب ومن دونه وننظر ما عنده فيها؟.

فلمَّا وصلنا إليه؛ أقبل على الشَّيخ الجويني، وبالغ في إكرامه، وسؤال الدُّعاء منه، ثمَّ دعا إليَّ بدعوات منها: اللهم فقِّهه في الدِّين، وكان كثيرًا ما يدعو لي بذلك، فلمَّا تمَّ كلام الشَّيخ، وأراد الجويني الانصراف؛ قلت لشيخ الإسلام: يا سيدي! القطب والأوتاد والنجباء والأبدال موجودون حقيقة؟، فقال: نعم والله يا ولدي، فقلت له:

يا سيدي! إنَّ الشَّيخ -وأشرت إلى الشَّيخ الجويني- ينكر ذلك، ويبالغ في الرَّد على من ذكره، فقال شيخ الإسلام: هكذا يا شيخ محمَّد؟! وكرَّر ذلك عليه حتَّى قال له الشيخ محمَّد: يا مولانا شيخ الإسلام! آمنتُ بذلك، وصدقت به، وقد تبت، فقال: هذا هو الظَّنُّ بك يا شيخ محمَّد، ثم قمنا ولم يعاتبني الجويني على ما صدر منِّي).

هذه الدولة الصوفية لا يعرف أركانها إلا أهل الله المقتفون شرع الله، أصحاب القَدَم الراسخة والمقامات العالية.

ومن أراد الاستفاضة أكثر في هذه المراتب؛ فليرجع إلى كتب القوم التي سأثبتها في آخر هذه الأبحاث الصوفية إن شاء الله تعالى.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

الدرس السبعون

من دروس التصوف الإسلامي الصحيح

الإمام شمس الدين التبريزي

الإمام شمس الدين التبريزي محمد ابن الإمام علاء الدين ملك داد التبريزي[1]، من تبريز (٦٤٥-٥٨٢ هـ) الموافق (١١٨٥- ١٢٤٨م) من بلد خَوِي.

هو عارف ومتصوف وفيلسوف، وشاعر فارسي (إيراني)، ويُعدُّ المُعلِّم الروحي للإمام جلال الدين الرومي الملقب بـ(مولانا).

كان شمس الدين التبريزي أحد الدراويش [من رجال الدين].. ولقِّب بالشَّمس؛ لأنَّه تهرب من الظَّلام إلى شمس الحقائق.

وقيل: إنه راودته رؤى منذ سن العاشرة تقريبًا، فقال لأبيه ذلك ولكنه لم يصدقه.. وبعد مدة ترك منزله وبدأ بالتجوال حتى قيل عنه: إنه لم ينم بمكان أكثر من ليلة واحدة؛ لكثرة تجواله وترحاله، وعندما رأى أنَّ أهله لم يبالوا بمرائيه وحاله؛ ترك بيته وساح في البلاد لعلَّه يجد من يستمع إليه.

---

(١) لم أجد من ترجمته سوى أنَّ اسمه مَلِك داد.

راح الفتى الشمس يكسب النقود لطعامه وشرابه من تفسير الأحلام.. ولكن لم يكن أحد يصدقه حول الرؤى التي قال: إنها تراوده، وكانوا ينعتونه بـ(المجنون).

وادعى التبريزي بأنه كلَّم الله والملائكة[1].

وقام برحلاتٍ إلى مدن عدة؛ منها حلب وبغداد وقونية ودمشق[2]، وأخذ التصوف عن ركن الدين السجاسي[3]، حتى عثر الإمام الشَّمس على ضالته أخيرًا، فوجد من يستمع إليه ويصدقه، وهو الإمام الرُّومي.

اعتكف الإمامان شمس التبريزي وجلال الدين الرومي أربعين يومًا في مدينة قونية لكتابة (**قواعد العشق الأربعين**) المشهورة في التصوف، وانتقيت لكم قاعدة على سبيل المثال؛ لتتعرفوا إليها وهي: (الوحدة والخلوة شيئان مختلفان، فعندما تكون

---

(١) والحقيقة أنه يمكن رؤية الله والملائكة في المنام كما ثبت عن الإمام أحمد وغيره.

(٢) من تبريز إلى قونية، ومن قونية إلى بغداد، ومن بغداد إلى حلب، ثمَّ إلى دمشق... تجوال كبير في عهد الدواب طويل الأمد.

(٣) أبو الغنائم، لم تسعفني مصادري لترجمته، لكنَّه ضمن سلسلة التَّصوُّف التي تنتهي بأبي بكر الشِّبلي عن الإمام الجنيد.

وحيدًا فمن السهل أن تخدع نفسك ويخيل إليك أنك تسير على الطريق القويم.. أما الخلوة فهي أفضل لنا؛ لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد، لكن في نهاية الأمر من الأفضل لك أن تبحث عن شخص؛ شخص يكون بمثابة مرآة لك.. تذكر أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقًّا إلا في قلب شخص آخر وبوجود الله في داخلك..)[1].

ومن القواعد الجميلة المناسبة لحالنا اليوم قوله في (القاعدة ١١٦): لماذا يحدث كلُّ هذا معي؟ لأنَّ الله يريدك أقوى، إنَّ الطَّريق إلى الحقيقة يمرُّ من القلب لا من الرَّأس، فاجعل قلبك دليلك لا عقلك الرَّئيس، إنَّ معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله (من عرف نفْسه عرف ربَّه) (القاعدة: ٢).

يوجد معلمون وأساتذة مزيفون في هذا العالَم أكثر عددًا من النُّجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السُّلطة وبين المعلمين الحقيقيين، فالمعلم الرُّوحي الصادق لا يوجه انتباهك إليه...، بل يساعدك على أن

---

(١) (قواعد العشق الأربعون) (القاعدة: ٧)

تقدِّر نفْسك الدَّاخلية وتحترمها، إنَّ المعلمين الحقيقيين شفافون كالبلور يعبر نور الله من خلالهم... (القاعدة: ١٣).

كان التقاء التبريزي بالشاعر العظيم جلال الدين الرومي في تجواله عام ١٢٤٤م[١]، لقاءً عظيمًا للأدب الصوفي، وتكونت بعد ذلك اللقاء صداقة غيَّرت مجرى حياة كليهما، فالرومي تحول من رجل دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة، وصوفي ملتزم، وداعية إلى الحب، ولكن رابط الصداقة الجميل الذي ربط هذين الاثنين بعضهما مع بعض بدأ بالتآكل حتى انفصلا -وذلك بعد ثلاث سنوات تقريبًا- على نحو مأساوي.

من آثاره: مثنوية «مرغوب القلوب» و«مقالات[٢]» و«ده فصل» وديوان شعر.

ديوان شمس الدِّين التَّبريزي:

بعد أن وصل شاعرنا الفارسي شمس الدين التبريزي إلى مدينة قونية عاصمة السلجوقيين الروم في عام ١٢٤٤ بحث عن شخص يجد فيه خير الصحبة، حتى

---

(١) كان عمر الإمام الرُّومي ٣٧ سَنة.

(٢) كتاب نثر فارسي، كتبه في أواخر حياته.

وجد في الرومي ضالته، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما، حتى إن تقارِبَهما ظل دافعًا لحسد الكثيرين لجلال الدين الرومي؛ لاستئثاره بمحبة الصوفي التبريزي، وحين اغتيل التبريزي ولم يُعرَف قاتله؛ حزن الرومي على موت شيخه وحبّه العميق له، فأفاض بأشعار وموسيقا ورقصات تحوّلت إلى ديوان سمّاه «ديوان شمس الدين التبريزي» أو «الديوان الكبير»، وهو في مجال العشق الإلهي؛ يعني: عزا أكثر شعره إلى التَّبريزي دليلًا على حبِّه لصديقه الرَّاحل.

ومن «ديوان شمس الدين التبريزي» أو «الديوان الكبير» الذي قام بترجمته سيد علي

حسيني اقتطفنا هذه الغزليات، طبعًا هو شِعر أعجمي ترجم إلى العربيَّة، وربَّما لا يروق لنا؛ لأنَّنا عرب، لكنَّه عند الأعاجم شِعر له قيمته ورموزه:

يا مَلِكَ جسمِنا وروحنا..

يا من يسبب ابتسامنا..

يا مكحِّل عيوننا..

يا نور عين روحنا..

يا من خجل القمر من جلالتك..

يا من أحلَّ عشقك من دمنا..

عندما رأيتك كان القلب يقول: جاء القضاء، جاء القضاء.. يعني: آن وقت الحبِّ.

نحن كالكُرات المحتارة وسط معركة لعبتك..

يعني: تقلَّبنا كما تحبُّ كالكرة بيد النَّاس.

وفاته:

وفقًا للنقولات الصوفية فإن شمس الدين التبريزي اختفى في أحوال غامضة.. فبعضهم يقول: إنه قتل على يد المناوئين له بسبب غيرتهم من علاقته مع الرومي.. وبعضهم يقول: إن التبريزي غادر مدينة قونية فارًّا إلى دمشق ثم إلى بلد خَوِي[1]، وتوفي في خَوِي سنة ٦٤٥ هجري، ثم حيث دفن هناك وله ضريح مشهور[2]، زرته أثناء زيارتي لقونية في تركية.. ورُشِّح ضريحه ليكون من مواقع التراث العالمي لليونسكو.

لم أكثر من الحديث عنه؛ لأنَّه أميل إلى الفلسفة منه إلى غيره من العلوم الشَّرعية.

---

(١) في محافظة قونية.

(٢) ضمن حديقة في برج.

وقامت إحدى الكاتبات بتحويل القواعد إلى فلسفة روائية جعلت الشَّريعة مظاهر لا قيمة لها أمام العشق الإلهي، وهذا خطأ بيِّن وزندقة، فليتنبه، فهناك فرق بين (قواعد العشق) للرومي ورواية قواعد العشق لتلك الكاتبة... فهي تحرض فيها على العنف والكراهية والحقد بعكس كلام الرومي الذي انتقل من علوم الشَّريعة إلى علوم الحقيقة، واستطاع أن يرقى بروحه إلى أعلى درجات العشق؛ وهو حبُّ الإله.

يتبع دروس التصوف

هنا دمشق

فهرس الكتاب

رقم الدرس	المحتوى	رقم الصفحة
	المقدمة وسبب التأليف	٧
	بين يدي الكتاب	٨
١	مدخل	١٩
٢	تعريف التصوف	٢٢
٣	النشأة والتاريخ	٢٥
٤	الطرق الصوفية	٣١
٥	ألقاب السادة الأكابر أقطاب التصوف	٣٦
٦	الطريقة الشاذلية	٤٠
	سيد هذه الطريقة سيدنا أبو الحسن علي الشاذلي	٤٠
	أبرز شخصيات هذه الطريقة قديمًا	٤٢
	الطريقة الشاذلية الدرقاوية الهاشمية في الشام	٥٠

	الطريقة اليشريطية	٥٢
	ورد الطريقة الشاذلية الورد العام	٥٣
٧	الطريقة الدندراوية	٥٥
	سيد الطريقة السلطان محمَّد الدندراوي المصري	٥٥
٨	منهاج الطريقة الدندراوية	٦١
٩	الطريقة الدسوقية	٧٢
	سيدها سيدي الإمام إبراهيم الدسوقي	٧٢
١٠	الخليفة الواحد والعشرون المجدد للطريقة الشاذلية أحمد بن مصطفى العلاوي	٨٥
١١	مصطلحات التصوف١	٨٩
١٢	مصطلحات التصوف٢	٩٨
١٣	المنهج العملي في التصوف	١٢٩
١٤	مجاهدة النفس	١٣٤
١٥	الذكر عند الصوفية	١٣٨

١٦	الخلوة ١	١٤٠
١٧	الخلوة ٢	١٤٤
١٨	الخلوة ٣	١٥٠
١٩	الخلوة ٤	١٥٥
٢٠	الخلوة ٥	١٥٩
٢١	العقيدة التي يتبنّاها الصوفية	١٦٣
٢٢	الشريعة والطريقة والحقيقة	١٦٥
٢٣	عقيدة الصوفية في الأولياء	١٧٠
٢٤	كرامات الأولياء ١	١٧٨
٢٥	كرامات الأولياء بعد الانتقال عند أهل السنة ٢	١٨٤
٢٦	كرامات الأولياء بعد الانتقال عند أهل السنة ٣	١٩٠
٢٧	هل يعلم الأولياء الغيب؟	١٩٣
٢٨	موقف أهل السنة والجماعة من التصوف وأقوال أكابر علمائهم	١٩٦

٢٩	وحدة الوجود والحلول والاتحاد	٢٣٨
٣٠	حكم الأناشيد الصوفية	٢٤٧
٣١	حكم آلات اللهو إذا رافقت الذكر والأناشيد الدينية عند مدَّعي التصوف	٢٥٤
٣٢	خصائص الشعر الصوفي	٢٧٢
٣٣	الاستعارة عند شعراء التصوف	٢٨٣
٣٤	تاريخية التصوف	٢٨٨
	التصوف في القرن السابع الهجري	٢٩١
٣٥	بين علمي الشريعة والحقيقة	٢٩٤
٣٦	حضرة الذكر	٢٩٨
٣٧	بيان آداب الذكر التي يجب أن يعرفها الذاكر	٣٠٧
٣٨	التوسل ١	٣١٤
٣٩	التوسل ٢	٣٢٧
٤٠	المدائح النبوية	٣٣٣
٤١	المدائح النبوية عند الصحابة الشعراء وغيرهم	٣٣٥

	أوَّلًا: المدائح النبوية عند سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه	٣٣٥
٤٢	ثانيًا: المدائح النبوية عند سيدنا كعب بن زهير رضي الله عنه	٣٤٠
٤٣	المدائح الصوفية لخير البرية	٣٤٥
	ثالثًا: الإمام البوصيري (٦٠٨-٦٩٦هـ)	٣٤٥
٤٤	أشهر دواوين الشعر الصوفي	٣٥٢
٤٥	حكم الاحتفال بالمولد النبوي	٣٥٨
٤٦	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ١	٣٦٧
٤٧	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ٢	٣٦٩
٤٨	الصوفية يدافعون عن منارات الإسلام ٣	٣٧٣
٤٩	التفسير الصوفي المسمى بالتفسير الإشاري وحكمه ١	٣٧٩
٥٠	التفسير الإشاري ٢	٣٨٢
٥١	رحمة الصوفية بالأمة الإسلامية ١	٣٨٦
٥٢	رحمة الصوفية بالأمة الإسلامية ٢	٣٨٨

٥٣	رحمة الصوفية بالأمة الإسلامية ٣	٣٩١
٥٤	رحمة الصوفية بالأمة الإسلامية ٤	٣٩٦
٥٥	علماء الصوفية من أهل السنة	٤٠٠
٥٦	علماء التصوف في القرن الماضي	٤٠٥
٥٧	فضل الذكر بالاسم المفرد والرَّدُّ على المعترضين عليه	٤١٥
٥٨	الذكر بالاسم المفرد	٤٢٥
٥٩	شرح حديث: «كل بدعة ضلالة»	٤٢٩
٦٠	من سلسلة رجال الطريقة	٤٣٤
	الخليفة الثاني الإمام الحسن البصري	٤٣٤
٦١	الخليفة الثالث العارف بالله داود الطائي	٤٤١
٦٢	الخليفة الرابع سيدنا معروف بن فيروز الكرخي	٤٥٠
٦٣	الخليفة الخامس سيدي الإمام السري السقطي	٤٥٩
٦٤	الخليفة السادس سيد الطائفة الصوفية الإمام أبو القاسم الجنيد بن محمد	٤٨٥

٦٥	الطريقة التيجانية	٥٠٧
	إمام الطريقة التيجانية	٥١٢
٦٦	مقام المشاهدة ومقام المراقبة	٥١٩
٦٧	القول الفصل في مقام المشاهدة	٥٣٤
٦٨	القول الفصل في مقام المراقبة	٥٣٨
٦٩	مراتب الولاية في الفكر الصوفي	٥٥٠
٧٠	الإمام شمس الدين التبريزي	٥٦٤

صدر للمؤلف

صدرت مجموعة من كتب والده الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني رحمه الله تعالى وقام بتحقيقها:

١. كتاب الإسراء والمعراج.

٢. كتاب مناسك الحج والعمرة (طبع عدة مرات).

٣. كتاب الدعوات.

٤. الوصية الواجبة.

٥. رسائل الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني رحمه الله تعالى.

٦. ديوان خطب فضيلة الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني رحمه الله تعالى.

٧. الدروس البدرية (للشيخ محمد بدر الدين الحسني) ج١.

صدرت مجموعة من كتبه منها:

٨. الأجوبة الجلية عن المسائل الاعتقادية.

٩. الأجوبة العلمية عن المسائل الفقهية.

١٠. أحكام التجارة والتجار في الإسلام على المذاهب الأربعة (رسالة دكتوراة).

١١. أحكام الصيام على المذاهب الأربعة (طبع عدة مرات).

١٢. الأدلة المؤتلفة في مبيت مزدلفة.

١٣. الأدلة المجمعة على صلاة الظهر بعد الجمعة.

١٤. أربعون حديثًا في خصائص سيدنا النبي صلَّى الله عليه وسلَّم (طبع عدة مرات).

١٥. تحرير المسالك إلى عمدة السالك في الفقه الشافعي.

١٦. تنبيه الأبرار إلى كفاية الأخيار (مجلدان) في المذهب الشافعي.

١٧. ثبَت بالمسائل غير المفتى بها في كتاب عمدة السالك في المذهب الشافعي.

١٨. الجوهرة في شرح الجوهرة (مذكرة في عقيدة أهل السنة والجماعة) (طبع عدة مرات).

١٩. دليل الحاج الطبي.

٢٠. دليل الحاج، مختصر لأهم الأحكام والأدعية في الحج والعمرة.

٢١. ديوان الشيخ عبد القادر الحمصي.

٢٢. رسائل ابن الخطيب الحسني في مجلدين.

٢٣. رسم المفتي (شرح لأهم المصطلحات والقواعد الفقهية، وترجمة لأعلام الشافعية).

٢٤. زاد المسلم من أذكار الكتاب والسنة (طبع عدة مرات).

٢٥. سور من القرآن وأدعية مختارة من الكتاب والسنة (طبع عدة مرات).

٢٦. شرح ابن قاسم الغزي (فهرسة ومقدمات) (طبع عدة مرات).

٢٧. ضم ثلاثة أثمار على متن غاية الاختصار في الفقه على المذاهب الأربعة (رسالة الماجستير).

٢٨. عمدة المفتي: متن ابن الخطيب الحسني في معتمد فقه المذهب الشافعي مع الأدلة (مختصر المجموع للإمام النووي).

٢٩. غرر الشآم في تاريخ آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم في مجلدين.

٣٠. كيف تكون خطيبًا ناجحًا؟

٣١. مختصر حاشية الباجوري على ابن قاسم في المذهب الشافعي.

٣٢. مختصر حاشية الباجوري على جوهرة التوحيد.

٣٣. مراقي العبودية في توحيد رب البرية (طبع عدة مرات).

٣٤. مشجرات الفقه الشافعي.

٣٥. مشجرات عقيدة أهل السنة والجماعة (مرفق مع مشجرات الفقه الشافعي).

٣٦. مع الله في الأذكار والأوراد (طبع عدة مرات).

٣٧. مناسك الحج والعمرة على المذهب الشافعي.

٣٨. ميزان الأخيار في التجارة والتجار "على المذهب الحنفي" (رسائل دبلوم).

٣٩. الديوان الأول في الخطب: نفحات منبرية في تاريخ المئة الأولى الهجرية، يتضمن السيرة النبوية بأكملها ثم تاريخ الخلفاء حتى سيدنا عمر بن عبد العزيز ﵁ ومواقف من السيرة.

٤٠. الديوان الثاني في الخطب: نفحات منبرية في سيرة أئمة المذاهب الفقهية (طبع مرات).

٤١. الديوان الثالث في الخطب: نفحات منبرية في القضايا التربوية.

٤٢. الديوان الرابع في الخطب: نفحات منبرية في القضايا الإيمانية (أربعة أجزاء). فيها استعراض لأركان الإيمان الستة مستمدة من الكتب المعتمدة عند الأشاعرة والماتريدية.

٤٣. الديوان الخامس في الخطب: نفحات منبرية في القضايا العراقية.

٤٤. الديوان السادس في الخطب: ردود على أباطيل.

٤٥. الديوان السابع في الخطب: الانتصار للنبي المختار.

٤٦. الديوان الثامن في الخطب: نفحات منبرية في الشخصيات الإسلامية.

٤٧. الديون التاسع: قصص الأنبياء.

٤٨. الديوان العاشر: نفحات منبرية في أعلام الشخصيات الإسلامية (ثلاث مجلدات).

٤٩. الديوان الحادي عشر: نفحات منبرية في الحرب اللبنانية.

٥٠. النفحة العلية في أناشيد الحضرة الشاذلية.

٥١. دليل المؤمنين لأحاديث سيد المرسلين في العقيدة والفقه والأخلاق (١٠٠٠٠حديث).

٥٢. معجم المصطلحات الفقهية على المذهب الشافعي.

٥٣. النور السافر في مناقب أهل البيت الأكابر.

٥٤. حكم التوسل في الإسلام.

٥٥. كشف الران عن الوقت الضروري.

٥٦. أحكام الشهيد في الفقه المقارن.

٥٧. صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم.

٥٨. حكم إمامة المرأة في الصلاة.

٥٩. التجديد في الفقه.

٦٠. اعرف نبيك (مترجم إلى الإنكليزية).

٦١. رد الغافل إلى صلاة الغفلة.

٦٢. الديوان الثاني عشر: ديوان نفحات منبرية في حرب غزة الآبية (الحرب السابعة).

٦٣. الديوان الثالث عشر (نفحات منبرية في الأوامر والنواهي الشرعية).

٦٤. محاضرة عن القدس الشريف.

٦٥. مجالس الصوفية.

٦٦. الصلاة بين الشريعة والحقيقة.

٦٧. برنامج الدين والحياة، وبرنامج (فيه هدًى للناس) (الإحسان، الإيثار، العمل الصالح، القرآن في رمضان، هدي السلف في الرجوع إلى الله).

٦٨. مسابقة رمضان على قناة صوفية.

٦٩. محاضرة: ماذا تحب أن تكون؟

٧٠. معجم الطلاق.

٧١. مختصر علوم القرآن.

٧٢. مختصر تاريخ التشريع.

٧٣. التسويق الشبكي.

٧٤. الديوان الرابع عشر: نفحات منبرية في الثورة السورية.

٧٥. أبحاث التصوف.

٧٦. موسوعة فقه المذهب الشافعي ١٢ مجلدًا.

٧٧. موسوعة العقيدة ٤ مجلدات.

٧٨. موسوعة أعلام الشخصيات الإسلامية ٥ مجلدات.

٧٩. موسوعة الخطب المنبرية ٧ مجلدات.

٨٠. الموسوعة الصوفية ٣ مجلدات.

٨١. الديوان الخامس عشر: ديوان الخطب المعاصرة.

وأمَّا ما هو تحت الإعداد والطبع:

٨٢. الأجزاء الفقهية في المذهب الشافعي.

٨٣. أحكام تجويد القرآن الكريم.

٨٤. أمهات المؤمنين.

٨٥. آيات المجالس.

٨٦. البُدُر فيمن حضر غزوة بدر.

٨٧. براعة الاستهلال في الخطابة.

٨٨. تحقيق كتاب فتح العلَّام في الفقه الشافعي (فقه مقارن).

٨٩. حاشية على الروض المربع للبهوتي (فقه الحنابلة) في الفقه المقارن.

٩٠. حاشية على الهدية العلائية (فقه العبادات للحنفية) في الفقه المقارن.

٩١. حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد في العقيدة.

٩٢. حاشية على شرح الصاوي على جوهرة التوحيد.

٩٣. حاشية على فقه الشقفة في المذهب المالكي في الفقه المقارن.

٩٤. حاشية مفيد العوام للجرداني في أدلة المذهب.

٩٥. ديوان الخطب الجمعية.

٩٦. رسالة في مصطلح الحديث النبوي الشريف.

٩٧. السيف الصارم الصمصام في الرد على المدّعي هشام.

٩٨. الفتاوى (على المذاهب الأربعة).

٩٩. فقه العبادات على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه.

١٠٠. فهرسة كتاب إعانة الطالبين في الفقه الشافعي.

١٠١. فهرسة كتاب الأسماء واللغات للإمام النووي.

١٠٢. فهرسة كتاب روضة المحتاجين في الفقه الشافعي.

١٠٣. فهرسة كتاب فتح العلام في الفقه الشافعي.

١٠٤. فهرسة كتاب مغني المحتاج للخطيب الشربيني.

١٠٥. مبادئ الإملاء.

١٠٦. مجالس رمضانية.

١٠٧. مختارات من الشعراء الإسلاميين.

١٠٨. مختصر الإسرائيليات في التفسير والحديث الشريف.

١٠٩. مختصر تاريخ المذاهب الإسلامية في العقائد.

١١٠. مختصر حاشية الأمير على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد.

١١١. مختصر حاشية الباجوري على السنوسية الصغرى.

١١٢. مختصر خصائص اللغة العربية وطرق تدريسها.

١١٣. الموسوعة الفقهية: مسائل الفقه المعتمدة الراجحة في المذهب موزعة على أبواب الفقه المختلفة من تسعة كتب في المذهب الشافعي.

١١٤. مختصر شرح إحياء علوم الدين.

١١٥. ديوان الخطب المعاصرة.

البرامج المصورة على الفضائيات:

١. أعلام التصوف.

٢. القضايا التربوية.

٣. مجالس الصوفية.

٤. مجالس رمضان.

٥. أحكام الصيام من «إحياء علوم الدين».

٦. المهرجانات النبوية في المولد الشريف ١٥ مهرجانًا.

٧. مسابقة رمضان.

الصوتيات:

١. تاريخ المئة الأولى الهجرية.

٢. تاريخ الخلفاء.

٣. تاريخ الأئمة الأربعة (الملف الفقهي).

٤. الأوامر والنواهي الشرعية.

٥. الشخصيات الإسلامية.

٦. الخطب المنبرية.

٧. قصص الأنبياء.

٨. القضايا الإيمانية.

٩. القضايا التربوية.

١٠. ردود على أباطيل.

١١. أناشيد الحضرة الشاذلية.